مكتبة ديوان العرب تقدم لكم

أوهام التاريخ اليهودي

جودت السعد – فلسطين - الأردن

الإهـــــــداء

هـــــلا

بكل البنادق المشرعة،
الرافضة للهزيمة واليأس،
ولكل المقاتلين،
فكراً ونهجاً وأسلوباً وممارسة.

لكل الذين يطأون بأقدامهم حالات النكوص والتردد.
للعقل الكبير والقلب الذي يتسع مساحة الوطن العربي.

الى كل عربي يزداد شموخاً رغم النزيف الدائم وسقياً لتلك الأرض "الأم" وخلودها.

المقدمة

كثيرة هي الوسائل التي استعملتها الحركة الصهيونية للوصول الى أهدافها، لكن من أهم هذه الوسائل، توظيف التاريخ لخدمتها وصولاً الى

أغراض سياسية محددة. فالتاريخ بالنسبة لها هو التوراة، والديانة اليهودية ابنة هذا التاريخ، والديانة اليهودية والتاريخ التوراتي هما عكازتا الحركة الصهيونية لولاهما لظلت تزحف على بطنها ووركها دون أن تستطيع الوقوف والمشي.

التاريخ – بالنسبة للديانة اليهودية – "موظف أو متطوع" لمصلحة اليهود وأطروحاتهم ومقولاتهم، ورغم وجود ثغرات تاريخية قاتلة تمس الشخوص – بشكل خاص – والأحداث عموماً إلا أن هذا التاريخ ظل محمياً بجدار إيماني سميك أخذ السمات القدسية، مع مرور الزمن، ليس لليهود حسب بل لأتباع الديانتين المسيحية والإسلامية أيضاً. ومع غياب البديل العقلي والموضوعي فرض العامل النقلي نفسه وغدا المؤرخون مجرد ناقلين لأحداث يشوبها الكثير من الظنون والشكوك والمبالغات ويفرضونها كمادة دراسية وتربوية على مراحل الدراسة كافة من الإبتدائية وحتى مراحل البحث والتنقيب.

فإذا كان الإنسان قد اكتسب سماته الخلاقة والمتميزة والمتفردة بكونه مخلوقاً ذا تاريخ، والتاريخ ميزة الكائن العاقل، ندرك مدى خطورة تشويه العقل بتشويه التاريخ وإلغاء ملكة النقد الإيجابية فيه، لقتل الحقيقة أو إجهاضها أو استعمالها وسيلة لتمرير الباطل وتزويقه.

وما دام التاريخ والعقل "صنوان" لا بد أن تسيطر الحقيقة بعوامل الفكر أو بقوتها الذاتية، ومعها تتشذب الأحداث الكبيرة وينجلي التراث ويسقط كل طفيلي أو سطحي أو طارئ، وتغدو المسيرة الحضارية فسيفساء جميلة في بنيان الحقيقة التاريخية.

التاريخ ليس مجرد سرد أو نقل لوقائع وأحداث رسمها حكام وملوك حسب أهوائهم أو قصص وأساطير ميتافيزيقية، بل هو علم موضوعي عموده الفقري علم الآثار الحديث، علم موضوعي وإنْ لم يكن بالإمكان إعادة "تجربته" لكن يمكننا إعادة النظر فيه مع المستجدات المادية والمكتشفات الآثارية التي لم تعد مجرد أحجار وطلاسم بعد أن تم فك رموزها وتحليل كتاباتها وأشكالها إضافة الى تدخل علم الكيمياء في تحديد أعمارها.

لقد أدركت الحركة الصهيونية والمؤرخون اليهود خطورة علم الآثار على المنهج التوراتي الأسطوري والنظري، فجرت محاولات للالتفاف حول هذا العلم وتطويعه لدعم وجهة النظر اليهودية من خلال:

أولاً: السيطرة على مراكز الأبحاث والدراسات التي تتولى هذا الجانب في الغرب وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية وتجنيد مجموعات من الباحثين والأثاريين والمؤرخين واستصدار مئات المطبوعات (كتب ودوريات) لتنفيذ هذا المخطط. وبحكم الصلة الروحية بين اليهود ومسيحيي الغرب

كان الطابع العام لهذا المنهج لصالح الصهيونية والتاريخ التوراتي باستثناءات قليلة. وعن طريق هؤلاء الباحثين تسربت المعلومات التوراتية – على علاتها – الى المؤرخين العرب، عموماً، وبالنقل الحرفي أحياناً.

ثانياً: أسس الكيان الصهيوني دائرة الآثار الإسرائيلية بعد مرور أقل من شهرين على إعلان الدولة الصهيونية رسمياً (حيث كان الإعلان هذا بتاريخ 14 أيار 1948 بينما صدر مرسوم تشكيل دائرة الآثار الإسرائيلية أوائل تموز 1948) والهدف من ذلك السيطرة على المناطق الآثارية ووضع اليد عليها والتنقيب فيها وبالتالي فرض رقابة على نتائج هذه التقنيات.

الأحداث "التاريخية التوراتية" كما تؤكدها كثير من المؤشرات: إما أنها نتائج لمقدمات أو مقدمات يستنتج منها نتائج، وهي إما مقدمات باطلة وبالتالي تكون نتائجها خاطئة أو هي نتائج خاطئة بحكم مقدماتها الباطلة.

ومن القضايا الهامة التي تشير الى مغالطات المؤرخين وتبنيهم لوجهة نظر التوراة وأحياناً المغالاة فيها موضوع الهجرات من الجزيرة العربية وبالذات ما تسمى "موجة العبريين"، دون دليل (اللهم إلا الدليل التوراتي وغير الكامل في هذه النقطة). فمن أين جاءت – لو افترضنا وجودها – هل جاءت من جزيرة العرب أيضاً وكيف كان خط سيرها، وأين آثارهم؟! لقد خرجت منذ الألف الرابع ق.م. موجات من الجزيرة العربية: الأكديون والعموريون، وأثارهم لا زالت شاخصة حيثما حلوا وأقاموا. ومن الأكديين جاء البابليون والأشوريون ومن العموريين الكنعانيون (الفينيقيون). ثم تداخل العموريون والأكديون في تشكيل الدولة البابلية التي انحدر منها الملك العظيم الحمورابي ثم خرج من الجزيرة العربية حوالي 1500 ق.م. الآراميون وبعدها الموجة العربية الحديثة.. فأين يأتي زمن ومكان هجرة العبريين؟!

ليس من دليل مهما كان عمقه وأهميته على وجود العبريين. باستثناء الدليل الوحيد الذي لا يركن الى صدقه وهو الدليل التوراتي، وهذا لا يشير أيضاً الى هجرة كبيرة بل الى هجرة أسرة. إذن لماذا يصر مؤرخونا الأفاضل على اعتبار العبريين موجة خرجت من الجزيرة العربية؟!

والأنكى من ذلك تعامل المؤرخين عامة – ومنهم العرب – مع قضية اللغة العبرية كنهها، صوتها، صورتها، قلمها وبدايتها ومخطوطاتها القديمة . .. ولعدم وجود أي دليل على وجود اللغة العبرية سلكوا الطريق السهل ورأوا مع من رأى أن العبرية هي الكنعانية ومع أن التوراة نفسها لم تجرؤ في كل مراحلها على وصف العبرية بالكنعانية إلا أن هؤلاء المؤرخين أصروا على ذلك دون دليل أو منطق أو حجة تنسجم مع الأطروحات والأحداث التاريخية. فالتوراة قالت أن الموسويين تكلموا لغة كنعان، ولو لم يكن التمايز موجوداً لما ذكر النص بصيغته "سفت كنعن". والموسويون (لو افترضنا – كما تقول التوراة – وجود صلة قربى مع من يسمون إسرائيليين)، واعتماداً على

نصوص التوراة فإنهم مكثوا 430 سنة في مصر وهذه المدة كفيلة بأن تكون لغتهم مصرية، ولما جاءوا الى كنعان تحدثوا الكنعانية بحكم الوسط العام في المنطقة الجديدة (أرض كنعان). وإذا أجاز بعض المؤرخين لأنفسهم أن يصفوا العبرية بأنها كنعانية فمن المنطقي أن يسلموا أيضاً أن اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها قسم من أهل الهند هي لغة هندية.

هناك لغتان لليهود، في العصر الحديث، إضافة للعبرية، هما: اليديش واللادينو تلقيان الضوء على كيفية الوصول الى بناء اللغة العبرية، فاليديش لغة تكونت من مفردات عبرية (وهذه مزيج من الكنعانية والأكدية والآرامية والعربية) والمانية وسلافية وإنجليزية، بينما اللادينو فهي لغة استعملها يهود إسبانيا ومعظم مفرداتها من اللغة الإسبانية. واللغتان تكتبان من اليمين الى اليسار.

أما العبرية فهي ليست (كما سنرى لاحقاً) سوى لهجة آرامية أدخل اليها مفردات أكدية وكنعانية (فينيقية) وعربية حديثة ويونانية وأخيراً مجموعات كبيرة من مفردات اللغات الأوروبية المنقولة بلفظها ومعانيها. وهذه اللغة لم تصبح محكية ومكتوبة إلا في فترة متأخرة نسبياً تعود الى فترة المكابيين (القرن الثاني ق.م.). وحتى هذه اللحظة لم يعثر المنقبون الآثاريون بمن فيهم المنقبون (الإسرائيليون) على أي نص عبرية قبل هذا العصر – أي القرن الثاني قبل الميلاد.

قد تكون جبهة التاريخ والمعرفة أشد الجبهات وأخطرها في الصراع العربي الصهيوني لتماسها مع الصراع الحضاري وبالتالي الوجودي. وعليه توجب الفرز الحقيقي لمعطيات التاريخ وتبيان الغث من السمين خاصة أن الحقيقي وغير الحقيقي من هذه المعطيات أخذت أدواراً على مسرح الأحداث بفعل الأثر التوراتي.

المعروف جيداً لعلماء الأجناس البشرية: أن الديانة اليهودية شأنها شأن المسيحية والإسلام تضم أجناساً مختلفة: ويعلم المؤرخون ومنهم (الإسرائيليون) أن 90% من يهود العالم اليوم هم من أصل خزري تهودوا في العصر الوسيط، إضافة الى كتل أخرى جاءت من أقوام مختلفة منهم العربي – يهود اليمن – الذين تهودوا زمن الملك العربي ذي نؤاس ومنهم الحبشة – الفلاشا – ويهود الصين . . الخ. فالحاح اليهود على نقاء الدم اليهودي مقولة لم تعد تعني شيئاً، مع أنها تمارس فعلياً على صعيد السياسة الصهيونية . وإلا ما الذي يجمع بين (ثيودور هيرتزل) أزرق العينين وأبيض البشرة وذو الشعر الناعم مع (إسرائيل زنغويل) أسود اللون وصاحب الشعر الأجعد على رأس الحركة الصهيونية؟

رغم الدور "التاريخي" للتوراة والأهمية الدينية التي يلعبها "الكتاب المقدس" فإنه يتضمن الكثير من التناقضات والسلبيات التي لا حصر لها؛

لكن المؤرخيون يجمعون على حدثين كبيرين "في التاريخ اليهودي" لم تتطرق التوراة اليهما بالتفصيل المعهود رغم أهميتها:

الأول: أن التوراة لم تذكر شيئاً عن حياة (بني إسرائيل) في مصر بعد وفاة يوسف رغم الإشارة الى مكوثهم 430 سنة هناك فهل تعتبر التوراة أو كتبتُها أن أبناء يوسف أو أبناء أخوته الأحد عشر (الأسباط) المباشرين غير مؤهلين للمسح والبركة والنبوة فغيبها الكتبة 430 سنة ليبعثوها من جديد على يد موسى؟

الثاني: من المعروف توراتياً أن عشرة أسباط من أصل إثنا عشر سبطاً أيدوا حاكم شكيم (نابلس) بينما أيد سبطان حاكم يهودا بعد موت سليمان وقد سقطت شكيم على يد سرجون الثاني 722 ق.م. وسبي سكانها الى بلاد أشور .. بينما سبي سكان يهوذا على يد نبوخذ نصر 586 ق.م. فلماذا تجاهلت التوراة السبي الأشوري كلياً وألغت وجودهم تماماً بينما يتركز الاهتمام على سبي نبوخذ نصر؟!. .

خلال إطلاعي على نتائج التنقيبات في المناطق التي تقول التوراة أن "اليهود" سكنوها (في مصر، العراق، فلسطين) لم أجد ما يؤكد أي مقولة توراتية، بل إن كل أثر جديد يكتشف يعمق الهوّة بين "تاريخهم" والتاريخ، ويؤشر دوراً سياسياً فقط لأناسٍ ارتضوا أن يكونوا رأس حربة للجيش المصري في التصدي للثورات التي عمت بلاد الشام كلها ضد التسلط الفرعوني. ولما كانت الدوائر تدور على الفراعنة لصالح الأشوريين أو البابليين كان يرهن هؤلاء أنفسهم لخدمتهم. . وحين جاء الفرس على أنقاض الدولة البابلية كان هذا النفر اول من وظف نفسه لخدمة الحاكم الجديد الى درجة اعتبرت التوراة قورش الفارسي هو المسيح المنتظر. ولما قضى اليونان على الدولة الفارسية أصبح هؤلاء فيلقاً متقدماً في الجيش اليوناني بل إن المكابيين الذين يفتخر بهم اليهود على أساس أنهم أنشأوا دولة يهودية في القرن الثاني قبل الميلاد لم يكونوا سوى ممثلين لليونان ثم للرومان في فلسطين.

دائرة الآثار والتراث العراقية والتي تضم أروقتها على كنوز وقيم حضارية وأثارية تعود الى معظم المراحل التاريخية، والتي تتولى التنقيب والإشراف على كل الساحة العراقية، بما تعنيه الساحة العراقية من بعد حضاري مؤكد (سومري، أكدي، بابلي، أشوري، آرامي) وهي حضارة شاخصة ومؤكدة بالدليل المادي الملموس. هذه الدائرة التي لا يسعني إلا تقديم شكري الجزيل لها على ما أتاحته لي من اطلاع على أثارها ومخازنها ومستودعاتها ونتائج أبحاثها وتنقيباتها. ورغم أن ما تحويه هذه الدائرة فإنني لم أعثر على وثائق ذات أهمية لها علاقة بالتاريخ اليهودي. فالعراق كله خلو من أي "تراث" له السمة اليهودية وباستثناء بعض القبور وبعض الكنس "التراثية" وبعض النسخ من التوراة مكتوبة على الجلد لا يزيد

عمرها على مائتي سنة وبعض الفخاريات السحرية باللغة العبرية والتي ربما تعود الى القرن السادس للميلاد لم نجد شيئاً آخر يذكر. وبهذه المناسبة لا بد أن أذكر بالعرفان كل الذين قدّموا لي العون في هذه الدائرة العلمية الجليلة وبشكل خاص أمينات وموظفات المكتبة المركزية لهذه الدائرة ومكتبة المسماريات.

أما التنقيبات في فلسطين سواء أكان قبل عام 1948 أو بعده ومن خلال الإطلاع على ما كان ينشر في المطبوعات المتخصصة أو كتب المنقبين أو ما تعلنه دائرة الآثار الإسرائيلية، فإن ما تم الوصول اليه يؤكد هامشية هذا النفر من الناس تاريخياً - كما سنرى في الكتاب – باستثناء مخطوطات البحر الميت والتي جاءت لتؤكد الأفكار التي يطرحها الكتاب ومنها:

1) أن الديانة اليهودية والتوراة هما نتاج القرون التي تلت السبي البابلي،

2) اللغة العبرية لغة حديثة نسبياً، لم يبدأ الحديث والكتابة بها قبل القرن الثاني قبل الميلاد، وقد بدء بتطويرها في القرن الرابع ق.م. ولم تصبح لغة كاملة إلا بعد القرن السادس الميلادي.

وفي مصر.. . ورغم الكم الهائل من الآثار المهمة فيها، لم يعثر على أي نص أو أثر له إشارة الى وجود اليهود عبر التاريخ باستثناءين:

الأول: النص المذكور باللغة الآرامية مكتوب على ورق البردي في مكان يسمى (الفنتاين) أسوان حديثاً ويشير النص الى وجود معسكر لأناس قدموا من يهوذا في فلسطين هرباً من وجه نبوخذ نصر، وهذه إشارة واضحة الى طبيعة علاقات هؤلاء بالفراعنة.

الثاني: أما هذا فهو مخطوطات الجنيزا التي عثر عليها أثناء ترميم كنيس عزرا في القاهرة عام 1896م وتنحصر هذه المخطوطات في القرن الثامن الى الثاني عشر للميلاد.

الضرورة تقتضي ليكون حكمنا موضوعياً في تتبع مجريات التاريخ النأي والابتعاد عن التأثير النقلي الذي يلعب الدور الأساس في حالة الانحراف والرؤيا غير الصحيحة بحكم الإحكام الميتافيزيقية المسبقة كأطر يتحرك من خلالها فكر الإتباع.

جـــــودت الـــــسعد

توطئة

دراسة سلسلة الأفكار التوراتية بموضوعية، كما أرى، تقتضي بالضرورة ممارسة شيء من السلوك النقدي تجاه مجمل المعطيات الواردة حتى لا نظل مقيدين بالمنطلقات الذاتية المحضة تجاهها، وإزاء هذا المنهج قد نكون مضطرين الى العودة للبداية التطورية ضمن هذا المنطق، فالدواعي الذرائعية والإيمانية في الديانة اليهودية اعتورها الكثير من التداخلات، أو ربما تكون حصيلة تجارب الشعوب وتأثيراتها المتبادلة.

والديانة اليهودية – التي ظهرت بعد السبي البابلي – تطورت في جو مفعم بالإيمانات الأسطورية والميتافيزيقية التي كان يؤمن بها سكان وادي الرافدين وسكان وادي النيل وسكان بلاد الشام، "فأساطير الأصل" الباحثة عن ماهية الكون والآلهة والإنسان تعج بها الآداب السومرية والأكدية والفرعونية، وهي ليست بعيدة عما ورد في سفر التكوين، ويزداد التبلور الأسطوري من خلال "أساطير التنظيم" التي تعتمد على "القرارات الإلهية" في تسيير دفة الأمور لتكون هذه القرارات قاطعة وغير قابلة "للطعون"، و"يهوه" في الديانة اليهودية له السمات الفوقية المطلقة، فالظواهر الطبيعية كلها ببطشها وجبروتها ليست إلا إنعاكاسات لعظمة يهوه، وبالتالي أدّت الميثولوجيات الى خلق أسطورة جديدة هي "إرادة الله" (1).

"إرادة الله" التي تعني هنا إرادة يهوه استولدت حالة التفاعل الجدلي (الديالكتيكي) بين يهوه وشعبه المختار؛ فهو وحده الإله الخاص الذي قادهم في القفر وليس معه إله أجنبي. (1) وتجسد هذا الإله "النموذجي" وتشخص في حالات بشرية مادية الى درجة "عبادة العشق" المنعكسة والمتمثلة بغرام هذا الإله بهذا النمط من البشر (2). . . وهذا الإله لا بد له من التطور موقفياً وأخلاقياً وفكرياً ليواكب التطورات الاجتماعية والسياسية وبالتالي إيجاد الأرضية لفكرة "ملكوت الله"، ومن حالة ملكوت الله المطلقة وصولاً الى "أرض الميعاد" المشخصة". ففي هذه الأسطورة يرتبط جلال الله وحقارة الإنسان في موقف درامي ينسرد على مر الأحقاب والأزمان متحركاً باتجاه مستقل، ناءٍ وقصي، حيث يلتقي في اللانهاية هذان المتوازيان.

الفكر اليهودي لا يرى ظواهر الطبيعة مليئة بالمعاني، بل المليء بالمعاني هو التاريخ ، إذ غدا التاريخ كشفاً عن إرادة الله الدينامية، ولم يكن الإنسان مجرد خادم لدى الإله كما كان في أرض الرافدين، وليس في منزلة الركود الكوني المفروض عليه، كما في مصر. لقد كان الإنسان – في الفكر اليهودي – خادم الله ومفسّر كلمته، وقد حبه الله شرف مسؤولية تحقيق إرادته. وهكذا حكم على البشر بالخيبة لقصور الأسباب وعجزهم، فنجد الإنسان في العهد القديم وقد نال حرية جديدة وعبئاً من المسؤولية جديداً، ونجد فيه أيضاً فقداناً جديداً للإنسجام سواء مع عالم العقل أم عالم الإدراك. وهذا ما يفسر لنا معاناة أبطال العهد القديم وتناقضاتهم حيث يتزاوج في شخصياتهم القبح والجمال، الكبرياء والخسة، النجاح والخيبة،

فهناك شخصية شاؤول المأساوية وشخصية داود الإشكالية، وهناك أفراد ضربت عليهم عزلة رهيبة وهم يواجهون إلههم المتميز، فإبراهيم يمشي ثقيل الخطى مع ابنه قاصداً ذبحه، ويعقوب في معاناته. كذلك موسى وغيره.

كان الإنسان في مصر وأرض الرافدين خاضعين لسيطرة الطبيعة، لكن هذه الطبيعة بإيقاعها الأكيد تعينه وتعاضده، وإذا كان يحس في لحظات شقائه بأنه يتخبط في شبكة من القوى التي لا يدرك كنهها، فإن لتحكم الطبيعة به إجمالاً صفة التهدئة والتلطف، فتيارات الفصول الكونية الأبدية تحمله على متنها حملاً رقيقاً. وقد عبّر الإنسان عن علاقته العميقة الحميمة بالطبيعة برمز الإله – الأم. أما الفكر التوراتي عتمد على التماس مع التاريخ البابلي، وهذا الاعتماد ليس بالضرورة يؤدي الى التوافق، فموضوع مثل أسطورة الخلق هو رسم لشخصية جماعة بنت أساطيرها وغدت جزءاً من تراثها الأدبي كانعكاس لوضعها الخاص. وبذلك تسهل معرفة الأصول والفروع النابتة على هامش الحقيقة، وهذا ما يتبين في الأساطير الواردة في الكتاب المقدّس. (1)

لقد أدت المكتشفات الآثارية الى فهم تاريخ الديانة اليهودية وتطورها، وغدا مؤكداً أن الكثير من تراث وآداب وعبادات الديانات القديمة تتضمنها الديانة اليهودية، ويمكن تمييز حالتين في هذه الديانة: مكتوبة وغير مكتوبة. الأولى لها علاقة بعلم الفلولوجيا وعالم اللغة، والثانية تمر عبر ال حقل الآثاري. (2)

تشير المراجع الميثولوجية للعهد القديم الى أن كتبة التوراة استعملوا الأساطير المحلية في كتاباتهم، وهي بالتالي تعطي مؤشراً على طرق تفكيرهم؛ فاقتباس الأساطير نتيجة حتمية للخلفية الأدبية. وقد تم تعديل وتكييف هذه الأساطير ليكون بالإمكان استيعابها، بل إن بعضاً من هذه الأساطير قلبت معانيها تماماً فغدا التنين رمزاً الى مصر على سبيل المثال. وقد كان لهؤلاء الكتّاب قدرة كافية وإمكانية كاملة على استيعاب أساطير التجلي، التي تقود الى نضالات دينية. (3) ويبدو أن كتبة التوراة، ولعمق تفاعلهم مع آداب وادي الرافدين والآداب المصرية، اقتبسوا واستعملوا الأسطورة، لكنهم كانوا عاجزين عن خلق أسطورة خاصة. يشير EISSFELDT الى قابلية الفهم الميثولوجي عند اتباع الديانة اليهودية حيث يقول: الميثولوجيا الخاصة غير موجودة في العهد القديم ولم نطلع إلا على المقتبسة من الغير، وبدون شك أن ذلك مرتبط بالإيمان بيهوه دون إنكار الآلهة الأخرى، ويشترك A. WEISER في نفس الرأي فيقول: الهدف من وجود الأسطورة غير معروف في التوراة، فالنزعة التوحيدية والاسنجام مع التاريخ تنتصب كدين طبيعي تستند الى الخلفية الأسطورية. وبناء عليه لا نستغرب قراءة STAHLIM: الأسطورة مقولة وثنية. وهي مهمة بائسة إن

لم تكن مستحيلة، وحتى إذا كانت التوراة قادرة على خلق ميثولوجيتها فالظروف لم تكن لتؤهلها على التطور.

لكن كيف يمكن فهم وتسويغ المصطلحات الاشتراكية (الإلحادية) في مجال الإيمان بالله، فآلهة متعددة عبدت في العهد القديم، ألا يشكل ذلك جوهر الفكر التوراتي الإشراكي (1)؟

هناك أفكار وآراء حول الفكرة الأسطورية التوراتية المسماة العهد (المعقود بين يهوه وشعبه المختار) الذي قطعه يهوه على نفسه بأخذ جانب "شعبه المختار". وقد درس هذه الفكرة بعمق R. VON RAD حيث أرجعها الى تقاليد تاريخية معروفة وممارسة قبل الفترة الزمنية التي قد يكون عاشها موسى والموسويون؛ فأسفار العهد القديم تشير أن الإله (يهوه) أو السيد قدم من سيناء الى فلسطين (القضاة 5: 4-5) تنفيذاً للعهد، أو هي تطبيق عملي لفكرة العهد. لكن التاريخ يؤكد وجود عناصر أساسية لعهود سابقة في فلسطين. بل إن G. MENDENHALL أشار الى العهد الحثي الذي أعطاه الملوك الى رعاياهم، وبذلك يكون العهد التوراتي له أصوله أيضاً ليس عند الحثيين فقط بل نجدها من خلال العلاقات في ALALKH حيث دللت الآثار على وجود عهدين سابقين على عهد التوراة): الأول بين إر-إمIR-IM من TUNIP وبين نيكمبا NIQMEPA من ALALAKH والثاني بين أبان ABAN وبين ؤريم – ليم IRIM- LIM. وإزاء وجود هذه المواثيق القديمة ألا يحتمل أن يكون العهد التوراتي مقتبساً أيضاً (1)؟ بل إن JOSEPH OFFORD اعتبر أن العهد القديم وليد الكتابات المسمارية التي تعود الى ما قبل ولادة إبراهيم. (2)

فمنظومات القوانين التي تتضمنها لوائح شعوب عدة، ومنها شريعة حمورابي، وهي أقدم من موسى بحوالي ألف سنة (3) تشير الى أن كتبة العهد القديم جمعوا شريعتهم ونظموها من خلال حضارة الآخرين السابقة، وهكذا فإن دراسة أديان شعوب المنطقة تعطي مؤشراً على أن هؤلاء الكتاب قد ضمنوها في أسفار التوراة. وهذا ما يسمى بالأصل التاريخي لكل دين.

اعتماداً على (ارميا 18) (4) هناك ثلاثة ينابيع للمصادر الإلهية: كلمة النبي، ونصيحة الحكيم، ووصية الكاهن. الأول يتعامل مع القضايا الأخلاقية والاجتماعية والثاني هو المرشد الفعلي في الحياة، والثالث يحقق الطقوس الدينية الرسمية الضرورية. ومواعظ عاموس، كتاب الأمثال، كتاب اللاويين توضيح نموذجي على هذا التعاقب. والينبوع الأول وثيق الصلة بفكرة الوحي. ومن المؤكد أن دراسة عدة أحقاب تاريخية ستلقي الأضواء - على ما يسمى البشرى النبوية – فمعلوماتنا المبكرة عن الأنبياء تشير بالإجمال الى أنهم كانوا يعيشون وضعاً دينياً مشتركاً أو اجتماعياً مع الآخرين. هذه السمة الايمانية كانت عامة ومشابهة لتجمعات الآلهة عند

أمم المنطقة وبالذات عند الفينيقيين، إضافة الى أن الديانة اليهودية – كما هو الحال عند الفينيقيين – اعتمدت على سلوكيات الدروشة، التي تشبه الهوس كأساس لاستثارة الوحي الديني، وربما كتون "نوبة" توظف كعامل سيكولوجي هام (5).
كانت حالات الهوس الديني السيكولوجي تحتمر كحالة من النوبات الروحية في وقت لم يكن من شخص يثير التساؤل حول النبوة الأصيلة، ربما سبب استعداد الناس لتقبل الإيحاء المستمر. وبسبب نوبات الدروشة في الزمن الروحي تفقد الثقافات قدرتها على إشباع المتطلبات الروحية ويصبح للرؤى والأحلام معان إلهية إلهامية، وغالباً ما تبدأ بها نشوة النبوة، والتجربة تشير أن بدايات الدين لم تشترط هدم المغروس في النفس كلياً. ومن لمعتقد أن التجربة الشخصية لعبت دوراً في نقل الأوامر الإلهية، لكنها لم تصل الى معرفة كنه الذات الإلهية أو الوصول الى نقطة تتلامس مع إدراك ماهية الله المنظم للكون نتيجة تشوش فاعلية الاستدلال المنطقي، وبذلك يتم الولوج الى الدائرة الخرافية المغرقة وغير المبررة.

ثمة حقيقة لا بد من التسليم بها، وهي جديرة بالملاحظة، ونتاج طبيعي لتطور حالة الوعي عند كُتّاب العهد القديم. وهي التنازل عن التمييز بين الإنساني والإلهي، والتي يلعب الإلهي فيها المركز الروحي، لكن يظل الكتاب المتأخرون للتوراة غير قادرين على سبر الهوة المتناقضة في المفاهيم والعقائد وحتى الشعائر الدينية التي يستدل فيها عدم واقعية "التطور" الفكري لليهودية. وليس التاريخ اليهودي سوى تلفيق أصبح مكشوفاً مع الحركة الأثارية النشطة التي تعم منطقة الشرق الأدنى، بل العالم، وإزاء ذلك يمكن القول أن المنحى الفكري الوحيد الذي أجاده كُتّاب العهد القديم هو طمس الحقائق التاريخية الموضوعية، والخروج بتاريخ يلعب الذاتي فيه دوراً أساسياً في سياق الأحداث أو ترتيبها وحتى في اختراعها وكما في الروايات الحديثة حيث يجري تطويع الشخوص والأحداث وأحياناً المنطق في إطار الحبكة الروائية؛ فإن كتّاب العهد القديم قد سلكوا نفس السبيل. (فعزرا) على سبيل المثال لعب دوراً مهماً جداً في كتابة سفري عاموس وإرميا، وعاموس وإرميا شخصيتان أسطوريتان وظفهما عزرا لرسم هيكلية الديانة اليهودية، وهذان السفران قد يكونان نواة الديانة اليهودية المتطورة أو جوهرها وربما يكونان أول أسفار التوراة التي كتبت في فترة السبي البابلي. وعزرا – إضالة لأنبياء السبي – كان يطمح الى تحقيق هدف سياسي، فكان لا بد له من ربط اطروحاته الدينية بالتاريخ الأمر الذي اقتضى كتابة الأسفار التي لها الطابع التاريخي: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية، يشوع، القضاة، صموئيل، الملوك. فعبادة (يهوه) التي أول من عرفها القبائل العربية الشمالية (1) كانت تتمركز في جبل سيناء، ويتميز يهوه –بحكم الطبيعة – بالقسوة والجبروت، وقد عرفت هذه العبادة قبل مجيء الموسويين بآلاف السنين، فلماذا اختار كتّاب العهد القديم هذا الإله دون غيره ليكون إلهاً لأتباع الديانة اليهودية فقط دون الجنس البشري كافة؟ قد يكون الخيار محكوماً بسببين: الأول سيكولوجي

تؤطره ظروف السبي الداعية الى حالة تمرد ميتافيزيقي، فكان يهوه ممثلاً هذا الاتجاه. والسبب الآخر تاريخي لربط الحلقات ببعضها. . (فيهوه) هو إله سيناء، وسيناء تقع بين مصر وفلسطين. لكن مع ذلك لم يدرك كُتّاب التوراة إلا لاحقاً أن إلهاً يقصر اهتمامه على مجموعة من البشر أو منطقة محددة من العالم ينبش قبره بيده ويكون صانع فنائه، لذا حصل تغيير جوهري على بنية هذا الإله ليتواءم مع التطور إباه فترة تنظيم الأطر العقلية لهذه الديانة.

والتوراة هي مصدر الوحيدة في معرفة أخلاق شخوص مثل إبراهيم، يعقوب، موسى، صموئيل، داود، وغيرهم. ففي (التكوين 11، 12) ظهر إبراهيم بشخصية مختلفة، فقد كذب وكاد يورط شرف زوجته بإيحاء أو أمر مباشر من الإله يهوه. فالمخادعة أدت الى فوائد حققها من الفرعون. وهذا يشير أن أتباع يهوه يتمتعون بحصانة "إيمانية مقدسة" تنأى بهم عن أي إلزام خلقي. وهو نفس الموقف اللاعقلاني المنسوب الى يهوه، حيث قدم المساعدة الى إبراهيم في مواجهة ابيمالك (التكوين 20) فكان موقفاً لاأخلاقياً بسقطة دفاعية انتهازية. وبذلك أوقع الراوي العدل في الكذب لتجنّب الضرر، وهذا موقف ظالم لكنه مبرر مع "الأغيار". كما ورد في فكر عزرا والمنسوب الى عاموس تصوير يهوه بوحشية مطلقة، فكانت المقاييس العقلية هنا مشروطة بقرارات بها خلل أخلاقي أثناء التعامل مع الإله، تجسّد في قانون العبودية وتعدد الأزواج والآخلاق الجنسية البدائية. إن الانحراف الكبير في الأخلاق التوراتية توضحه قصة الخداع التي مارسها يعقوب مع أبيه الأعمى، حيث استطاع –أي يعقوب – سرقة المسح (المباركة) التي كانت لأخيه عيسو، ساعده في ذلك أيضاً الإله يهوه. وعلى نفس المبدأ استعار الموسويون حاجيات المصريين وهربوا بها. وذلك الإله الذي طلب من إبراهيم التضيحة بابنه، لأنه كان يظن أن عملاً كهذا ضروري لحماية نفسه من الطاعون أو الجفاف والمجاعة أو الوحوش البرية المفترسة التي كان يرسلها اليه يهوه نفسه اليه كعقاب، أو انتقام من أعمال تافهة أو نتيجة تلطخ طهارته الجسدية، هو إله عديم الكفاية العقلية. وعلى ضوء هذه الحقيقة الاصطفائية نستطيع فهم "عدالة" يهوه في وقت تنسب اليه الأعمال الشريرة، وغير العادلة. وهي صورة مكشوفة تعبّر عن مكنون مخترع هذا الاله، أنه هو، وليس الله، فأخلاقه وسلوكه يلزمها الربط المنطقي وهي أخلاق وسلوك نبتت في تربة السبي.

رسم عزرا على لسان عاموس الحدود بين الشرعي وغير الشرعي لكن ظل العدل غير مدرك، وللمفاضلة العقلية فإن الجدارة الداخلية بدأت الحلول محل المكاسب الخارجية، لذا كانت القسوة والحدّية في مواجهة الأخطاء الخطيرة وظهر يهوه لا إنساني في عدله والعبادة بالنسبة له "عماء للعيون" ومحاولة لرشوة العدالة. ومع ديمومة هذه السمات في يهوه إلا أنه في مرحلة لاحقة من تطور فكر عزرا أعطي مهمات أوسع اتسمت بالأممية، وذلك كنتيجة حتمية لبدء حركة انتشار الدين اليهودي في منطقة السبي وما حولها.

النقطة الحاسمة "لأنبياء" السبي أنهم عقلنوا وهذّبوا السلوك الهمجي لمن أطلق عليهم أنبياء قبل السبي ليكتمل بذلك المنهج، ولسبر الهوة التاريخية صارخة الوضوح في التاريخ اليهودي.

لقد حصلت تغييرات أساسية، مع مرور الزمن، في بنية أسفار التوراة كما اتسعت وتشعّبت التفسيرات التحليلية، فاكتملت الصورة بكل تفاصيلها. وفي البدء كان التغيير قليل الأهمية، وأحياناً لم يكن بالإمكان معرفة كنه التغييرات، ومع ذلك لوحظ التطور الذي طرأ على أسماء الآلهة (الألوهيم) (1)؛ فقد ت غير اسم (الوهيم) في أسفار التوراة، فأحياناً يكون فيها (الله) وأحياناً (الوهيم)، كما استعملت أسماء أخرى مثل ايل، ايل-عليون، سداي، ايل-شداي، إله، بعل.. الخ (2). وكان هذ تقليداً لتطور إسم الآله عند الأمم الأخرى، فقد كان البابليون قد طوروا إلههم ايلو ILU أي ايل، كذلك تقرأ في الأرامية اسم ايليم والذي أصبح في الديانة اليهودية ايلوهيم. وظاهرة التطور هذه شملت المصريين والأكديين بل إن جميع الأمم غيّرت في بنية الهتها.

إن فكرة الله القائمة على فكرة الإله إيل هو نتاج جهد الأنبياء، لقد كان ايل منبع الحكمة في التوراة، في محاولة لتبرئة العهد القديم من معتقدات الأمم الأخرى، فعلى سبيل المثال اتمدح كتبة سفر أيوب والجامعة والمزامير الإله ايل باعتباره إلهاً أممياً: مما يَسّر على أمم كثيرة الاشتراك في عبادة الاسم العظيم الوهيم (3)، مع أن الإله إيل هو أحد الآلهة المعبودة في بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام قبل ولادة إبراهيم الخليل.

لقد ثبت لدى مصادر نقدية متعددة أن التوراة، ربما أكثر من أي كتاب آخر، هو نتاج جهد مشترك. إنه خلاصة عدة ثقافات، وحصيلة مستمرة لثقافات متطورة. (4) فالأساطير المذكورة في العهد القديم غير متجانسة مما يدل على تنوع مصادرها واختلاف مبدعيها وتمايز بيئاتها الجغرافية والاجتماعية، وإذا كانت تعتبر قديماً وليدة التاريخ اليهودي، فإن علم الآثار الحديث بدا يكشف النقاب عن أسرار هذه الأساطير التي تمثّل صورة التفكير لدى شعوب وادي الرافدين ومصر وبلاد الشام، وتدلل المكتشفات الآثارية على ضعف ووهن وانهيار الحجج التاريخية التي تبناها كتّاب العهد القديم، الأمر الذي جعل الكثيرين يعيدون النظر في إعادة كتابة التاريخ يكون لعلم الآثار دور أكثر أهمية في رسم الخطوط الموضوعية لهذه الكتابة.

ومما لا شك فيه أن كثيراً من المقولات والمفاهيم أصبحت بتأثير التوراة "مُسَلّمات" لفترة زمنية طويلة، رغم وضوح الخطأ، سواء أكان هذا الخطأ تاريخياً أو منطقياً أو جغرافياً. وظل كثير من الباحثين يدورون حولها أو يعالجونها بخجل إذا لم يجندوا أنفسهم لتبريرها أو الارتكاز عليها في بناء نظرياتهم ووجهات نظرهم. ومن هذه الأخطاء:

أولاً:
مقولة الجنس السامي الواردة في التوراة (سفر التكوين 10) والتي أشاعها المستشرق الألماني شولتزر أثناء أبحاثه في تاريخ الأمم عام 1781، نسبة الى سام بن نوح. هذه التسمية لم تغير رغم تناقض دلالاتها ومضامينها، ورغم اعتراض بعض الباحثين. فالعلاّمة الألماني نولدكه قال في كتابه "اللغات السامية": تدرج التوراة شعوباً في قائمة الساميين كالعيلاميين والليديين رغم اختلافهم وتقصي شعوباً كالكنعانيين رغم توافقهم. ومما يلفت النظر أن اللغة الكنعانية القديمة اعتبرت لدى كثير من الباحثين لغة العبرية سيراً على ما طرحه المؤرخون والباحثون التوراتيون. وقد أرجع العالم بروكلمان سبب إقصاء الكنعانيين الى عداء كتّاب التوراة للكنعانيين (1).

ثانياً:
يتفق الباحثون التوراتيون على أن القرن التاسع عشر قبل الميلاد هو العصر الذي عاش فيه إبراهيم، بينما لم تحمل أرض كنعان اسم فلسطين إلا بعد مجيء شعب الفلسطينيين اليها في القرن الحادي عشر ق.م. ومع ذلك تقول التوراة (التكوين 34:21): "وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة". كما يسمى أبيمالك ملك الفلسطينيين (تكوين 1:26)، فكيف تأتي التوراة على ذكر غربة إبراهيم في أرض الفلسطينيين بل وتذكر اسم أحد ملوك الفلسطينيين مع أنه قد سبق وجودهم بحوالي 800 سنة ؟!

ثالثاً:
لم يرد باللوائح العراقية والمصرية إطلاقاً إسم مملكة إسرائيل، وهذا دليل صارخ على عدم وجودها – كمملكة - . كما لم تطلق الحوليات الأشورية والبابلية والمكتشفات المصرية صفة ملك على حكام السامرة.

رابعاً:
ورد في سفر التكوين (16:12، 10:24، 43:30، 7:32) أن إبراهيم ويعقوب اقتنيا وركبا الجمال، فإذا كان وجودهما في القرن التاسع عشر ق.م. فإن ذلك يدلل على وجود مفارقة تاريخية، لأن الجمال لم تدجن إلا في القرن الثاني عشر ق.م.، أي أن تدجين الجمال تم بعد إبراهيم بحوالي 700 سنة، فكيف اقتناها وركبها إذا لم تكن قد دجنت بعد (1)؟

خامساً:
جاء في سفر أيوب (1: 1-3) أن عوص منطقة تقع جنوب فلسطين، ويشير السفر الى أنها تقع قرب بلاد الكلدانيين (2) ثم يقول أنها تقع شرقاً. . . فكيف هي في بلاد الكلدانيين (العراق) وكيف تقع شرقاً وفلسطين غرب وادي الرافدين؟!

سادساً:
استنتج العلماء تاريخ الطوفان التوراتي من خلال لائحة الأمم الواردة في التوراة وحددوا هذا الحدث عام 2501 (3) ق.م. بينما الدراسات الجغرافية والآثارية تؤكد وجود طوفان كبير حدث جنوب العراق يعود الى 4000 ق.م. ومذكور أيضاً في المصادر السومرية.

سابعاً:
جاء في سفر التكوين (31:11) أن إبراهيم خرج من أور الكلدانيين. وأور مدينة سومرية ترقى الى الألف الثالث ق.م. ولم يرد اسمها أور – الكلدانيين إلا بعد ظهور الكلدانيين في القرن السابع ق. م. وهذا يعني أن سفر التكوين كتب بعد القرن السابع ق.م.

لا شك أن التناقضات الواردة في الكتاب المقدس والطفيلية الفكرية للديانة اليهودية، والتجميع العشوائي للعقائد وحشوها كتراث توراتي تتضمن في ذاتها بذرة موات اليهودية. ومع ذلك لم تتعرض هذه الديانة الى الخطر، بل إنها وفي ظروف كثيرة لعبت أدواراً مهمة في رسم أقدار مناطق مختلفة من العالم. . . فهل تتمتع فعلاً بديناميكية فاعلة تؤهلها على الصمود أم هنا أسباب أخرى؟

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الغير – اتباع الديانات الأخرى غير اليهودية – شكلوا الغلاف الخارجي الصلب الذي حمى الديانة اليهودية، فدخول المفاهيم اليهودية في صلب البنى الإيمانية لتلك الديانات أصبح الخط الأمامي لجبهة القتال اليهودية. . فإذا نقد ناقد مسيحي على سبيل المثال منهجاً أو سلوكاً أو فكراً يهودياً فإنه سيجد آلاف المسيحيين يقفون في وجهه، وكذا الحال بالنسبة للمسلمين. وهكذا أصبح المسيحيون والمسلمون المدافعين بحماس عن اليهودية سواء مباشرة أو غير مباشرة.

---

(1) نوركيلد جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص 271.

(1) سفر التثنية 32: 12-10

(2) سفر الخروج 9: 6

(1) Jastrow Morris, Hebrew and Babylonian Traditions P. 21

(2) W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel P 37.

(3) G. H. Davies, P. E. Q. July – Dec. 1956 P. 83 – 89.

(1) Ibid.

(1) Raphael Giveon P. E. Q July – Dec 1961 P. 143 – 145

(2) Joseph Offord, P. E. Q. january 1919 P. 39

(3) William Frederic Bade, University of California Cronical Vol 13 No. 1 P. 6

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(1) Willaim Frederic Bade, University of California Cronical Vol. 13 No. 1

(1) M. D. Cassuto, The Doycumentary Hypthesis And The composition of The pentateuch P. 16.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Richard Eliott Friedman, NearEast Studies Vol 23 P. 20

(1) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية ص 3.

(1) O. Eissfeldt, The Cambridge Ancient History Vol 2 1965 P. 6

(2) G. A. Frank Knight, Nile and Jordan P. 281

(3) Merill F. Unger, Archaeoliogy And the Old Testament 1954 P. 102

الفصل الأول
مقدمة

يسمي كثير من الباحثين والمؤرخين الموجات التي اجتاحت بلاد وادي الرافدين وسورية على فترات زمنية بالموجات "السامية" سيراً على ما

طرحه الباحث الألماني شولتزر عام 1781 مستنداً الى لوائح الأمم التوراتية، وهذه الموجات هي محور دراستنا مقابل موجات لن نتعرض لها – الآن – ومنها الموجات الهندو – أوروبية.

ارتأى البعض إطلاق اسم الهجرات الجزرية على تلك الموجات على اعتبار أن موطنها الأول هو الجزيرة العربية، وقد أيد عدد من الباحثين الغربيين موطنهم – الأول. . هذا واعتبروا منطقة نجد هي الدافع لتلك الهجرات، ومن هؤلاء الباحثين A. SPRENGER, EBRHARD SCHRADER, DE. GOEJE, HURBERT CARL BROCKELMANN, L W. KING, JOHN .MEYERS, S.A. KOOK GRIMME

أما (فلبي) فقد اعتبر الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للهجرات، فاليمن – برأي فلبي – هي مهد العرب، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الأنحاء.

وسواء كانت نجد أو اليمن هي نقطة انطلاق الهجرات فإنهما جزءان من جزيرة العرب التي تفرض الطبيعة عليها نمطاً محدداً من العيش بين بحار وصحراء تحيط بها، الأمر الذي يفرض على سكانها عيشاً وحياة تخلو من التعقيد الاجتماعي أو التمايز، بل إن انصهار الفوارق يبدو سهلاً في أجواء هذه الجزيرة، ويؤكد ذلك السمات المشتركة بين الهجرات على مدى عدة آلاف من السنين بين الهجرة الأولى والأخيرة. ومن السمات المشتركة:

أولاً:
دليل اللغة: تتميز لغة هذه القبائل أنها من جذر واحد. فالأكديه (ومنها البابلية والأشورية) والعمورية (الكنعانية – الفينيقية) والأرامية والعربية الحديثة تعتبر لهجات للغة واحدة، والاختلاف بينها فرضته ظروف الهجرات وتباعد القبائل واختلاطها بأجناس مختلفة من البشر. وأهم نواحي التشابه: وجود فعل ثلاثي كمصدر أساسي، ووجود زمنين للفعل – الماضي و المضارع – والتشابه في الضمائر والأسماء الدالة على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم الرئيسية.

ثانياً:
الدليل الديني: تتقارب المفاهيم بين هذه القبائل وتتطابق في أحيان كثيرة.. فالعبادات في وادي الرافدين تشابه العبادات في كنعان وشمال سوريا، بل إن الآلهة نفسها عبدت في هذه المناطق، فالإله بعل، ايل، تموز عبدها الأكديون والعموريون والبابليون والأشوريون والكنعانيون والآراميون.

ثالثاً:

أكدت الأبحاث الأنثروبولوجية على وجود سمات جسمية مشتركة للقبائل المهاجرة من جزيرة العرب بينما الاختلاف واضحاً بينها وبين الحثيين أو السومريين، مما يؤكد على وحدة العرق عند هذه القبائل.

إضافة الى ذلك فإن هذه الموجات كانت متداخلة، فالأكديون هم (الأشوريون والبابليون لاحقاً) لكن العموريين شكلوا ما يسمى بأسرة بابل التي برز منها حمورابي. والعموريون هم حالة واحدة مع الكنعانيين. وليس من تمايز بين الكنعانيين والآراميين. . ومن الآراميين فرع شكل الدولة الكلدانية في بابل في القرن السابع ق.م.، وهناك قربى بين العربية الحديثة والآرامية.
إذن ولأسباب موضوعية سنطلق على الموجات التي خرجت من جزيرة العرب اسم الموجات العربية القديمة، وسنستعمل هذا المصطلح كلما اقتضى الأمر.

الأكديون

خرجت مجموعات من القبائل العربية القديمة من جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي بحدود الألف الرابع قبل الميلاد، وتوزعت بين السكان السومريين في بلاد الرافدين. وبذلك بدأ تاريخ الأكديين الذين عرفوا في التاريخ تالياً باسم البابليين والأشوريين. وقد أسس ملكهم (سرجون الأكدي) دولة قوية حكمت الشرق الأدنى، وقد استمر دور الأكديين حتى القرن الثامن عشر ق.م. بدخول العموريين (الأموريين) الى البلاد قادمين من الجنوب والجنوب الغربي، أي من الجزيرة العربية عن طريق سورية فانتشرت في بلاد وادي الرافدين.

سكن الأكديون جنباً الى جنب مع السومريين وأنشأوا مدينتهم التي تحمل اسم "مات شوميريم" أي بلاد السومريين. مع أن بعض الباحثين من يذهب الى أن السومريين قوم أجانب نزحوا الى العراق من الشرق أو الشمال الشرقي في منتصف الألف الرابع ق.م. (1)

اتسمت عصور فجر السلالات (6000 – 3000 ق.م.) بقيام دويلات المدن. وقد انتهى هذا العصر بقضاء سرجون الأكدي (2350 ق.م.) على ذلك النظام وتكوين مملكة واحدة.

يقسم العهد الأشوري الى ثلاث مراحل: العهد الأشوري القديم والوسيط والحديث. وكان ملوك العهد الأشوري القديم، وكما يذكر ثبت الملوك، سبعة عشر ملكاً كانوا يعيشون في الخيام ثم دانوا للحكم الأكدي. أما العهد الأشوري الوسيط فيبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى (1594 ق.م.) وينتهي بداية القرن التاسع ق.م.، وقد انتعشت الدولة الأشورية الوسطى

زمــن أشــور أوبلــط (1365 – 1330 ق.م.) وشلمنــصر الأول (1274 – 1245 ق.م.) وتوكولتي ننورتا (1244 – 1208 ق.م.) وتجلات بلاسـر الأول (1115 – 1077 ق.م.). أما العهد الأشـوري الحـديث فقـد انتهـى بـسقوط نينـوى 612 ق.م. ويقسم هذا العهد الـى دوريـن: الأول ومـن أشـهر ملوكـه ادد نيـراري الثاني (912 – 891 ق.م.) توكـولتي ننورتـا الثـاني، أشـور ناصـر بـال الثـاني (884 – 858 ق.م.) وشلمنصر الثالث (858 – 824 ق.م.) وإدد نيراري الثالـث (811 – 781 ق.م.) الدور الثاني؛ ومـن أشـهر ملوكـه تجـلات بلاسـر الثالـث (745 – 727 ق.م.) وسـرجون الثـاني (722 – 705 ق.م.)، وسـنحاريب (705 – 681 ق.م.)، اسـر حـدون (681 – 669 ق.م.)، أشـور بانيبـال (669 – 629 ق.م.).

ولما ظهر في بلاد بابـل الأميـر الكلـداني (نبـو بولـصر) أسـس فيهـا سـلالة جديدة مستقلة عام 626 ق.م. عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكـة الكلدانية. ثم استطاع تقويض حكم نينوى بعـد تحالفـه مـع الميـذيين. ومـن أهم ملوك الدولة الكلدانية أو العهد البـابلي الأخيـر إضـافة الـى نبـو بولـصر، الملك نبوخذ نصر (605 – 592 ق.م.).

العـصر البـابلي القـديم أو الأكـديون (البـابليون) يتميـز بعـدة سـلالات منهـا سلالة ايسـن، وتعرف بقايا مدينة ايسـن اليوم بتل ايـشان البحريـات، والتـي تبعد حوالي عشرين كيلو متراً جنوب عفـك شـرق مدينـة الديوانيـة. وكـذلك سلالة لارسة، وتعرف اليوم باسم سنكره، وتقع على بعد سبعين كيلـومتراً شـمال غـرب الناصـرية. وقـد تميـزت هاتـان الـسلالتان بتطابقهمـا اللغـوي والاجتماعي والعرقي مع البابليين الأمر الذي جعل الباحثين يطلقون عليهم العصر البابلي القديم رغم أنهم لم يسكنوا بابل. وقـد أمتـد هـذا العهـد مـن 2017 – 1794 ق.م.

سـلالة بابـل الأولـى (1894 – 1594 ق.م.) وتعـرف أيـضاً بالـسلالة الأموريـة (العمورية) وحكمها أحد عشر ملكاً حـوالي ثلاثـة قـرون. وقـد بلغـت حـضارة العراق في هذه الفترة أوج عظمتها وازدهارها وعمـت اللغـة البابليـة تكلمـاً وكتابة بلاد الشرق الأدنى قاطبة، وارتقت العلوم والمعارف واتسعت التجارة وكانت الـبلاد تحكمهـا إدارة مركزيـة وقـانون موحـد سـنه حمـورابي (الملـك السادس في هذه السلالة).

وبعد موت نبوخذ نصر (العهد البابلي الأخير) اعتلـى الـسلطة ملـوك ضـعاف فاحتل كورش الفارسـي بابل سـنة 539 ق.م.

وكان الفرس الأخمينيون تابعين بداية أمـرهم الـى الملـوك الميـذيين حكـام شـمالي إيران وقد ثار زعيمهم المدعو كورش الأخميني على سيده الماذي (استياكس) وجهز حملة فتح بلاد الميذيين، ثـم توجـه الـى بابـل، مـستغلاً ضعف ملوكها واحتلها سنة 539 ق.م. واستمر كورش بفتوحاته حتـى وصـل

الى بلاد الشام. وبعد وفاته تسلّم الحكم ابنه قمبيز فأكمل الفتح حتى البحر المتوسط ثم ضم مصر أيضاً. ثم تبعه ملوك أشهرهم: دارا الأول (دارياوش) (521 – 486 ق.م.) ثم غدت المنطقة مسرحاً لحروب متواصلة بين الفرس والإغريق حتى ظهور الأسكندر المقدوني الذي قضى على الدولة الإخمينية.

تسلّم الإسكندر المقدوني الحكم من أبيه فيليب (334 – 321 ق.م.) وزحف الى سواحل آسيا الصغرى عام 334 ق.م. فاندحر الملك الفارسي دارا الثالث في موقعة (ايسوس) ثم فتح سواحل فينيقيا وفلسطين ونزل الى مصر عام 332 ق.م. ثم عرج الى بلاد وادي الرافدين عن طريق دير الزور وأعالي دجلة ثم الحدود نحو (كوكميلا) قرب اربيل ودارت معركة بين اليونان والفرس بقيادة دارا حيث لاذ الفرس بالفرار وتقدم الاسكندر حتى احتل بابل عام 331 ق. م. ثم زحف شرقاً واحتل عاصمة الإخمينيين. وفي عام 321 ق.م. مرض الاسكندر ومات قرب بابل. ثم تنازع قواده على خلافته وأدى ذلك الى تقسيم هذه الامبراطورية الشاسعة وصارت بلاد الرافدين وإيران من حصة سلوقس الذي استولى على بلاد الشام أيضاً. بينما حكم مصر البطالمة.

حكم السلوقيون العراق من 312 – 139 ق.م. واستمر حكمهم لبلاد الشام حتى سنة 64 ق.م. وقد حكم ثمانية عشرة ملكاً أكثرهم يحمل اسم انطيوخوس أو سلوقس. ثم ظهر الفرثيون في إيران وتمكنوا من احتلال العراق وطرد انطيوخس السابع عام 139 ق.م. فانحصر حكم السلوقيين في بلاد الشام فقط. وكانت روما تطمع ببلاد الشرق، فبعد أن استولت جيوشها على مصر تقدمت نحو سورية وفتحتها زمن انطيوخس التاسع عام 95 ق.م. ثم تعاقب حكام سلوقيون ضعاف في الشمال حتى انتهى حكمهم سنة 64 ق.م. وقد شهدت معظم الفترة التي حكمها الفرثيون حروباً مع الرومان مما تسبب في إضعافهم؛ فاستطاع (اردشير) الفارسي الساساني القضاء على ارطبان الخامس الملك الفرثي وشكل السلالة الفارسية الساسانية.

ومن أشهر الملوك الساسانيين اردشير بن بابك بن ساسان (229 – 241م)، سابور الأول (241 – 272م)، سابرو الثاني (310 – 379م)، كسرى الأول (أنو شروان) (531 – 579م)، كسرى الثاني (أبرويز) (590 – 628م)، يزدجرد الثالث (631 – 651م) حيث قضى العرب على ملكه.

---

(1) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات، القسم الأول ص 90.

الأموريون (العموريون)

بعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من الجزيرة العربية ودفعت بالأموريين (العموريين)، فانتشروا في سهول سورية الشمالية، وشملت هذه الهجرة الشعب المعروف باسم الكنعانيين والذين سماهم اليونان الفينيقيين.

يعتبر العموريون أول الجماعات العربية القديمة التي سكنت في البلاد السورية وأقامت فيها، وقد أطلق عليهم جيرانهم في الشرق (السومريون) اسم الأموريين والكلمة تعني بالسومرية الغربيين – أي الساكنين غرباً – وقد اتخذ الأموريون مدينة (ماري) في شمال سورية والواقعة جنوب مصب الخابور عاصمة لهم.

ظهرت أول إشارة موثقة الى الأموريين منذ عصر سرجون الأكدي 2350 ق.م. ولم يقتصر الأموريون على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سوريا وإنما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين أيضاً وحكموها وأسسوا عدة سلالات من أشور في الشمال حتى لارسة في الجنوب بين 2100 – 1800 ق.م. وأهم هذه السلالات كانت سلالة بابل الأولى التي انتسب اليها حمورابي نحو 1700 ق.م. وحمورابي نفسه الذي احتل (ماري) وضمها الى امبراطوريته البابلية. (1)

وقد أدى القضاء على سلطة الأموريين الى إنهاء دور مدينة (ماري) ودخولها عالم النسيان الى أن تم التنقيب في الموقع المسمى (تل الحريري) (1) واتضح أنه ماري القديمة وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من أهم منجزات أعمال التنقيب في العصور الحديثة فقد تضمنت أكثر من 20.000 لوح مسماري، وكانت اللغة في غالبيتها أكدية غير أن المفردات لا تترك مجالاً للشك بأن اللذين كتبوا تلك الألواح تكلموا اللهجة الأمورية. وتمثل الألواح محفوظات زمري – ليم (1730 – 1700 ق.م.) وهو آخر ملوك ماري والذي قضى حمورابي على دولته. وحضارة الأموريين كما تعكسها اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من الأمورية والبابلية. وقد ورد في الواح ماري أسماء عدة مدن منها: حَلَبو (حلب) وجُبله (جبيل) وقطنه (وهي اليوم المشرفه شمال شرق حمص) وحرانو (حران) كإمارات أموية.

كان المسرح الرئيسي للأموريين في شمال سوريا، وبعد منتصف الألف الثاني ق.م. بقرن تحول مركز الثقل الى سوريا الوسطى، حيث ظل الأموريون يلعبون الدور المهم، وفي هذه المرحلة أخذت مصر في توسعها واحتلت قسماً كبيراً من سوريا أثناء حكم تحتمس وكانت هناك دولة عظيمة ومنافسة لمصر شمالاً هي دولة الحثيين وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة أو الدول الأموية في سوريا الوسطى.

نتيجة انكفاء اخناتون (امنحوتب الرابع) فرعون مصر على ثورته الدينية وتراخي حكمه في بلاد الشام برزت بعض الإمارات الأمورية التي سرعان ما قضى عليها الفراعنة الذين أعقبوا أخناتون.

وقد اتخذت السلالة العمورية التي حكمت بابل هذه المدينة عاصمة لها ولذلك سموا بالبابليين، ونتيجة هذه العلاقة ذات الاتجاهين انتقلت من بابل الى سوريا عناصر الفن البابلي والكتابة الأكدية. (2)

والكنعانيون هم أحد الأجنحة الأمورية، والتي شكّلت هجرة كبرى واحدة. واللهجة الكنعانية والأمورية هي لهجة واحدة ذات شعبتين، الكنعانية الشرقية (الأمورية) والكنعانية الغربية (الفينيقية). أما ديانتهم فكديانة الأقوام البدوية (العربية القديمة) تدور حول عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات بشرية، كما أنهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الآلهة عشتار البابلية، وكان إلههم الخاص أمورو وزوجته (عشرتا) أو (أشيراتا) آلهة الحب والشهوة. ومع الإله أمورو آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها من الآلهة الكنعانية – حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الأمورية وعلى آلهتها – مثل حدد أو هدد إله المطر والزوابع ونفس هذا الإله عبد في بلاد الشام تحت اسم (بعل) ومن آلهة الأموريين أيضاً إله جاء اسمه عند الفينيقيين باسم (رشف) وسماه الأراميون (ريشوف) وهو إله له علاقة بالنار. وعبدوا أيضاً إلهاً مهماً دخلت عبادته وادي الرافدين هو الإله "داجون" وهو من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام. ويعزى الى الأموريين أنهم هم الذين أدخلوا الى سوريا الجنوبية عبادة نوع من الأنصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب في مواضع معينة كالكهوف مع مذبح من الحجر.

فالكنعانيون والأموريون موجة واحدة والاختلاف العرقي بينهم معدوم رغم أن أعداداً – غير مؤثرة – من العناصر السومرية والحورية والحثية اندمجت مع الكنعانيين الشرقيين (الأموريين) بينما اندمجت بعض العناصر اليبوسية والحثية بالأموريين الغربيين (الكنعانيين). إضافة الى ذلك إن تأثير حضارة وادي الرافدين أثرت على الأموريين في شمال سوريا أكثر مما أثرت على الأموريين (الكنعانيين) جنوب سوريا. بينما الحضارة المصرية أثرت على الأموريين (الكنعانيين) في جنوب سوريا أكثر من تأثيرها على شمال سوريا.

أطلق إسم كنعان أول الأمر على الساحل وغربي فلسطين ثم عمّ الإسم على فلسطين وقسم كبير من سوريا، وقد أطلق اليونانيون عليهم اسم الفينيقيين. وتدل أسماء كثير من المواضع في فلسطين ولبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزر من البلاد، حيث تشير أسماء كثيرة من المدن الى أصلها الكنعاني، ومن الأمثلة على ذلك مدينة أريحا التي يعني اسمها الكنعاني "يريحو" مدينة القمر. ومدينة بيسان (بيت شان) أي بيت

الإله شان، وقد أبانت التحريات الآثارية أن هذه المدن الكنعانية قد أسست في حدود منتصف الألف الثالث ق.م.، وهناك أسماء مدن كنعانية يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مثل: عكا وصور وصيدا وجبيل.

إن الظروف التي حالت دون تنامي قوة الأموريين في شمال سوريا وجود قوتين كبيرتين (مصر ووادي الرافدين) هي نفسها التي حالت دون قيام دولة كنعانية قوية، وظلّت دويلات المدن منتشرة في كنعان، حيث كان مركز الدولة مدينة معينة، ذات قلاع وحصون لدص أي عدوان. ومع ذلك ظلت هذه المدن عرضة للهجوم الخارجي ومما سهل ذلك أن هذه الدول كانت متنازعة فيما بينها، وكانت المستوطنات الكنعانية أول أمرها منتشرة على طول الساحل من جبل الأقرع الى جبل الكرمل جنوباً، ثم اضطرت بعد ذلك الى التمركز في سفوح لبنان مثل طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وفي الجنوب غزة وعسقلان وجازر (1) ومجدو وأورشليم (2) فكانت كل مدينة تشكّل دولة بنفسها.

ومن الأموريين – بفرعيهم الشرقي والغربي – برزت مجموعات أخذت اسم الهكسوس: وهم الجماعات التي أطلق عليهم الفراعنة اسم "الملوك الرعاة"، وقد حكم هؤلاء مصر مدة تجاوزت القرن والنصف حتى تم إخراجهم على يد أحمس ومعه بدأت سياسة مصرية جديدة تجاه بلاد الشام، ونظراً لتعدد الآراء بالهكسوس وعلاقتهم مع من يسميهم الباحثون إسرائيليين فقد أفردنا لهم عنواناً خاصاً.

---

(1) فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد ص 72.

(1) Andre Parrot, Syria Vol 18 P. 329 354.

(2) Sumer Vol III P. 93.

(1) وتعرف باسم آل الجزر جنوب شرقي الرملة.

(2) اسم المدينة من أصل كنعاني من (يرو- شالم) أو (يرو-شلم) وشالم أو شلم اسم إله كنعاني يعني السلام، وله علاقة باسم الإله الأشوري (شلمانو) والذي يدخل في أسماء أعلام مهمة مثل (شلمنصر) و (شلمانو اشاريدو).

خرجت جماعة أخرى من بلاد العرب بين 1500 – 1200 ق.م. عرفت باسم الأراميين، وقد عرفوا بهذا الاسم أيام تجلات بلاسر الأول (1100 ق.م.) (1)، وتفيد المدونات الأشورية والبابلية أن قسماً كبيراً من بلاد الرافدين وسوريا الشمالية والوسطى قد اجتاحته قبائل قادمة من الجزيرة العربية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. وأن هذه المناطق بدأت تتخذ صفة (أرامية) باستثناء جيوب حثية قليلة.

أهم مواطئ الأقدام التي أسسها الأراميون كانت في بلاد بين النهرين الشمالية وفي شمالي سورية ووسطها وأخذوا يضغطون على الأموريين والجماعات الحورية والحثية في وادي العاصي وحلوا محلهم. وقد ورد اسم الأراميين في رسائل تل العمارنة ولا سيما في عهد أخناتون فمنهم جماعة جاء اسمها بصيغة "اخلموا" (أخلامو) ومعنى هذا الاسم الرفاق أو الأصحاب ولعل الأموريين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على القبائل الأرامية. وقد اتصل بهم الأشوريون في العصر الأشوري الوسيط، فيروي لنا أحد الملوك وهو (ادد – نراري) الأول (1300 ق.م.) أن والده غزا جموع الأخلامو في شمال ما بين النهرين (وقد ورد اسم بلاد الأراميين "مات ارمي" في مخطوطات أشورية أخرى من العصر الوسيط) ومن الأراميين فرع تغلغل الى وادي الفرات الأسفل وعرف باسم كلدو (ومنهم الكلدانيون الذين أسسوا الامبراطورية البابلية الأخيرة) ولكن أهم الدويلات الأرامية دويلة "أرام – نهرايم" أي أرام النهرين والمقصود بهذين النهرين الفرات ورافده الخابور وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم "نهارين" وقد اختفت حينما قضى الأشوريون على جميع الدويلات في هذا الإقليم. وقد اشتهرت دولة "آرام – دمشق" بسعتها وأهميتها وقد ذكرت في حوليات الفرعون رعمسيس الثالث (1198 – 1167). كما ذكرت برسائل العمارنة بصيغة "دمشقا" بضم الدال.

بدأ الملك الأشوري توكولتي ننورتا الثاني (889 – 884 ق.م.) في القرن التاسع ق.م. التقدم باتجاه الأراميين، فأزيلت الدول الأرامية تحت وطأة الضغوط الأشورية حتى سقطت آخر معاقلهم وهي دمشق عام 732 ق.م. لكن انتهاء الدول السياسي الأرامي لم ينه التاريخ الأرامي، بل هي البداية الثقافية الأرامية غرب آسيا، وفي نهاية القرن الثامن ق.م. أصبحت الآرامية لغة الشرق الأدنى كما كانت الأكدية في العصور القديمة (1). وكان الأراميون قد اقتبسوا الحروف الأبجدية من الفينيقيين، وتعلموا من سكان مصر الكتابة بالحبر والقلم، فانتشرت كتاباتهم وتغلّبت على الكتابة المسمارية (2).

إن تاريخ استيطان الأراميين والذي نشأ بفعل الهجرة الى سوريا الشمالية في القرن الثاني عشر والحادي عشر ق.م. قد شهد متغيرات كبيرة في توزيع القوى السياسية فحكم رعمسيس الثالث (1198 – 1167 ق.م.) يؤشر بداية انحطاط قوة المصريين في وقت بدأ الضعف التدريجي ينتاب

الأشـوريين بعـد تجـلات بلاسـر الأول (1113 – 1074 ق.م.) بينمـا الدولـة الحثية فـي الـشمال (آسـيا الـصغرى) قـد وصـلت الـى النهايـة الأمـر الـذي أعطى الأراميين ميزات سياسية واجتماعية فاستطاعوا بناء بعض الممالك ومنها آرام – دمشق وآرام نهاريم وسمأل (زنجرلي) وحلب وكركميش وأرام صوبه (زوبـه) وعاصـمتها عنجـر (كـالكيس) فـي البقـاع وأرام معكـه شـمال فلسطين. وكذلك دولـة (الرهـا) المهمـة. ويعتبـر أراميـو الرهـا أول مـن قبـل المسيحية على يد ملكهم (ابكار الأسود) العربي المعاصر للمسيح. ويظهـر أن أراميي الرها بعد تنصرهم صاروا يسمون أنفسهم (سـريانآ) أي سـوريين لتمييزهم عن الأراميين الذين ظلوا على دينهم الوثني.

سوريا والسوريون، هـو فـي الأصـل، مـصطلح يونـاني "لآرام" لـذا يـستعمل تعبير "اللغة السورية" للدلالة على الكلام الأرامـي، لكـن الباحـث الألمـاني WINCKLER يعتبـر مـصطلح "سـوريا" مـشتق مـن كلمـة SURI البابليـة والتي تعني الغرب حيث يسكن الأراميون (1).

ومن الشعوب التي كانت على تماس مع الكنعانيين، شعب جاء في القـرن الحادي عشر ق.م. ويسمى (الفلسطينيون) وهم من الأقوام الإيجية التـي فرت من وجه الهجرات اليونانية التـي أزاحـتهم مـن مـوطنهم، ولمـا أخفقـوا بـالنزول علـى الـساحل المـصري بعـد انهـزامهم فـي معركـة بحريـة زمـن رعمسيس الثالث 1191 ق.م. نزلوا على ساحل كنعان الجنوبي حيث دعي باسـمهم وكـان يمتـد عبـر شـريط مـن غـزة الـى جنـوب يافـا ومـن المـدن المشهورة التـي اسـتولوا عليهـا: عـسقلان، اشـدود، عقـرون، جـت، وكـان الكرمـل الحـدل الفاصـل بيـنهم وبـين الفينيقيـين شـمالاً. وتظهـر الأحـداث التاريخيـة اللاحقـة علـى اسـتقرار الفلـسطينيين أنهـم شـكلوا حالـة عـداء مستمر مـع الحكـم الفرعـوني وملـوك المـدن الفلـسطينيين لفرعـون الأمـر الذي يفسر ما تورده التوراة من حروب معهم. وبعد مرور عدة قرون ذاب هذا الشعب – الصغير نسبياً – في بوتقة الكنعانيين مخلفاً بعـض الآثـار واللقـب والإسـم.

حوالي القرن الخامس ق.م. أدت هجرة جديدة من بلاد العرب الى اسـتقرار بنـو ثابـت (النبطيـين) شـمال شـرقي شـبه جزيـرة سـيناء حيـث كانـت عاصمتهم البتراء. وكان آخر اندفاع من الجزيـرة العربيـة الموجـة التـي تمـت في القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام.
ومما لا شك فيه وجود بعض المستوطنات والمـدن لأقليـات عرقيـة سـكنت بلاد الـشام وخاصـة جنـوبي سـوريا (فلـسطين) ومـن هـذه الأقليـات بعـض الحثيين واليبوسيين وقد ذابوا جميعاً مع الكنعانيين بمرور الزمن.

والسؤال الذي يظل يلح دائماً كلما قرأ الـشخص التـوراة. . وأيـن "العبريـون" وآثـارهم ومخطوطـاتهم ومـدنهم؟!! وإذا كـان لهـم وجـود فعلـي فلمـاذا لـم تذكرهم الحوليات والآثار المصرية والأشورية والبابلية؟!!

(1) G.H. Kraeling, Aram And Israel 1918

(1) David Diringer, Writing Vol 25 1962 P. 134

(2) Sumer Vol III P 320

(1) Scott C. Layton, Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988

العبرانيون!!

رغم عدم وجود أي دليل آثاري أو مادي أو تاريخي على وجود العبريين – وجل ما هناك ذكرهم في التوراة – فإن الكثير من الباحثين يتعاملون مع مفهوم "العبريين" كحقيقة لها وجودها ضمن الموجات التي هاجرت من جزيرة العرب. ويقسمون ذلك الى ثلاثة موجات باستنتاجات نظرية:

أولاً:
استناداً الى وصف التوراة لإبراهيم بالعبري، وإطلاق اسم "العبريين" في (صموئيل الأول 3:4) على جموع الموسوميين، فقد اعتبر القرن التاسع عشر أو الثامن عشر هو زمن الهجرة الأولى.

ثانياً:
تعرف الهجرة الثانية – عند الباحثين التوراتيين – بهجرة الأراميين في القرن الرابع عشر ق.م. وهي الفترة المساماه آثارياً بفترة العمارنة، والسبب الرئيس لادعاء هذه (الهجرة) ورود اسم العبيرو في بعض رسائل العمارنة. رغم أن هؤلاء الناس ليس لهم علاقة بالموسويين أو باليهود تالياً، وهم عرب أموريون.

ثالثاً:
يعتبر ما يسمى "الخروج الموسوي" من مصر الهجرة الثالثة، وقد حدث الخروج هذا في القرن الثالث عشر ق.م.

إذا كان لإبراهيم وجود فعلي، وبناء على بعض المعطيات الآثارية في الفترة المتفق على أنه عاش فيها واستناداً الى المعلومات الواردة من التوراة أيضاً! فقد ولد إبراهيم في أور حيث كان يعبد الإله نانار Nannar إله القمر، وفي بورسيبا (برس النمرود) والتي تقع على بعد حوالي عشرة أميال من بابل، عبد ابراهيم نيبو إله المعرفة والأدب. (1)

ولو نظرنا الى رسم تخطيطي لحركة إبراهيم كما ترسمه التوراة لكانت استحالة كاملة اعتبارها حجرة قبائلية. فزحف قبيلة كبيرة على أور يعني احتلالها أو الصدام العنيف مع حكامها، وأور إحدى أهم المدن السومرية التي لا يمكن أن تسقط دون تأشير ذلك تاريخياً .. والأنكى من ذلك أن يصل الى (ماري) عاصمة الأموريين في فترة عنفوانها وشبابها. ثم يجتاز شمال سوريا حتى يصل (حاران) ثم يتجه جنوباً ماراً بتدمر والمناطق التي يسيطر عليها الهكسوس . . . ثم الى كنعان وبعدها الى مصر. . ثم يعود مرة ثانية الى كنعان. كما أن أحداثاً كثيرة توردها التوراة تؤكد عدم وجود هجرة قبائلية للعبريين بل هي تشرد أسرة على أحسن تقدير، فإبراهيم الذي لم يجد مكاناً لدفن زوجته لولا شفقة السكان في حبرون (الخليل) دلالة واضحة على هامشيته في المنطقة. وتؤكد التوراة على لسان يعقوب – حفيد إبراهيم – أنه نفر قليل (تكوين 37:1) وعندما التحق يعقوب بابنه يوسف في مصر كان مجمل العدد سبعين نفساً، (خروج 5:1).

وما ينطبق على الهجرة الأولى يشمل أيضاً الهجرتين الثانية والثالثة، لذا ومحاولة لتتبع الحقائق فقد أفردنا عناوين لعلاقة هؤلاء بالهكسوس وبالعابيرو . . ثم الخروج الموسوي.

---

(1) Merrill F. Unger, Archaeology And The Old Testament 1954 P. 103.

الهكسوس

هل "الإسرائيليون" من الهكسوس؟

سمى قدماء المصريين مجموعات من القبائل الأمورية التي غزت مصر (1788 – 1573 ق.م.) باسم الهكسوس والذي يعني: "الأمراء البدو أو أمراء الصحراء" وسماهم الكاهن المصري (منيتو) الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود 280 ق.م.: بالملوك الرعاه وبالفينيقيين وبالعرب أيضاً. (1) ومن المؤكد أن هذا الكاتب كان على اطلاع ومعرفة بالتاريخ والقبائل التي استوطنت مصر وسوريا والعراق. . ومع ذلك لم يذكر، مثلاً الحثيين، أو الحوريين كأطراف في مثل هذا الغزو رغم أن مصر كانت على تماس مع مثل هذه الشعوب. وكذلك الاكتشافات الآثارية من عهد الهكسوس في مصر وفلسطين وسوريا تشير بشكل قطعي الى عدم وجود عنصر غير عربي شارك في غزو مصر، بل إن المؤشرات تدلل بوضوح أن الكنعانيين الشرقيين – الأموريين – والكنعانيين الغربيين – الكنعانيين سكان فلسطين – هم أنفسهم الهكسوس، فقاعدة الانطلاق الى مصر إذن كان من سوريا وفلسطين. (2)

شملت ثقافة الهكسوس في بلاد الشام القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. وتركوا فيها آثار حصونهم، كما وجدت في الموقع القديم المسمى (قطنا) والذي كان عاصمتهم – في بلاد الشام – وكذلك في (قاديشا) وأريحا آثار تعود للهكسوس وتميز حكمهم في هذه المنطقة بالنظام الاقطاعي العسكري. وفي هذه الفترة كانت المملكة الوسطى المصرية تسير نحو التدهور بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والأمراء، فانتهز الهكسوس فرصة الضعف هذا وغزوا مصر السفلى ولا سيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها، حيث ابتنوا عاصمة جديدة هناك واستمروا يحكمون مصر زهاء القرنين، وغدا ملوكهم فراعنة، وهم الذين أدخلوا الى مصر استعمال الخيول للركوب والعربات الحربية التي تجرها الخيول. كما أدخل الهكسوس الى مصر أيضاً السيف المقوس المصنوع من الحديد والقوس المركب الذي كان يستعمله الأكديون، كما أن جزءاً مهماً من معرفتنا بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص عهد الهكسوس في مصر.

عثر على آنية فخارية في مصر ترجع الى نهاية العصر البرونزي القديم (2000 ق.م.) تعود الى الهكسوس وقد ظهر الهكسوس في مصر قبل هذا التاريخ بحوالي 200 سنة وهذا يدلل أن وجودهم في فلسطين أبعد من هذا التاريخ (1) أو بعبارة أخرى هم أموريون – كنعانيون. ومن المؤكد أن الأموريين – الكنعانيين كانوا يسكنون فلسطين في 2500 ق.م. أو قبل ذلك. (2)

إن ظهور الهكسوس في مصر قد أدى الى تحول كبير في الشخصية المصرية. فلعل شيئاً من الضعف في قوة الحكومة قد أطلق العنان لفردية الأمراء المحليين المتهالكين على منافعهم الشخصية، إلا أن الغزو العنيف القاهر الذي قام به الهكسوس والذي وطدوا حكمهم داخل مصر وحكموا البلاد بقوة كبتت الروح المصرية، فلأول مرة أصيبت مصر بنكسة في فلسفتها القائلة: نحن مركز الدنيا وقمتها، ونحن أحرار في الانطلاق الروحي، ولأول مرة أحس ذلك الشعب بتهديد خارجي، ولأول مرة اضطر ذلك الشعب الالتفاف حول قيمه وقيادته لمجابهة ذلك التهديد. وقد توحدت مصر فعلاً لمقاومة "الرعاة" الذين تجرأوا على حكم البلاد متجاهلين الإله "رع". وتضخم هذا الشعور بعد طرد الهكسوس من أجل الأمن والسلامة أو الشعور المرضي بالخطر. وقد ذكر أن المصريين أبطلوا –في هذه الفترة – استعمال كلمة جند الملك واستعاضوا عنها بلفظة "جيشنا". ومنذ عصر أحموس – الذي تولى طرد الهكسوس – ومن تلاه من فراعنة باستثناء امنحوتب الرابع (أخناتون) ظل هاجس التدخل لديهم في بلاد الشام شرقاً وفي أفريقيا جنوباً وغرباً نتاج للدواعي الأمنية ذاتها.

أدت، بطبيعة الحال، هذه السياسة الى الاحتكاك العنيف مع الدول الكبرى التي ظلّت تحاول التمدد داخل مناطق النفوذ المصرية – أي بلاد الشام.

وعلى ذلك كانت الحروب المستمرة مع الحثيين (آسيا الصغرى) الذين سيطروا في أزمان مختلفة على مناطق متعددة من سوريا وكذلك الحال مع الأشوريين والبابليين الذين احتلوا بلاد الشام فترات طويلة بل وهاجموا مصر ذاتها.

إزاء ذلك شهدت ساحة بلاد الشام متغيرات كثيرة وسياسات متنوعة، فلا القوات المصرية بقادرة على البقاء الدائم فيها ولا الجيوش العراقية والا الحثية لذا كان ما يطلق عليه اليوم اصطلاح مناطق النفوذ التابعة لجهة معينة. فمصر حكمت بلاد الشام عن طريق ملوك المدن التابعين للفرعون وكذلك فعل الأشوريون والبابليون. وكانت مهمة ملوك المدن إضافة الى التبعية السياسية، تأمين الحاجات الاقتصادية الضرورية وقمع الاضطرابات الداخلية وصد الهجمات الخارجية قدر الإمكان والمشاركة في الغزو إذ اقتضى الأمر ذلك.

وقد أوضحت هذه السياسة الرسائل المعروفة برسائل العمارنة، حيث اشتد ضغط "الخارجين على سلطة الفرعون" وممتلكاته، ولما عجز ملوك المدن عن الوقوف بوجه هؤلاء طالبوا برسائلهم المساعدات من الفرعون.. وإذا كان أخناتون قد غض الطرف عن إرسال النجدات الى الملوك – الأتباع – فإن الفراعنة الذين جاءوا بعده قد أرسلوا الجيوش للوقوف في وجه الثوار الذين سماهم ملوك المدن خابيرو (أو عابيرو أو آبيرو).

سجلت الأواني الفخارية التي اكتشفت في مصر الكثير عن الهكسوس، فالنماذج التي وجدت في المنطقة المسماة اليوم (تل اليهودية) والتي كانت قلعة أفاريس الهكسوسية تؤكد وجودهم من 2200 – 1600 ق.م. والسواتر الترابية المكتشفة في تل اليهودية وهيليوبوليس تعود الى الهكسوس ويشابهها سواتر قادش (تل النبي مندو اليوم) في شمال سوريا مما يزيد في التأكيد أنهم أموريون – كنعانيون.

ويؤكد الباحث G. F. Knight مراراً أن الهكسوس هم من الأموريين، وليس من دليل يشير الى غير ذلك، حتى لو وجد بعض المقاتلين من الحثيين أو غير الحثيين من الأجناس غير العربية في صفوفهم فهذا لا يلغي القاعدة الأساس.

اعتماداً على النصوص التوراتية – والنصوص التوراتية فقط – استنتج الباحثون مجموعة نظريات حول علاقة "الإسرائيليين" بالهكسوس وكلها نظريات ظنية تحتمل الطعن، بل التناقض والخطأ هو السمات المميزة لمثل تلك النظريات. فالبعض يربط فترة وجود ابراهيم بعهد الهكسوس، فلأنه وجد في هذه الفترة ولأنه دخل مصر – كما تشير التوراة – ثم استقرار يعقوب وأبناؤه في مصر كلها دلائل – لدى بعض الباحثين أن "الإسرائيليين" أي أبناء يعقوب هم من الهكسوس، مع أن التوراة ذاتها تقول أن الذين دخلوا

مصر برفقة يعقوب لا يتجاوزون السبعين شخصاً وأن يوسف وإن تبوأ مركزاً مرموقاً – دون دليل تاريخي – فهو ليس أكثر من عبد اشتراه أحد المسؤولين الفراعنة، وهي حالات كثيراً ما تحدث تلك الأزمان.
باحثون آخرون يقولون إن "الإسرائيليين" أبناء عمومة الكنعانيين، بدليل تمكنهم من العيش في كنعان وعدم وجود غضاضه بعبادة آلهة كنعان والتحدث بلغتهم. ويقول آخرون أنهم مصريون وأن موسى مصري خرج مبشراً بعبادة أتون التي جاء بها أخناتون. وآخرون يقولون أنهم جنود مصريون جاءوا لإقرار الأمن والقضاء على العصاة والمتمردين على الفرعون، وهذه أرجح نظرية حتى الآن.

يلخص (هيربرت ماي) May Herbert مجمل الأفكار أو النظريات هذه (1)، ربما كانت توجد علاقة بين "الإسرائيليين" والهكسوس من نوع ما، بناء على ما ورد في سفر التكوين من قصص يعقوب ويوسف. فمن المحتمل إذن – كما يقول ماي – إن هجرة يعقوب تتطابق مع حركة الهكسوس، وهناك أسئلة كثيرة تثار حول تطور فكرة التوحيد التي حملها موسى، والاحتمال الأكثر ترجيحاً أنه اقتبس الفكرة بتأثير حاكم مصر (أخناتون).

لقد عجز الباحثون التوراتيون عن الوصول الى رأي قاطع في أي حدث يتبع التاريخ اليهودي، فلا حقائق مادية ملموسة تدعم وجهة نظرهم ولا التوراة تعطي حقائق مؤكدة وثابتة، وجل ما تطرحه أفكاراً تتضمن التناقض. ومن الأفكار والآراء المطروحة أن يعقوب ويوسف من العبريين وهؤلاء من الهكسوس، وقد تم استنتاج ذلك بناء على ما ورد بالتوراة وبالشكل التالي:

كان بناء هيكل سليمان بعد 480 سنة من الخروج من مصر (الملوك الأول 1:6).

ولما كان وجود الهيكل عام 965 ق.م. في السنة الرابعة لحكم سليمان (الملوك الأول 1:6).

وزمن هجرة إبراهيم من حاران حتى وصول يعقوب الى مصر هي 215 سنة تستنتج من:

حتى ميلاد إسحاق 25 سنة (التكوين 4:12، 5:21)
حتى ميلاد يعقوب 60 سنة (التكوين 26:25)
حتى استقرار يعقوب في مصر 130 (التكوين 9:47)

وبذلك يكون المجموع 480+965+215+430 (فترة بقاء الإسرائيليين في مصر خروج 4:12) = 2090 ق.م. تاريخ خروج إبراهيم من حران، يضاف الى هذا التاريخ 75 سنة وهو عمر ابراهيم ذلك الوقت (خروج 4:12) تكون 2165 ق.م. هي سنة ميلاد ابراهيم.

ولما كان عمر يعقوب 130 سنة عند دخوله مصر (تكوين 9:47) وبناء على:

2 سنة مجاعة (تكوين 6:45 – 11)
7 وفره (تكوين 53: 41)
30 عمر يوسف عندما وصل يعقوب الى مصر (تكوين 45:41)
_____ 39

فيكون عمر يعقوب 91 سنة عندما ولد له يوسف، فإذا كانت ولادة يعقوب 2005 ق.م. فيكون تاريخ ميلاد يوسف 2005 (1) – 91 = 1914 ق.م. ويكون تاريخ دخول يوسف الى مصر 1914 – 17 (عمره قبل بيعه تكوين: 2:37) = 1897 ق.م.

فكيف إذن يتطابق هذا التاريخ مع حكم الهكسوس الذين حكموا مصر 1788 – 1573 ق.م. والفارق بينهما حوالي مائة سنة؟! اللهم إلا إذا اعتبرنا وجود الهكسوس قبل استيلائهم على السلطة في حين أن التوراة تشير الى مركز يوسف السياسي حيث ركب العربة الثانية بعد فرعون (تكوين 43:41).

المغالطة الأخرى التي تقع بها التوراة – وبالتالي الباحثون – عدم رسم خطوط واضحة في شخصية يوسف وهل هو فرعوني أم غير ذلك: فالتوراة سمت يوسف باسمه الفرعوني (صفنات بعنج) (تكوين 45:41) وبذلك الحق بالأسرة الفرعونية، وتزوج من أسنات ابنة فوطي فارع كاهن عون وبذلك يكون لهذا الشخص صلة بالدم الملكي. ومعنى اسنات الموهوبة للآلهة (نيث) Neth أي أن من تطلق التوراة عليه اسم يوفس هو فرعوني الإسم والدين وليس له علاقة بأبناء إبراهيم. يؤكد ذلك أنه بعد موت يعقوب أمر يوسف بتحنيطه – وهي عادة مصرية – فحنطوه بأربعين يوماً وبكوا عليه سبعين يوماً (تكوين 1:5 – 4). كما تم تحنيط يوسف أيضاً (تكوين 26:5) حسب الشرائع الفرعونية. والى هنا تسدل التوراة الستار وتنهي الفصل الأول من الرواية – المسرحية ثم تعود الى الفصل الثاني بما تسميه الخروج من مصر وبعد انقطاع دام 430 سنة (خروج 4: 12). فكيف كان حال الإسرائيليين" خلال 430 سنة؟! التوراة لا تذكر شيئاً. .وحسب ما هو معروف بالتوراة فتاريخهم مكتظ بالأنبياء والرسل، بل لا توجد فترة زمنية تخلو من رسول أو نبي أو "ممسوح"، فكيف ولماذا تعتم التوراة على أربعة قرون ونصف – تقريباً – لا تذكر شيئاً عن "بني إسرائيل"؟! أليس غريباً عدم وجود أي حدث تسجله التوراة، خلال هذه الفترة، وهي التي دأبت على تسجيل الغث والسمين؟!

ورد في المصادر الآثارية المصرية إسمان هما: يعقوب – إيل، يعقوب – بعل. (1) وقد ورد الإسمان بصيغة المركب مع الإله إيل أو الإله بعل ولم يردا بصيغة المفرد أبداً. وأن إسم يعقوب بصيغة المفرد – غير المركب مع الإله –

لم يوجد إلا بالتوراة. . ورغم أن التوراة تذكر منطقة جوش قرب أفاريس كمكان سكن فيه يعقوب وأبناؤه، فلم يعثر الآثاريون على أي دليل على ذلك.

ويفيد الباحث Alane Rowe أن اسم يعقوب ويوسف – وردا في معبد الكرنك في زمن تحتمس الثالث (1504 – 1450 ق.م.) كأسمي قريتين يعقوب – ايل، يوسف – ايل (2). ولم يردا مفردين يعقوب ويوسف إلا في التوراة.

ويشير بعض الباحثين الى وجود ذكر لبني إسرائيل على نصب وجد في طيبة يعود الى مرنفتاح (3) (1230 ق.م.) لكن الحقيقة أن النصب يذكر العبيرو (4) وليس الإسرائيليين أو العبريين ولأن بعض الباحثين اعتبر العبيرو هم العبريين. والكثيرون يعتبرون العبريين هم الإسرائيليون قرئ نص النصب على أنه بني إسرائيل في بعض الترجمات.

ونورد في هذا السياق مثلاً على طريقة الترجمة من النصوص القديمة وتوظيفها بما يخدم الطروحات التوراتية عند باحثين مشهورين، فقد وجد (العلامة) وليم أولبرايت W.F. Albright نصاً في تل بيت مرسيم والتي تبعد حوالي 45 كم شرق البحر الميت يذكر اسم يعقوب – كما يقول الباحث – Y(a)qeb وهذا يتطابق مع مخطوط من عصر الهكسوس ينص على جملة "إبن الإله رع" Son of Ra’، فكيف توصل باحثنا الى هذا الاستنتاج؟

لقد وجد أن حرف العين في كلمة يعقوب شبيهة بحرف العين في رع ثم ربطها مع كلمة Give التي تعني أعطي وطابقها مع (qeb) في يعقوب ليصبح المعنى أعطى الإله أو وهب ولتصبح الجملة الإله واهب الحياة وبذلك تتطابق مع الجملة الفرعونية (الهكسوسية) إبن الإله رع. (1) وهكذا توصل هذا الباحث الى مثل هذه الترجمة المزاجية. رغم أن كلمة يعقوب بالكنعاني تعني ببساطة أعقب أو تبع.

وجد الباحثون والمنقبون الآثاريون أثراً مهماً على ورق البردي يعود الى الأسرة التاسعة عشرة ومكتوب بالهيروغليفية ألقى أضواء على قصة يوسف مع زوجة سيده المشهورة بالتوراة، وهذه الوثيقة تحمل عنوان "قصة الأخوين" (2) والتي مرادها: ". . منذ أزمان كان أخوين، الأكبر يسمى أنوبس Arubis والأصغر باتا Bata يعيش في بيت شقيقه الأكبر وزوجته، يرعى الغنم من الصباح حتى المساء. وعندما جاء وقت الحراثة عملا معاً لعدة أيام حتى نفذ غداءهما، فأرسل أنوبس أخاه الأصغر لإحضار المؤن من المدينة، فوجد باتا زوجة أخيه تمشط شعرها، فقال لها: هيئي لي بعض الطعام بسرعة كي أعود للحقل، فقد أمرني أخي أن أعود سريعاً. أخذ كمية من الحنطة وهم بالخروج من المخزن عندها قالت له: يا لك من رجل

تتعاظم قوتك يوماً بعد يوم، تعال ننام سوية ساعة من الزمن، وسأضمن سعادتك وأعطيك أجمل الثياب. غضب الشاب ودفعها قائلاً لها: ما هذا العمل الفظيع، لا تعودي اليه ثانية وأعدك ألا أفشي هذا السر. ثم ألقى حمله عن ظهره وخرج.

خافت المرأة مما فعلته. . فوضعت بعض القش وألقت نفسها عليه ليبدو كأنه مهروس، ولما عاد الزوج وجد زوجته ملقاة على القش كأنها خارجة من معركة فسألها: من كان معك، أجابت لا أحد باستثناء أخوك عندما جاء ينشد الزاد، وكنت وحيدة فطلب مضاجعتي، فرفضت طلبه وقلت له: ألست أمك وأخوك الأكبر أليس كوالدك وقد دفعني وهددني ألا أقول لك، فإذا تركته يعيش سأموت أنا" أما التوراة فتقول: ". . وبعد فترة أعجبت زوجة سيده يوطفار بيوسف، وقالت. . تعال ضاجعني لكنه رفض. وعندما جاء زوجها الى البيت قالت: العبد الذي أحضرته الينا حاول اغتصابي". (التكوين 7:39).

يدلنا الأثر المكتوب الذي وجد في Elkab (1). أن جنود أحموس احتلوا المدن التي كان يسيطر عليها الهكسوس، ولما سقطت أفاريس عاصمتهم، خرج المصريون لملاحقتهم الى بلاد كنعان، واحتلوا بلاد الفينيقيين، وفي عهد تحتمس الأول وصل المصريون الى وادي الرافدين، واستمرت سيطرتهم على بلاد الشام لعدة قرون بعده. فقد انطلق تحتمس الأول من غزة ومجدوا الى قادش ومن ثم الى كركميش. وعلى إحدى بوابات معبد الكرنك نحتت أسماء الأمراء السوريين الذين أسرهم الملك رعمسيس الثالث وسجنهم في قلعة مجدو ومنهم من قاده الملك الى طيبة. والقائمة في الغالب تحتوي 270 إسماً في عشرة سطور لكن لم يبق منها إلا 119 إسماً واضحاً وكذكل أسماء مدن يبدو أنها كانت مع الخابيرو ومن هذه المدن – المذكورة في رسائل العمارنة – غزة، مجدو، تعنك، دمشق، حماة، بيروت، شمرون، بيلا، ابلعام، عكا، الكرمل، بيت شمس، النقب، المجدل، جيرار، جات، جيزر، بيت أنات، والمعروف أن رعمسيس الثالث أكمل ما قام به رعمسيس الثاني، وهو فرعون الخروج حسب معظم المصادر، وبذلك تكون المدن المشار اليها جزءاً من مهمات الموسويين في أرض كنعان.

شن امنحوتب الثاني (1461 – 1436 ق.م.) بحملة كبيرة على كنعان واستمر بزحفه شمالاً حتى احتل حلب والمدن القريبة منها، ثم زحف الى وادي الرافدين، حيث تذكر لوائح الكرنك 24 منطقة ومدينة أخضعها امنحوتب الثاني. أما ابنه تحتمس الرابع (1436 – 1427 ق.م.) فقد أعاد الزحف على فينيقيا عن طريق فلسطين وأجبر زعماء سوريا على دفع الجزية السنوية، وأثناء عودته الى مصر أجبر الزعماء الفينيقيين على تزويده بالخشب لبناء معبد للإله أمون في طيبة، كما أقام مستعمرة للسجناء المعارضين قرب طيبة.

تحت حكم خليفته امنحوتب الثالث (1427 – 1392 ق.م.) بلغت امبراطورية طيبة أوجها حيث بلغت من أقصى نقطة جنوب النوبة الى أبعد نقطة جنوب وادي الرافدين، ومالت سوريا وفلسطين الى الهدوء. أما في عهد أمنحوتب الرابع (أخناتون) (1392 – 1376 ق.م.) فقد أضمحلت مظاهر العظمة، واتجه الى ترتيب وتثبيت وجهة نظره الدينية. فالإله (أتون) "قرص الشمس" هو أساس الكون وهذا طرح خالفه فيه كهنة معبد (آمون).

سنّ الفرعون هذا تشريعاً خاصاً وأعطى الأوامر بقصر المعابد على الإله أتون في أطراف ملكه الأربعة، فقد وجد الباحثون آثاراً تعود الى (أتون) في النوبة والفيوم والدلتا والقدس (أورشليم). فقد اختيرت أورشليم لتكون فرعاً لعبادة أتون، وفي إحدى رسائل العمارنة طلب ملك أورشليم مساعدة أخناتون لمواجهة العبيرو وليظل اسم الإله أتون "في القدس الى الأبد". كما وجود حجر كلسي في القدس يشير الى عبادة أتون. (1)

شوشت التواريخ الواردة بالتوارة أيضاً تحديد زمن الخروج الموسوي. فإذا كان الخروج وحسب ما ورد بالتوراة قد تم قبل بناء الهيكل 480 سنة (الملوك الأولى 1:6).

إذن 965 – بداية حكم سليمان - + 480 = 1445 ق.م. زمن الخروج.

وعندما وقف يوسف أمام فرعون كان عمره 30 سنة (تكوين 46:41) فتكون إقامته بمصر قد مضى عليها 13 سنة أي (30 سنة عندما وقف أمام فرعون – 17 سنة عمره عندما جاء الى مصر).

1897 ق.م. (2) سنة دخول يوسف الى مصر ناقص 13 سنة = 1884 عندما تبوأ مركزاً مرموقاً في مصر ولوجود سنتين مجاعة وسبعة سنوات وفرة 2+7=9 فإن قدوم يعقوب الى مصر 1884 – 9 = 1875 ق.م. ولأن يعقوب مكث 17 عاماً (تكوين 28:47) إذن 1875 – 17 = 1858 تاريخ وفاة يعقوب. ولأن يوسف عاش 110 سنوات (تكوين 22:50) فيكون 1914 – 110 = 1804 ق.م. وعندما كلّم موسى فرعون لإخراج بني إسرائيل كان عمر هارون 83 سنة (خروج 7:7).

فبذلك يصبح 83 + 1445 = 1528

1804 – 1528 = 276 سنة من وفاة يوسف حتى الخروج وهذا يخالف ما جاء بالتوراة مكوثهم 430 سنة.

أصبح خطل وبطلان الإدعاءات التي تقول بوجود العبريين كموجة هجرة أو الإدعاءات التي تنسبهم الى الهكسوس باطلة بدليل الآثار والتوراة معاً.

تعتبر التوراة ما أسمته الخروج الموسوي من مصر أساس الديانة اليهودية، تاريخياً، وبناء على تحليل الباحثين لما ورد في التوراة فإن الخروج الموسوي من مصر أرجع الى القرن الثالث عشر ق.م.

كانت فلسطين معروفة للمصريين تحت أسماء (حارو) Haru، (خال) Khal، (باكانانا) Pa – Kanana، ثم عرفت بأرض كنعان وكذلك بأرض الأموريين، ولكنها لم تذكر إطلاقاً أنها تحمل اسم أرض – إسرائيل، بل إن ما تسميه التوراة (دولة إسرائيل) في السامرة لم ترد في أي مصدر بهذا الإسم. وهذا يشكك بما ورد في التوراة من قصص وأحداث.

وردت بالتوراة قصة أو قصص الخروج دون أي مصدر آخر وخاصة المصادر المصرية التي سجلت الحروب والأحداث في القرن الخامس عشر ق.م. الى القرن السابع ق. م. أي أنها تذكر الأحداث المهمة للفراعنة قبل الخروج الموسوي بحوالي 200 سنة والى ما بعد السبي البابلي دون الإشارة ولو تلميحاً الى الخروج. ولأن مصدر الخروج الموسوي الوحيد هو التوراة كان المجال واسعاً لاستنتاجات الباحثين وهي استنتاجات ظنية بحكم مقدماتها غير المؤكدة ومن هذه الآراء:

أولاً:
رأي يقول أن الموسويين هربوا من مصر في حياة رعمسيس الثاني وخلفه مرنفتاح وهذا رأي البرفسور بريستيد Breasted (1).

ثانياً:
يعتقد البعض أن (الاضطهاد) تم في عصر تحتمس الثالث وبذلك يكون الخروج في عهد امنحوتب الثاني لكن ذلك يسبب إشكالاً يصعب تفسيره متمثلاً بأربعين سنة من التيه.

ثالثاً:
رأي آخر يقول أن "الإسرائيليين" لم يغادروا مصر ومن وصفهم مرنفتاح في مسلته هم الخابيرو (العبيرو) وهذا يتوافق مع الذين يقولون أن العبريين هم العبيرو.

رابعاً:
العالم (ايردمانز) Eerdmans له رأي مخالف حيث يعتبر أن إقامة "الآباء" (ابراهيم وأولاده وأحفاده) حدث بعد اجتياح مرنفتاح نهاية الأسرة التاسعة عشرة ويؤرخ الخروج على أنه تم في زمن رعمسيس الثاني عشر وبذلك يكون Eerdmans قد نجح في استخراج بعض الترابط الزمني لكن النظرية لا تتوافق مع العهد القديم، فإذا تم الخروج في عهد رعمسيس الثاني عشر (1115 – 1088 ق.م.) فذلك يتناقض مع أحداث سفر القضاة.

خامساً:
مجموعة من الباحثين ارتأت أن قسماً من "الإسرائيليين" ظلوا في فلسطين ولم يسكنوا مصر وهؤلاء يمثلون جاد، أشير، دان، نفتالي. وأن مرنفتاح هاجم هؤلاء وليس أولئك الذين كانوا في مصر.

لكن التوراة تشير في عشرات الآيات أن القبائل الأربع جزء من الذين سكنوا مصر وكانوا أيضاً إبان فترة "التيه" فقد ورد هذا التأكيد في: "الخروج 6:31، العدد 12:1 – 39، العدد 25:2 – 31، العدد 66:7، العدد 25:10، العدد 12:13، التثنية 18:27، التثنية 22:33، يوشع 40:19 – 48 يوشع 5:21، العدد 15:1 – 43، العدد 29:2، العدد 78:7، العدد 27:10، يوشع 8:20، العدد 44:26).

لقد وصل الموسويون الى أرض كنعان بصفة محتلين (1) وهاجموا المناطق والمدن الواردة في رسائل العمارنة كمعاقل للخابيرو (جيزر، تعنك، مجدو وغيرها) وهذا يؤكد عدم صلة الموسويين (أو العبريين) بالخابيرو أو العبيرو وما هم إلا فصيل في الجيش الفرعوني جاء لتأديب" الخارجين عن سلطة الفرعون.

ومن المسلم به أن التنقيبات الآثارية أضافت الكثير من الإرباكات المعقدة لقصة الخروج الموسوي فموميا مرنفتاح التي وجدت مدفونة في قبر امنحوتب الثاني، واستناداً الى الشروحات الموجودة، فإن عبور البحر الأحمر كان خطة عسكرية مصرية هدفها السيطرة على أرض كنعان من موجة "العصيان". وهذا الأثر يحمل دعاء الشكر للإله أمون على نجاح تدمير اشكلون وجيزر (والتي تشير التوراة أن "الإسرائيليين" دمروها). وقد زاد التأكيد حين تم العثور أثناء التنقيبات على مزولة – ساعة شمسية – وجدت في جيزر وتحمل اسم مرنفتاح. كما يضيف (سيتي الأول) في إحدى وثائقه التي وجدت في بيسان وتذكر فيها كيف أنه – أي الفرعون – قدّم العون الى ملك بيسان للقضاء على بلاد الشام ومنها فلسطين قبل تاريخ الخروج وأثناءه وبعده، ومن الدلائل التي تؤكد السيطرة الفرعونية المسلة التي وجدت في بيسان أيضاً وتحمل اسم رعمسيس الثاني، كما أن رعمسيس الثالث فرض السيطرة على فلسطين، وأقام نصباً في بيسان.

فالسيطرة الفرعونية على بلاد الشام كانت مطلقة تؤكدها الوثائق المصرية والبابلية والأشورية وآثار التنقيبات في فلسطين وبعض الوثائق الحثية، وهذه السيطرة استمرت خلال أكثر من 1200 سنة أي منذ طرد الهكسوس ومطاردتهم الى بلاد الشام وحتى السبي البابلي. لقد تم طرد الهكسوس سنة (1573 ق.م.) وحصل الخروج الموسوي – حسب رأي التوراة – القرن الثالث عشر ق.م. وفي أوج القوة العسكرية والجبروت الفرعوني.

وعاصر "الموسويون" أقوى الفراعنة (رعمسيس الثاني، مرنفتاح سيتي الأول)، والذين لهم بقايا حصون وقلاع ونصب تذكارية في قلب فلسطين فكيف تمكن الموسويون الفرار من وجه الفرعون في مصر ولم تطلهم يده في فلسطين وهي من جملة أملاكه (1)؟!!

يقول أحد الباحثين الغربيين: هناك استحالة أن تتفق التنقيبات الآثارية مع أطروحات التوراة وخاصة قصة الخروج، بل إن الدخول فيها محظور بالإطلاق. (2)

هل كان هناك اضطهاد فعلي موجه ضد من تسميهم التوراة "الإسرائيليين" فإذا كان ذلك حقيقة فكيف حمل المغادرون، بل أثقلوا بالهدايا – المسروقات – وهل يمكن تفسير ذلك إلا إذا حظي الخروج بموافقة مصرية كاملة؟ خاصة إذا عدنا الى العلاقات العاطفية الحميمة بين المصريين والموسويين (3) والتي يشير اليها سفر (التثنية 7:23 – 8).

---

(1) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات الجزء الثاني ص 64.

(2) J. G. Duncan, Diggin up Biblical History Vol 1 1931 P. 59

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(1) H. G. May, Culture And Conscience 1936 P. 66 – 71

(1) يستنتج هذا التاريخ: مولد ابراهيم 2165 ق.م. عندما كان عمره 86 ولد اسماعيل أي في 2079 ق.م. كان عمر اسماعيل 13 سنة عند الختان أي سنة 2066 ق.م. (تكوين 25:17) وبعد سنة ولد اسحاق أي سنة 2065 ق.م. ماتت سارة وعمرها 127 (تكوين 1:23) وعندما ولدت اسحاق كان عمرها 90 سنة فيكون الفرق بين موتها وولادة اسحاق 37 سنة أي 2028 ق.م. وكان عمره 40 سنة عندما تزوج (تكوين 20:25) أي 2025 ق.م. فتكون ولادة يعقوب 2065 – 60 = 2005 ق.م. فقد ولد يعقوب وعمر اسحاق 60 سنة (تكون 26:25).

(1) Sh. Yeivin, A Decade of Archaeology in Israel 1948 – 1958 P. 106

(2) Alan Rowe, P. E. Q July – Dec 1962 P. 134

(3) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص 193

(4) G. A. F. Knight Nile and Jordan 1920 P. 245

(1) Alan Rowe P. E. Q. July – Dec 1962

(2) Werner Keller, The Bible as History P. 100

(1) G. A. F. Knight, Nile And Jordan p. 125

(1) G. A. F. Knight Nile And Jordan 1920 P. 142

(2) انظر هامش ص 49.

(1) J. H. Breasted, Biblical World P. 62.

(1) J. Duncan, Biblical History Vol 1 P. 165

(1) R. A. S. Macalister, A Century of Excavation in Palestine 1925, P. 159

(2) G. Ernest Wright, B. A. S. O. R Number 86 April 1942 P. 34-35

(3) A. B. Rowton P. E. Q. January – April 1953 P. 50 – 53

الفصل الثاني

الوضع السياسي في فلسطين
وبلاد الشام في هذه الفترة

بعد طرد الهكسوس من مصر (1573 ق.م.) بقيادة الفرعون (أحموس 1580 – 1559 ق.م.)، اجتاحت الجيوش المصرية فلسطين ولبنان وسوريا الشمالية. واستمرت هذه الجيوش تذرع بلاد الشام طولاً وعرضاً لعدة قرون. فقد واصل امنحوتب الأول ابن احموس (1559 – 1539 ق.م.) وتحتمس الأول هذا المنهج، وقد وصل تحتمس الأول الى وادي الرافدين عن طريق سوريا حيث انطلق من غزة ومجدو الى قادش ثم كركميش. ثم دخلت كنعان تحت سيطرة رعمسيس الثالث.

شــن أمنحوتــب الثـاني (1461 – 1436 ق.م.) حملـة كبيـرة علـى كنعـان واسـتمر بزحفـه شـمالاً واحتـل حلـب والمـدن القريبـة منهـا وكـذلك فعـل تحتمس الثالث.

زحف تحتمس الرابع (1436 – 1427 ق.م.) واسـتولى علـى فينيقيـا وتبـادل مع ملـك بابـل كـارا – انـداش Kara – indash الهـدايا، وتحـت حكـم خليفتـه امنحوتب الثالث (1427 – 1392 ق.م.) بلغـت امبراطوريـة طيبـة أوجهـا. وقـد وجد في تل زكريا وتل الصافي (جات) بقايا آثار مـن عهـد امنحوتـب الثالـث، كما وجد في تعنك – قرب جنين اليوم – آثار سليمة تعود الى نفس الفترة، كما وجد في تـل المتـسيلم Tell – El – Mutesellm (مجـدو) تماثيـل لآلهـة مصرية لها علاقة بعبادة أمون رع.

تحت حكم أمنحوتـب الرابـع – أخنـاتون – (1392 – 1376 ق.م.) بـدأ الـضعف يتسرب الى إمبراطوريـة مـصر، ورغـم وجـود آثـار فـي فلـسطين تعـود الـى أخناتون، فربما تكون المبادرة من أنـاس آخـرين ولـيس منـه مباشـرة بـدليل طلب المساعدة الذي قدمه ملك القدس (أور-شالم) من أخناتون "لترسـيخ إسم الإله أتون الى الأبد". كما وجد الباحث Bliss أثناء التنقيب في لجـيش (تل الدوير) آثاراً أرجعها الى أخناتون في حين أعادهـا آخـرون الـى (سـيتي الثالث). وقد اكتشف الدكتور D. A. Mackenzie آثاراً فـي بيـت شـمس تـدل علـى وجـود سـلطة مـصرية فـي هـذه المنطقـة، وقـد شـملت لقـى وأوان وتماثيل للآله ايزيس تعود الى الأسرة الثامنة عشرة. وقد عمت الاضطرابات في عصر أخناتون لتشمل جميع بلاد الشام.

بعد موت أخناتون تولى الملك Smenkhara الذي سار علـى عبـادة أتـون، إلا أنه مات بعد سـنتين فجاء تـوت عـنخ آمـون (1376 – 1374 ق.م.) وعـاد الـى عبادة أمون رع ورجـع الـى العاصـمة طيبـة وانتهـت الأسـرة الثامنـة عـشرة بمجـــيء هورمحـــب Heremheb (1370 – 1353 ق.م.) ثـــم جـــاء بعـــده رعمـــسيس الأول (1353 – 1351 ق.م.) ثـــم ســـيتي الأول (1351 – 1324 ق.م.) والـذي شـن حملـة واسـعة علـى كنعـان والمنـاطق الـسورية فـي محاولة لاجتثاث المتمردين، حيث وصل الى الأردن ومنها الى حوران ولبنـان ثم فتح قادش ووصلت سـلطته الـى قبـرص. لقـد أخـضع سـيتي الأول كمـا يقـول البروفـسور W. Max Muler مجموعـة أسـماء مهمـة فـي فلـسطين. وفي السنة الرابعة من حكم سيتي الأول عـاد ثانيـة الـى فلـسطين حيـث زحف هذه المرة من فينيقيا عبر الجبال الى البقاع، وهاجم قادش واصـطدم مع الحثيين. وعندما مات سيتي الأول كانت مصر قوية كما كانت فـي عهـد الأسرة الثامنة عشرة.

تولى رعمسيس الثاني (1324 – 1258 ق.م.) بعد وفاة والده، وفـي الـسنة الرابعة لحكمه زحف على فلسطين وقد وجد Macalister تماثيل ولقى فـي جيزر تعود الـى رعمـسيس الثـاني. وقـد اختـرق رعمـسيس الثـاني الأردن

مسجلاً الأحداث على حجر اكتشفه Sechumcher ويعرف باسم (Job Stone) (1) ثم سجل انتصاراته على ثلاث مسلات على نهر الكلب قرب بيروت.

تولى مرنفتاح (1258 – 1238 ق.م.) الحكم بعد وفاة أبيه رعمسيس الثاني وفي السنة الثالثة لحكمه شن حملة على كنعان "حيث وجود ثائرين يطالبون بإزالة نير المصريين". وقد سجلت حملاته على مسلة اكتشفها (بتربيه) في طيبة عام 1896. وقد اعتبر حكم رعمسيس الثاني ومرنفتاح عهدي الاضطهاد والخروج عند كثير من الباحثين التوراتيين. فإذا كانت هذه سطوتهما. فكيف سلم الموسويون من بطشهما وهما بمتناول يدهما إلا إذا كانوا أتباعاً لهما؟

ثم جاء الى السلطة امنمسس Amenmeses (1238 – 1237 ق.م.) ولم يكن ذا تأثير لقصر المدة الزمنية التي حكمها. وجاء بعده سيتي الثاني (1237 – 1232 ق.م.)، وقد حقق في السنة الثانية لحكمه انتصارات في فلسطين. ثم استولى على السلطة ستنحت Setnekht (1206 – 1202 ق.م.) ولما مات أورث ابنه رعمسيس الثالث (1202 – 1170 ق.م.) مملكة قوية ومتحدة، وفي فترة حكمه نزلت أعداد كبيرة من الفلسطينيين الساحل الكنعاني بعد أن هزمهم في البحر. وبعد عهد رعمسيس الثالث برزت قوة هؤلاء الفلسطينيين وكانوا أعداء نموذجيين للمصريين وحلفائهم في أرض كنعان، الى درجة لم تسجل أحداث تاريخية تشير الى غزوات مصرية باتجاه كنعان في ذلك الوقت بحكم وجودهم حاجزاً بين مصر وأرض كنعان.

هناك دلائل على وجود رعمسيس الثالث في فلسطين فقد وجد Macalister لقى تحمل اسم رعمسيس الثالث في لجيش، كما وجد تمثال الإله (بتاح) Ptah من الذهب. وقد ذكر رعمسيس الثالث نفسه بعض المدن الفلسطينية حيث أشار الى إدخال عبادة أمون – رع اليها. وبعد سنتين على حروبه الشمالية اضرط رعمسيس الثالث لمحاربة جيرانه الليبيين الذين هاجموا مصر. الأمر الذي يفسر سحب قواته من بلاد الشام والاعتماد على أتباعه لإخضاع العصاة وخاصة الفلسطينيين. ويبدو أن الموسويين هم الذين تولوا هذا الأمر.

وبعد وفاته تولى السلطة مجموعة من الفراعنة المصريين يسمون بالرعامسة – من رعمسيس الرابع وحتى الثاني عشر - .

وصل حيرِ – حيرو Her – Heru (1102 – 1086 ق.م.) الى الحكم، وسمى نفسه مُس أمون أي ابن الإله أمون، وهو من الأسرة الواحدة والعشرين، وحسب التسلسل التاريخي التوراتي فقد عاصر داود وسليمان. ومعه بدأ الضعف يعم مصر. حتى استولى على السلطة الفرعون شيشنك (944 –

922 ق.م.) وقد ورد اسمه بالتوراة (شيشق) وهو من أصل ليبي. ولما استقرت له الأمور في مصر هاجم أرض كنعان وسجل على باب الهيكل العظيم في الكرنك قتل وأسر ملوك ورؤساء 156 مدينة ومقاطعة من كنعان وقد صوروا مجرورين من أعناقهم بالحبال وعلى أكتافهم أسماء مدنهم.

يبدو من الوهلة الأولى عمق الاضطرابات واتساعها خلال هذه المرحل، الأمر الذي كان يستدعي من الفراعنة مواصلة الحروب في بلاد الشام، فإذا شعر الناس أو المناوئون للفراعنة بضعف السلطة المركزية تمردوا. كما يُغري ذلك أعداءهم الحثيين في آسيا الصغرى فيبدأون بالتمدد تجاه شمالي سوريا. كما تدل بعض الرسائل – رسائل العمارنة – اتصال بعض أمراء الشام بالأشوريين أو بالبابليين.
(1) G. A. F. Knight Nile And Jordan P. 125

رسائل العمارنة وميزاتها

هي عبارة عن رسائل تبودلت بين فرعون مصر امنحوتب الثالث وولده امنحوتب الرابع (أخناتون) وملوك غرب آسيا (ملوك المدن في بلاد الشام وملوك الكاشيين والميثانيين والأشوريين) وقد كتبت جميعها باللغة الأكدية – التي كانت لغة مخاطبة دبلوماسية عالمية تلك الفترة – عدا ثلاث رسائل كتبت باللغة الحورية. وقد نقشت على ألواح من الطين وبالخط المسماري. وسميت برسائل العمارنة نظراً لاكتشافها في موقع تل العمارنة (تخت أتون) عاصمة أخناتون في مصر. وتلقي هذه الرسائل الأضواء على الأوضاع العامة في فلسطين وبلاد الشام ككل. وقد تم اكتشافها عام 1887م. وهي تغطي الفترة من 1400 – 1360 ق.م.

تبلغ عدد هذه الرسائل أكثر من 300 رسالة منها 81 في المتحف البريطاني 160 في متحف برلين، 60 في متحف القاهرة.

ورد في معظم هذه الرسائل اسم العبيرو أو الخابيرو أو الأبيرو كمقاتلين أو "خارجين عن القانون وسلطة الفرعون والملك".

تتميز الرسائل التي تهمنا وهي المرسلة من ملوك المدن الى الفرعون بما يلي:

أولاً:
تشير أهمها الى حركة العبيرو والتي بدأت بالزحف من منطقة حلب وشمالي سوريا تجاه الجنوب، حيث سيطر (عبد عشرتا) وهو ملك عموري غير مختلف فيه، (فعشرتا) هي إحدى الآلهات الخاصة بالعموريين، وقد أظهر ولاءه للفرعون في وقت تحالف فيه مع الحثيين ساعياً الى تقويض

سلطة الملك المصري، بل إنه كان جاداً في إنشاء دولة عربية أمورية في سوريا تقف في وجه فراعنة مصر والحثيين.

ثانياً:
رغم أن (عبد عشرتا) كان ملكاً سيطرت قواته على معظم سوريا الشمالية والوسطى إلا أن رسائل غريمه (رب – عدي) حاكم جبيل (بيبلوس) الى فرعون كانت تصفه دائماً بالعبيرو، الأمر الذي يؤكد أن الصفة السلبية للّفظ أعطي من قبل الحكام التابعين لفرعون.

ثالثاً:
ظهرت خلال هذه الفترة خلافات عميقة بين ملوك المدن أنفسهم فوشى أحدهم بالآخر عند الفرعون واتهمه بتهمة العبيرو.

رابعاً:
تبدو في مرحلة بدأ التمرد يظهر عند بعض الملوك الأتباع فكانوا يعصون أوامر الملك أو مندوبيه إذا اصطدمت بمصالحهم.

خامساً:
إن حركة الخابيرو تظهر للمراقب كحالة اجتماعية عامة نتيجة الوضع الاجتماعي والسياسي.

من هم العبيرو؟

العبيرو (الخابيرو) لفظة غير أكدية ربما استقرت في الأكدية وغيرها من اللهجات العربية قادمة من السومرية وقد وردت بهذه القراءة في مخطوطات ماري ورسائل العمارنة وبعض المسلات التي أقامها المصريون. ويرادفها لفظة Sa – Gaz (سا – جاز) في المصادر الأشورية والبابلية (1) – وأحياناً الحثية وتعني قطاع الطرق والمرتزقة.

وقد أطلق اسم الخابيرو لأول مرة على المحاربين من نارام – سن (سنة 1270 ق.م.) من ملوك السلالة الأكدية القديمة ويذكر الإسم ثانية في رسائل (ماري) في القرن الثامن عشر ق.م. وألواح وزي في القرن الخامس عشر ق.م. وهذا يدلل أن جذور حركات الخابيرو بدأت في العراق ولم تأتِ من مصر.

ظهر مصطلح خابيرو Ha – bi – ru في رسائل العمارنة بعد قراءة النصوص بالأكدية وبالخط المسماري كما ظهر مصطلح سا – جاز Sa – Gaz وهو يتطابق مع الخابيرو أو العبيرو أو الأبيرو، وقد اهتز الباحثون التوراتيون طرباً وظنوا أنهم وضعوا يدهم على مادة تاريخية هامة تؤكد حقيقة توراتية وهي

وجـود "العبـريين". فالباحـث (إدوارد كامبـل) Edward F. Campbell يطـابق كلمة خابيرو Hebiru مع كلمة Hebrew فيخرج بالنتيجـة المتـسرعة والفجـة أن الخابيرو هم العبريون؟!

استعملوا اسم العبيرو – في رسائل العمارنـة – مـع صـيغة الفعـل الأكـدي الذي يعني يعمل To do أو "يشتغل"، وفي الجملة يمكـن أن تعنـي شـيئاً يـشبه العمـل "عبـروا" أو ببـساطة ليـصبحوا عـابيرو (عبيـرو) الـى أن يـصبح المعنى "هرع وأخذ جانـب العبيـرو". وبـدلاً مـن مـصطلح العبيـرو الـسطحي الذي يعني خروجاً على القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالاً أن يكونوا "ثواراً"، ذلك أنه "ليـصبح عبيـرو" "فليقـاوم سـلطة الملـك" وهـذا مـا يفـسر محاولة "تقليل أهمية العبيرو" في رسائل العمارنـة. بينمـا "نـشاط العبيـرو" كبير جداً. فالمدن ثارت وأصبحت عبيرو. وقد أعطى (رب – عدي) أحد ملـوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعاً، داعيـاً كـل الـذين يثـورون في وجـه مـصر بالخـابيرو ووضـعهم ضـمن هـذا الإطـار. فـالعبيرو ليـسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج – كما يرى البعض – بـل هـم مـن نبـات الأرض والصحراء. إن ظاهرة الخابيرو تؤكد حالة السخط والكـره الـشديدين لاحـتلال الفراعنة بلاد الشام، ونتيجة الاضطهاد والقهر، الواقع على عامة الناس مـن جهة، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية أدت الـى حالات تمرد كبيرة، هذه الحالات رسـمها الحكـام الـذين ظلـوا علـى ولائهـم للفرعون من خلال نصوص رسائل العمارنة. (1)

ظهرت بعض الآراء والاستنتاجات عنـد عـدد مـن البـاحثين والآثـاريين تتعلـق بالعبيرو، فقد ظن أحدهم أن العبيرو هم جماعة مـن الأراميـين، ولأن هـؤلاء كان يسميهم العموريـون بالجماعـات المتحـدة والرفـاق، فقـد أطلقـوا علـى العبيرو اسم الجماعات المتحدة. لكن البروفسور (سايس) A. Henry Cayce رفض فكرة أن العبيرو هي ظاهرة اتحادية بين مناوئين للفرعون، بينمـا يـرى (بتربيه) W. M. Flinders Petrie أن كلمة خابيرو مشتقة من كلمـة (حبـرون) (2). لكن كوندر يرى بأن كلمة خابيرو لا تعني الاتحاد ولا يمكن استخلاصـها من الحبرونيين لعدم وجود حرف النون في الإسم. (1)

وجد الباحث Hugo Winokler وثيقة في Boghazkjoi في كابادونيا في تركيا تـشير الـى وجـود أعـداء مـن الخـابيرو تقـوم بأعمـال مناوئـة لفرعـون مـصر وسلطته. ومما لا شك فيه فلقـد اسـتغل الحثيـون والبـابليون وجـود العبيـرو وقدموا لهم المساعدات لإضعاف سلطة الفرعون، خاصة بعد عودة تحتمس الرابع من سدوم Sidom. (2)

تساءل M. Virolleaud عن وجود فارق بين كتابة وقراءة Hapiri في رسـائل العمارنة وكتابة وقراءة Aperu في الألـواح المـصرية (مـسلة سـيتي الأولـى في بيسان)، فمن الواضح أن الإجابة على هذا التساؤل سـيجعل اسـتنباط

العبريين من اللفظة صعباً وسيكون أسس التشييد فوقها أصعب بكثير (3) مما يظن.

---

(1) The Assyrian Dictionary Chicago 1956 Vol 6

(1) Edward F. Campell, Theh Biblical Archaeologist Vol 23 No. 1

(2) W. M. Flinders Petrie, History of Egypt P. 315

(1) Claude Regnier Conder, The First Bible 1902 P. 169

(2) A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria 1931 P. 159

(3) Emill G. Kraeing, B.A.S. O; R Number 77 February 1940

محتوى الرسائل

جاء في رسالة (لعبدي خيبا) ملك القدس ذكرٌ لتحركات شخص اسمه اينخانو Enkhanu ويذكر فيها كيف أن هذا الثائر قد استولى على حامية للملك في المنطقة. وتصف الرسالة الأخطار المحدقة بالمنطقة من كل جانب ويطلب من سيده الفرعون إرسال قوة. . فالخابير قد نهبوا جميع أراضي الفرعون ومقاطعاته ويختم الرسالة بالقول: إذا ظل جنود الملك في فلسطين، فالبلاد ستكون هادئة موالية للملك. (1)

ويخبر الفرعون في رسالة أخرى عن الأوضاع الأمنية المنفلتة وسيطرة الخابيرو على معظم الأراضي وعن الخطر الداهم الذي يهدد القدس (2). ومن أن ميلكيلو وشوارداتو قد حصلا على مرتزقة من مناطق جيزر وجمتي وجنود من كيلتي حيث تم غزو أراضي مدينة (روبوت). كما أن مدينة تابعة للقدس اسمها (بيت نينورتا) قد سقطت بأيدي أهالي كيلتي. ويؤكد على سيده بضرورة إرسال النجدات قبل أن تذهب البلاد كلها الى الخابيرو (1). وفي رسالة من (عبدي ملكي) الى سيده الفرعون يخبره فيها عن التحاق حاكم حاصور بصفوف الخابيرو. (2)

مشكلة الخابير – السا – جاز، والتي تلقي رسائل العمارنة الأضواء عليها، يمكن أن تكون قد حدثت لأسباب اقتصادية، لكن الأسباب الاقتصادية ليست عوامل معزولة عن العوامل الاجتماعية الأخرى. ففي الرسالة (95) والتي كتبها برياوازا Biryawaza أمير دمشق تحدث فيها عن وحدة الخابيرو

وقوتهم. بينما رسائل (عبد – خيبا) تشير الى ضم أراضي الملك أو ذهابها الى الخابيرو. (3)

أما المدعو موت –بعلو أمير بيلا فقد أعطى في الرسالة (255) مثالاً واضحاً لحالة التجارة المضطربة، حيث تشير الرسالة أن الفرعون أرسل مندوباً لإخباره على ضرورة حماية القوافل القادمة الى مصر من بلاد الميتانيين. (4)

إن تجاهل الأوامر الفرعونية من قبل ملوك المدن دليل على حالة العجز الذي وصله الفرعون، وتراخي السلطة المركزية شجع على العصيان والتمرد ليس فقط على الفرعون بل على أتباعه أيضاً لتبرز حالة الخابيرو كظاهرة ثورية. فهناك عدة رسائل من العمارنة يرفض فيها الأمراء إطاعة أوامر الفرعون أو وكلائه. فأمير عكا (زيتاتنا) Zetatna رفض هذه الرسالة رقم 234 أمراً من سوتا Suta أحد مندوبي الفرعون. وفي الرسالة رقم 245 يقر بريادا Biriyida وهو أمير آخر على عكا أنه أطلق سراح لبعايو أحد المناوئين لفرعون. وفي الرسالة 286 التي أرسلها (عبدي – خيبا) أمير القدس الى الفرعون يرفض فيها إقامة معسكر قرب مدينته. وفي الرسالة 270 يعلم ميلكيلو الفرعون أنه على خلاف مع المدعو يانهامو Yanhamu وأنه يطالبه بالفي شيكل فضة كجزية أو يرسل نساءه وأطفاله أماءً وعبيداً وقد كرر الطلب في الرسالة 271. أما عبدي – خيبا فيشير الى أن قوات الخابيرو تقترب من بيته. (1)

لم تنفجر الاضطرابات بشكل فجائي (2) – كما يقول مايكل سفرل – فقد كانت قبل العمارنة وبعدها بزمن طويل واكبت الوجود المصري في بلاد الشام منذ أحموس والى ما بعد نخو.

المسلة الكبيرة التي وجدت في بيسان (بيت – شان) تصف انتصار سيتي الأول على تحالف مدينتي Hamath و (فحل) Pahel اللتان وقفتا ضد تحالف بيسان ورحوب Rehob وهذا الوضع يشابه التحالف ضد عبدي – خيبا حيث هوجمت القدس (أورشليم) بتحالف ملكيلو وتاجو مع شوارداتا.

نصوص الشرق الأدنى القديم تسجل صفحات من الاضطرابات التي كان يثيرها العبيرو (الخابيرو) لكن هذه النصوص قد تكون منحازة الى جانب أعداء الخابيرو بحكم السلطة والإمكانات التي لم يكن العبيرو يمتلكونها. في رسالة من الأسرة الثالثة لأور تعود الى (2100 ق.م.) تصف السا – جاز كشعب بدوي يتجاهل أوامر الملك – والملك يمثّل الآلهة في هذه الفترة – أما نصوص (ماري) فتصفهم كسارقين أو قطاع طرق وكذلك نصوص (نوزي) 1500 ق.م. والنصوص الحثية (1600 ق.م.). وفي رسالة عبدي خيبا 288 وصف عبيرو (لجيش) بالعبيد.

ومما يدل على وجود العبيرو الى زمن أبعد من العمارنة الوثائق من حكم تحتمس الثالث التي تشير الى تدمير يافا عن يد الخابيرو وعلى مسلة ممفيس التي تحيي انتصارات امنيوفيس الثاني Amenophis II في فلسطين. إشارة الى مقتل 3600 من الخابيرو.

كانت مصر تسيطر على الطرق المهمة في فلسطين، والمدن الرئيسية المذكورة في رسائل العمارنة تقع على هذه الطرق. مجدو، عسقلان، عكا، جات، جيزر، غزة. وطريق فرعي وسط المرتفعات من حبرون – شوارداتا الى أورشليم – عبدي خيبا، وشكيم – لبعايو ثم الى مجدو وطرق رابطة من حبرون عبر لجيش وأخرى من أورشليم الى عجلون.

وتعطي الرسائل التي مصدرها بلاد أخرى غير بلاد الشام، بعض المدلولات عن القوى المؤثرة على التخوم المصرية فأوغاريت (رأس شمرا) كانت في مجال التأثير المصري حتى بداية عهد أخناتون. كما كتب بورنابورياش Burnaburiash ملك أشور الى أخناتون بعد وقت قليل من موت أمنحوتب الثالث قائلاً: "كنعان بلادك" فما من امبراطور يسد الفراغ. (1)

الرسائل التي أرسلها (رب – عدي) أمير بيبلوس (جبيل) تشير الى أنه كان يسيطر من شمال بيبلوس الى الحدود المصرية، لكنه تورط بعداء متواصل مع الأمراء الأموريين (العموريين) شرقي بيبلوس وشمالها لذا حاول إقناع الفرعون للتدخل بحجة أن العداء موجه أصلاً الى الفرعون وممتلكاته. "لقد بدأت المناطق التي كان يسيطر عليها بالتقلص التدريجي لتدخل تحت سيطرة مناوئه الرئيسي عبدي – عشرتا، حتى وقف وحيداً نهاية المطاف فاقداً كل شيء غير مدينته. (2)

لقد ازدُري الخابير واستغل هذا الازدراء من قبل أعدائهم، وحاول (رب – عدي) أن يظهر عدوه (عبدي – عشرتا) وكأنه لا يمثل إلا هذا النمط من الناس "قطاع الطرق والمرتزقة". وقد جمعهم – كما يرى رب عدي – حيث تمكن من الاستيلاء على مدينتي Ambi و Shigata. وقد استعمل رب عدي مصطلح خابيرو مشيراً الى عبدي – عشرتا نفسه، وبهذا المعنى أيضاً يمكن أن يعطي مدلولاً أن عبدي – عشرتا ذو ارتباط عائلي أو اجتماعي بالخابيرو، وبذلك يكون عبدي عشرتا ومن ثمه ابنه عزيزو قد جمعا الساخطين الى جانبهما.

جاء في التوراة أن ملك القدس (أورشليم) أدوني صادق (سفر يوشع 1:10 – 5) بينما في رسائل العمارنة كان ملك القدس (Ura-Sa-Lin) يحمل اسم عبدي – خيبا. ومن المحتمل أن الإسمين لشخصين مختلفين وفي فترتين متباينتين. لكن الباحث سايس Sayce له ترجمة خاصة ورأي متميز: حيث يترجم اسم عبدي – خيبا Abd-Tob أو عبد العاليم أو "خادم لشخص جيد" أو "خادم لشيء جيد" وبذلك يتطابق مع اسم (أدوني صادق) أي "السيد

المستقيم) لذا نجد كلمة صادق – الكلام لسايس – في إحدى رسائل العمارنة حيث يقول الكاتب للفرعون: "لينظر إلي الملك بعين الرضا" أو بصدق:

"Behold, the king is rihteous (Zaduk) towards me" (1) وبذلك يصل الى استنتاجه أن عبد خيبا هو نفسه أدوني صادق!!

تبلغ الرسائل التي بعثها عبدي – خيبا الى امنحوتب الرابع (اخناتون) سبع رسائل تتضمن طلب المساعدات أو شرحاً للأوضاع المضطربة أو يدافع فيها عن نفسه ضد الوشاة الذين اتهموا بخيانة الملك. فقد جاء في إحداها أن الخابيرو احتلوا القلاع والحصون ولم يبقوا أياً منها "لسيدي الملك" فقد دمروها جميعاً يقودهم توربازو Turbazu وهم الآن على أبواب (صيلع)، كما قتل أحد خدم الملك المدعو زيمريدا من لجيش على يد أتباعه الذين ثاروا ضد الملك، فهل يرسل "سيدي" المساعدة، وهل يبعث بجيشه الى البلاد التابعة له، وإذا لم تصل هذه القوات خلال عام واحد فكل البلاد التي "لسيدي" سوف تدمر. وقد ذكر في الرسالة 11: ماذا عملت من سوء: الناس يحبون الخابيرو ويكرهون الحكام. (2)

وجه اخناتون في سنة حكمه الحادية عشرة قوة بأمرة (هاني بن ماريرابن أحد ملوك كنعان، وقد رحب كل من انتروتا ملك اخشاف وأرسل اليه أحد قواده المسمى (اندرا) ليكون في خدمته، وفعل الشيء نفسه ملك حازور وشوباندا أمير من الجنوب. وقد قهر هذا الجيش تاجي وميليكلو وفرض استسلامهما لاخناتون، وتفيد الرسائل أن تاجي وميلكلو ذهبا الى الفرعون وطلبا الصفح، فعفا عنهما وأرجعت لهما مدنهما. (1) كما أن لابايا كان مخلصاً لفرعون لكن ابنه دوموياانضم الى الخابيرو فأمر اخناتون عامله بيريديا باعتقال لابايا وإرساله حياً الى مصر، وقد أرسله بيريديا مكبلاً الى مجدو تمهيداً لإرساله الى فرعون لكن شقيق بيريديا الأصغر زوراتا Zurata حاكم عكا أخذه بعد أن تعهد بإرساله الى أخناتون ثم أطلق سراحه.

استمر الخابيرو بالضغط على أتباع الفرعون فقتلوا ابني ميلكيلو وضربوا ممتلكات شوارداتا ووقفت مدن جيزر وعسقلان ولجيش الى جانب الخابيرو. (2) وأحياناً كثيرة كانت الأوراق تختلط نتيجة تغيير المواقف بسبب الظروف المحيطة، الى درجة أن بعض الحكام كانوا يتعاونون مع الخابيرو. فقد استأجر ميلكيلو وشوارداتا رجالاً من جيزر وجات وكلح وهاجما أرض مدينة (رباح) Rabbah فسقطت بيد الخابيرو بل إن أهالي كلح احتلوا مدينة بيت لحم التابعة لمنطقة القدس، فإذا لم يرسل الملك جنوده، فستسقط البلاد كلها بيد الخابيرو. (3)

كتب عبدي – عشرتا إحدى رسائله الى فرعون من بلدة Irkatالفينيقية التي كان قد فتحها ولكن عاصمته كانت في منطقة العاصي العليا، وكان

يخادع كلاً من المصريين والحثيين لكي يتوسع في المنطقة، فبينما كان يدعي الولاء لمصر يتظاهر بالتعاون مع الحثيين. وضمن هذه السياسة استطاع السيطرة على المدن الواحدة بعد الأخرى على الساحل وفي الداخل. كما احتل ابنه (عزيرو) قطنة وحماه ومنطقة دمشق ثم استولى على دمشق نفسها، واستولى على ارواد وشيغاتا Shigata وأمبي Ambi والبترون وغيرها من مدن الساحل.

لقد غدت الخلافات بين الأمراء جزءاً من حالة التداعي أو هي نتاج للنظام العام الآيل للسقوط وكانت رسائل العمارنة الصورة الأنصع عن حالة الواقع، فرسائل لبعايو أمير شكيم وابنه ورسائل عبدي – خيبا أمير أورشليم وبريدا أمير مجدو الذي ذكر في الرسالة 244 أنه محاصر من لبعايو.

كان عبدي – خيبا في نزاع بادئ الأمر مع ميلكيلو أمير جيزر، حيث اتهم كلاً من ميلكيلو وايليملكو Ilimilku في الرسالة 286 أنهما تخاذلا وتسببا في إضاعة أرض الملك. كما اتهم عبدي – خيبا ميلكيلو وحماه تاجو أمير جات في الرسالتين 287، 289 أنهما احتلا روبوتا Rubuta التي كانت تابعة لأورشليم، وفي الرسالة 290 أضاف عبدي خيبا شوارداتا أمير حبرون الى ميلكيلو – تاجو كمغتصبين لمدينة روبوتا وفي نفس الرسالة يذكر أن مدينة بيت لحم اغتصبت من قبل كلح، وظهرت مدينة كلح في رسالتين من شوارداتا إحداهما تحمل رقم 279 يتهم فيها عبدي – خيبا بأنه يحاصر المدينة وفي 280 يعلم الفرعون أن كلح قد احتلت (1)!

إن دراسة رسائل العمارنة دراسة موضوعية ووضعها في الإطار العام للحضارة الشائعة تلك الفترة وتأثيراتها سواء المصرية أو حضارة وادي الرافدين أو بلاد الشام وبالأستئناس مع ما ورد في التوراة فإننا سنحصل على علامة ضوء واضحة تبين كنه وطبيعة الموسويين. فالسلطة المصرية تحكمت بقبضة حديدية على بلاد الشام زمن أحموس الذي طرد الهكسوس من مصر والفراعنة الذين أعقبوه وحذوا حذوه، إلا أن القبضة الحديدية أصابها الصدأ مع مرور الزمن وتعدد نوازع وشخصيات الفراعنة لكن هذه الحالة استغرقت مدة طويلة ليست أقل من 1573 أي منذ طرد الهكسوس الى 650 ق.م. حيث بدأت الدولة البابلية امتداداتها في بلاد الشام. وظل الطابع العام هو السيطرة المصرية على كنعان (وباعتراف الحثيين والبابليين أيضاً). أما الفترة التي حكم فيها امنحوتب الثالث 1427 – 1392 وامنحوتب الرابع (اخناتون) 1392 – 1376 ق.م. وسيتي الأول 1351 – 1324 ق.م. ورعمسيس الثاني 1324 – 1258 ق.م. ومرنفتاح 1258 – 1238 ق.م. فهي من أكثر الفترات سطوة وسيطرة عسكرية وهذه الفترة نفسها هي التي يعتقد فيها بدخول الموسويين الى فلسطين حيث أن معظم الباحثين يعتبرون الخروج قد تم في القرن الثالث عشر ق.م. أي في الفترة نفسها المحصور بين (امنحوتب الثالث ومرنفتاح)، ومع هذا الواقع تكون الاستحالة مطلقة أن يكون هؤلاء القوم (الموسويون) مناوئين لمصر أو

معادين لها، فهم تحت رحمتها وفي "بيتها". فإذا عدنا الى التوراة (خروج 37:12) حيث تذكر أن الذين خرجوا مع موسى 600.000 من الرجال عدا الأولاد وضمن الظروف الآنفة الذكر أي هروب من وجه الفرعون بل ومطاردتهم!! جاز لنا التساؤل أين اختفوا وأين سكنوا!!! وإذا كان عدواً بهذه الضخامة فهل يعقل ألا تدون الحروب معهم، والفراعنة دونوا حروبهم أحياناً مع عشرات من الأفراد على أطراف بلادهم؟!

الرأي الأرجح المبني على الحقائق المادية أن هؤلاء الموسويين فصيل من الجيش المصري لهم دور خاص هو الاستيطان لقمع حركات التمرد دائمة الوقوع في بلاد الشام بدلائل:

أولاً:
تشير اللقى والآثار المكتشفة في بيسان وجيزر ولجيش وتعنك وأورشليم وشكيم الى وجود مصري قوي في هذه الفترة. ولو كان الفرعون ممن يطلب رؤوسهم لسهل عليه ذلك. ولو كانوا هم المسيطرون لظهرت آثارهم أو مخلفاتهم على الأقل.

ثانياً:
يذكر التاريخ – المصري وغير المصري – بوجود عداء كبير بين الفلسطينيين والفراعنة وعداء بين الحين والآخر بين الأدوميين والفراعنة، وهذان الشعبان عاصرا وتحاربا مع الموسويين فلماذا تذكر المراجع الفلسطينيين والأدوميين ولا تذكر الموسويين أو العبريين أو الإسرائيليين!!

ثالثاً:
إن المدن التي تذكرها رسائل العمارنة على أنها (خابيرو) أو تقدّم المساعدات للخابيرو هي التي تذكر التوراة أن الموسويين أو (الإسرائيليين) قد خربوها مثل: جيرز، تعنك، لجيش، والقدس وشكيم، عاي. أما المدن التي تقول التوراة أن الموسويين قد دمروها ولم يأت ذكر لها في رسائل العمارنة، فيبدو أنها كانت خابيرو جماهيرياً وحكاماً، لذا لم يرسل هؤلاء بالرسائل الى الفرعون. وقد استهدفت هذه المدن أيضاً ومنها: أريحا وجدعون، دبير.

ومن المظاهر الهامة لحركة الخابير أنهم من سكان الجبال والتلال التي من صفاتها المنعة وصعوبة الاقتحام على الأعداء وقد أشار الى ذلك عبدي – خيبا في إحدى رسائله (1).

ذكرت مدينة لجيش خمسة مرات في رسائل العمارنة وقد أرسلت من قبل ايابنيلو Iabniilu وزمريدي Zimiridid اللذان وقعا باسم (رجل لجيش). ويشير زمريدي برسالة أخرى: (2)

1- أعطت لجيش وجيزر وعسقلان الطعام والزيت وقدمت باقيق المساعدات للخابيرو.

2- عبيد زمريدي تآمروا مع الخابيرو.

3- يستنتج من الرسالة أن الفرعون شك بتآمر زمريدي مع سبيتي – بعليو Spiti – Balu ضد مصر.

يبدو أن هذه المدن كانت متفقة في سياستها، وقد امتدت من البحر في عسقلان الى التلال القريبة من الخليل وشمال شرق القدس وكانت جيزر تقف حارساً على الطريق المؤدي الى مصر. (1)

يذكر عبدي – خيبا في رسالة آخرى سقوط زمريدي لجيش، وبهذه الرسالة أسدل الستار على مدينة لجيش (تل الدوير) التي يبدو أنها أصبحت بيد الخابيرو، وبدأت تخضع مدناً أخرى لصالحهم.

حاول الباحث (مكاليستر R.A.S. Nacalister) عقد مقارنة بين أسماء المدن والملوك في كل من رسالئ العمارنة وسفر يشوع، حيث وجد تطابق أسماء المدن واختلاف أسماء الملوك مما يشير الى:

1- أن الأسفار بما فيها يوشع كتبت بعد هذا التاريخ بفترة طويلة، فاقتضى تذكر أسماء أو اختلاقها مما أوقع السفر في الأخطاء.

2- قد يكون كتّاب التوراة قد حصلوا على معلوماتهم من الوثائق البابلية، أي بعد مرحلة طويلة من انتهاء هذه الأحداث وخلالها قد حدثت متغيرات كثيرة لم يستوعبها هؤلاء الكتاب.

3- إن عدم ذكر الخابيرو في الأسفار كافة يؤكد أن التوراة كتبت متأخرة حيث قل استعمال المفردة في الأدبيات المتأخرة وانعدمت كلياً في التراث البابلي والأشوري في فترة كتابة التوراة. وقد ساعد في ذلك أن اللفظة لم تكن شائعة في التراث المصري. والتعميم جاء فقط من ملوك المدن التابعين للفرعون.

زاد الأمر تعقيداً الاكتشافات التي تمت في Baghaz – Koi في منطقة خاتوشاش Khattushash عاصمة الامبراطورية الحثية والتي تشير الى نشاط الخابيرو في المنطقة تماماً مثل نشاطهم في فلسطين (2). فكيف سيكون الخابيرو (العبيرو) هم العبريون – عند الباحثين – والعبريون "الإسرائيليون" لم يصلوا أبعد من جنوب دمشق في عصرهم الذهبي (داود وسليمان) بدليل الكتاب المقدّس"؟!

Samuel A. B. Mercer, The Tell El – Amarana Tavlets Vol 2 No 286 P. 706 – 708 (1)

Ibid Vol 2 No 289 P.P. 718 – 720 (2)

Ibid Vol 2 No 290 P. P. 720 – 722 (1)

Ibid Vol 2 No 148 (2)

Michael. W. Several P. E Q July – Dec 1972 (3)

Ibid (4)

Ibid. (5)

Ibid. (6)

Michael W. Several, P. E. Q July – Dec 1972 (1)

Edward F. Campbell The Biblical Archaeologist Vol 23 No. 1 (2)

G. A. F. Knight Nile And Jordan P. 217 (1)

Ibid (2)

A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria 1931 P. 187 (1)

Ibid. P. 189 (2)

Ibid. (3)

Michael W. Several P. E. Q. July – Dec 1972 – P 123 (1)

Michael W. Several P.E.Q July-Dec 1972 (1)

Olya Tufnell And Otheres, LAGGISH Vol II 1940 P. 26 (2)

Ibid. (1)

Oly Tufnell And Others, LACHISH Vol II 1940 (2)

الفصل الثالث

مقدمة

تشير التنقيبات التي شملت كل فلسطين والمناطق المحيطة بها الى وجود المصريين كحكام على فلسطين منذ القرن الخامس عشر ق.م. وحتى السادس ق.م.، باستثناءات سيطر فيها الآشوريون أو البابليون. وفي خضم الحقائق الآثارية الصارخة التي بدأت بقلب مفاهيم التاريخ، كان لزاماً على المنهج الصهيوني – اليهودي بذل الجهد والمال وتجنيد الباحثين من أطراف الأرض الأربعة، لإيجاد الدليل، ولو كان واهياً، لتأكيد معطيات التوراة وإطروحاتها الفكرية. وقد نقب الأثاريون ومنهم منتسبو دائرة الآثار الإسرائيلية الرسميون في كل مكان ورد اسمه بالتوراة. . ومن أهم المواقع التي نقب فيها وعلى فترات ومن قبل بعثات مختلفة: عكا، العفولة، عرار، تل الشيخ أحمد، أشدود، عسقلان، بيت جبرين، بيسان، بيت شفاريم، العبيدية، تل الدوير، جنين، نابلس، القدس، تل العجول، تل علي، تل رأس العين، تل الأساور، عتليت، بئر السبع، تل بيت مرسيم، بتل، بيت لحم، بيت شمس، كهوف الكرمل، دير البلح، غزة، صفد، البحر الميت (1). . وغيرها. ورغم الجهود الكبيرة التي بذلت لم يعثر على شيء يساعد الحركة الصهيونية في أطروحاتها. بل إن ما وجد يؤكد بطلان ما جاءت به التوراة ويوجب قراءة التاريخ قراءة جديدة وموضوعية.

ففي بيسان كما سميت بالعهود العربية وسميت سيتوبوليس Scythopolis في العقود الهلنستية والرمانية والبيزنطية، وهي التي عرفت في العهود القديمة باسم بيت شان (أي بيت الإله شان الكنعاني)، جرت تنقيبات عديدة، وأهم ما اكتشف مجموعة لقى مصرية تحمل اسم تحتمس الثالث وقد أعاد بعض الباحثين هذه اللقى الى امنحوتب الثالث والرابع. لكن الباحث W. F. Albright ارجعها الى رعمسيس الثاني بينما أعادها B. Mazar الى عهد مرنفتاح (1)ز كان هذا دليلاً أيضاً يضاف اليه دليل رسائل العمارنة التي تؤكد صلتها بكل من امنحوتب الثالث والرابع.

دخلت بلاد الشام كلها في الإمبراطورية المصرية منذ عهد أحموس من السلالة الثامنة عشرة، وكان أحموس قد طرد الهكسوس ولحق بهم الى سوريا موطنهم الأصلي. لكن السيادة المصرية على بلاد الشام لم تتوطد بشكل كامل إلا بعد قيام تحتمس الثالث (1490 – 1436 ق.م.) بست عشرة حملة حربية، وتتصف الحملة الأولى وهي أهمها بسقوط (مجدو) في 1468 ق.م. حيث واجه الجيش المصري تحالف 350 أميراً معظمهم من الأموريين. لكن بفعل حركات الخابيرو وقبل وفاة امنحوتب الرابع (اخناتون)

خرجت فلسطين عن طاعة مصر (2) وظلت حرة حتى السنة الأولى من حكم سيتي الأول (1317 – 1301 ق.م.) من السلالة التاسعة عشرة. وأظهر رعمسيس الثاني من السلالة نفسها جانباً من الروح الحربية، حتى وصلت حملاته الى بيروت وعلى بعد بضعة أميال شمال هذه المدينة عند مصب نهر الكلب نقش كتابات في الصخر الكلسي.

كما عثر على عدد من القبور المصرية المنحوتة في بيسان (بيت شان) وعمان (ربة عمون). ويرجع تاريخ القبور في بيت شان الى ما قبل القرن الثالث عشر ق.م. أما القبور في عمان فتعود الى 900 ق.م. (3).

أما في (نهاريا) في الجليل فقد وجدت مجموعة من اللقى الحيوانية والطيور والجرار على النمط المصري وتعود الى القرن الخامس عشر ق.م. وبين تل أبيب ويافا عثر على آثار تعود الى الهكسوس وأخرى تعود الى عهد رعمسيس الثاني. ومعظمها من القطع الذهبية والفضية (1). وأثناء التنقيب في السامرة وفي المكان المسمى تل سبسطيا تم العثور على زجاجيات وفخاريات مصرية ومكتوبة عليها بالهيروغليفية (2). كما اكتشف S. Fisher مسلة سيتي الأولى في تل الحصن قرب بيسان حيث يقرأ في السطر العاشر كلمة عبيرو وقد كتبت المسلة بالهيروغليفية (3) أيضاً.

وجد الباحث والآثاري دونكان J. Garrow Duncan في تعنك (قرب جنين) لقى تعود الى الفترة من 2000 –1300 ق.م. وهو عصر ما قبل الموسويين فالأسوار أمورية والبناء يعود الى تحتمس الثالث. كما عثر في تل زكريا (سكوه في التوراة صموئيل الأول 1:17) على لقى فخارية وبعض الآثار المصرية. (4)

وهناك أحداث تاريخية جرت في فترة لاحقة على دخول المجموعات المصرية المنسوبين الى موسى، وتذكرها التوراة تؤكد أنهم مصريون:

أ:
زواج سليمان من ابنة فرعون، واحتلال جيزر – من قبل الفرعون – وتقديمها هدية الزواج لسليمان. فمن المعروف أن جيزر كانت تشكّل ثقلاً مهماً في عمليات التمرد على سلطة الفرعون وأعوانه وخاصة في مرحلة الخابيرو، لذاا جرى إخضاعها بقوة مباشرة من الفرعون وقدمت هدية لسليمان. وإذا كان سليمان قد تزوج ابنة الفرعون كما جاء في (الملوك الأولى 1:3) فإن ذلك يؤكد أن سليمان هذا مصري. فالأعراف المصرية لا تسمح بزواج بنات الفراعنة من غرباء، وليس من دليل أو إشارة في اللوائح المصرية تدل على أن أياً من الفراعنة قد تزوج ابنته من غير الوسط المصري الحاكم. (1) أما الفراعنة فقد تزوجوا من غير المصريات. والدلائل الآثارية كثيرة على ذلك. وحتى خبر زواج Nikmad ملك أوغاريت من إحدى الأميرات المصريات، عليه ما يدل أن الزوجة كانت من الحريم أو الإماء. كذلك تؤكد رسائل العمارنة أن

الملك البابلي kadashmanbharbe حاول الزواج من ابنة اخناتون لكن الأخير رفض، بل إن الملك المصري Anasis رفض إعطاء ابنته الى Cambyses ملك فارس (2). وعليه لم نقرأ زواج أي أجنبي من مصرية. فهل نعتبر خبر زواج سليمان الوارد في التوراة زواج أجنبي من مصرية على خلاف العادات والتقاليد. أم هو إذا صح زواج مصري مصري !!

ب:
قصة هود الأدومي الذي فر من وجه داود الى مصر (كما تقول التوراة) ليست أكثر من خلافات بين الحكام التابعين لمصر في فلسطين وعموم بلاد الشام، فمعظم هؤلاء الأمراء رغم عداواتهم فيما بينهم عملاء للفرعون.

احتل مرنفتاح (1258 – 1238 ق.م.) عسقلان ودمر جيزر كما تشير الى ذلك المسلة التي اكتشفها بتريبه في طيبة عام 1896 وعملية التدمير التي أحدثها فعل الاحتلال أوجد حالة تشرد لسكان هذه المدن وهذا ما يشير اليه الأثر وقد لا يشار اليها بهذا اللفظ "التشرد" لو أن المقصود هم الموسويون كما يقول بعض الباحثين، فلو كانوا هم المقصودون بلفظ المطاردون أو المنبوذون سيراً على الأسلوب المصري.

كان الفرعون حير – حيرو Her – Heru (1102 – 1086 ق.م.) كاهناً أطلق على نفسه اسم مُس آمون، أي ابن الإله أمون. وقد أبحر الى فلسطين – وهي فترة وجود الموسويين في فلسطين – ووصل الى الساحل الكنعاني باعتبار أرض كنعان إقطاعية تابعة للمملكة المصرية (1). ثم وصل الى بيبلوس (جبيل) وهناك قابل ملكها زاكر – بعل.

دليل آخر على مصرية "الموسويين" هو النظام العسكري الذي اتبعه داود، فقد طبق النظام العسكري المصري، فكان جيشه مقسماً الى ثلاث وحدات كل وحدة 200 شخص، وعلى رأس كل 20 رجلاً ضابطاً. ووضع ثلاثين قائداً للجميع وهذا النظام عرف بالثالث، حيث كل مجموعة مكونة من 200 شخص وعشرة ضباط يقودهم (كولونيل) والجنرال يقود ثلاث وحدات يقودها ثلاث كولونيلات. وبذلك تشكل 634 رجلاً، وهو نفس النظام المتبع في مصر تلك الفترة (2).

والتعداد السكاني الذي قام به داود (صموئيل الثاني 1:24 – 9) كان على نفس الأسس التي طبقها المصريون. كذلك نظام فرض الضرائب كان عند داود مصري الطابع. (3)

وقف رعمسيس الثاني على نهر الكلب قرب بيروت، وهناك كتب على صخرة الفتوحات التي قام بها، وقد غدت هذه الصخرة ذكرى للأشوريين والكلدانيين واليونان والرومان والعرب والأتراك والفرنسيين والإنجليز. وفي

عـام 1288 ق.م. كلـف رعمـسيس قائـده سـيلو Sillu بالـذهاب علـى رأس اثنـي عـشر ألـف رجـل لحـصار فـارس. وبعـد فتـرة وجيـزة عقـد صـلح بـين رعمـسيس وحتوشـيلش Hattushilish ملـك الحثيـين. لكـن خـلال النـصف الثاني مـن حكـم رعمـسيس الثـاني (1292 – 1225 ق.م.) أصـبحت كنعـان مرة ثانية حرة. ولما جـاء ابنـه مرنفتـاح (1225 – 1215 ق.م.) كانـت منـاطق شـمال سـوريا تنعم بالهدوء بينما أعمال الاضطرابات تتفاقم في كنعـان. فـإذا أخذنا بالاعتبار أن الخروج – التـوراتي – عنـد معظـم البـاحثين قـد وقـع فـي زمن مرنفتاح أو والده رعمسيس الثاني تكـون الـصورة واضـحة أن القـادمين قد أرسـلوا لضبط المنطقة لصالح مصر بالاسـتيطان فيها بـدل إرسـال القـوات لضبط النظام كلما انفجرت الأوضاع.

ومن الأمور المدهشة التي ظهرت في القرن العشرين اكتشاف آثـار مدينـة في شـمال سـوريا اسـمها يهوذا (يهوذا الثانية) (1) مما يؤكد تداخل كثير من الأحداث. فنظراً لموقع يهوذا الثانية، شـمال سـوريا،فقد أخذت جانب الخابيرو الأمر الذي دعا الفراعنة الى إخـضاعها وأسـر حكامهـا، فـإذا مـا ورد اسـمها في الآثار المصرية وربما العراقية ظنه الباحثون يهوذا (منطقة القدس).

لقد كانت السيطرة المصرية على بلاد الشام تشمل جميع مناحي الحيـاة، العسكرية والاقتصادية والعلميـة، بـل إن كثيـراً مـن أهـل مـصر نمـت لـديهم عقدة التفوق بينما في المقابل ظهرت عقدة الدونية عنـد الحكـام التـابعين، وهناك قـصة مـصرية تبـين بوضـوح هـذه المـشاعر تـروى علـى لـسان أميـر سـوري قالها لسـفير جاءه من أرض النيـل: "الإلـه آمـون أسـس الكـون كلـه، لكنه أقام في البدء أرض مصر التي قدمت منها. فمهارة الصنع خرجت منهـا لتبلغ هذا المكان حيث أنا والعلم خرج منها ليبلغ هذا المكان حيث أنا" (2).

---

(1) Michael Av – Yonah, Encyclopedia Of Archaeological Excavation in The Holy Land Vol 1 P. 326

(1) Ibid. P. 213

(2) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص 144

(3) Herbert G. Mary, Culture And Conscience P. 144 – 145

(1) Sh. Yeivin, A Decade Of Archaeology In Israel 1948 – 1958

(2) Herbert G. Mary, Culture And Cinscience P. 196

(3) W. F. Albright, B.A.S.O.R Number 125 February 1952

(4) J. Garrow Duncan in Digging Up Biblical History Vol 1 P. 181

(1) A. Malamat, Biblical Archaeologist Vol 21 No 4 1958 P. 96 – 102

(2) Ibid.

(1) G. A.F. Knight, Nile and Jordan P. 243 – 244

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(1) Ibid.

(2) جون أ. ولسون قبل الفلسفة ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص 47.

ملخص تاريخ الأسرات التي حكمت مصر

أرى أنها لا تخلو من فائدة عملية تلخيص مقتضب جداً للأسر التي حكمت مصر، في نوع من القاء الضوء لتداخلها مع موضوعنا وتكرار ورود أسماء الفراعنة وأسرهم.

أولاً:
عصور ما قبل التاريخ: وهي العصور التي تضم الجزء الأعظمو من تاريخ الإنسان على وجه الأرض، منذ أول ظهور الإنسان قبل عشرات الألوف من السنين وحتى بدء استخدام الكتابة وسيلة للتدوين، أواخر الألف الرابع ق.م.

ثانياً:
بداية الأسرات: يضم هذا العصر عهد الأسرتين الأولى والثانية وهناك من يضع الأسرة الثالثة ضمن هذا العصر وكان قيام الأسرة الأولى في مصر في مطلع العصور التاريخية عندما تمكن (منا) من توحيد مملكة مصر العليا ومملكة مصر السفلى. كما أسس مدينة ممفيس واختار موقعها وسطاً بين مصر العليا ومصر السفلى.

ثالثاً:
عصر الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة وتقع فترة حكمها بين عامي 2780 – 2270 ق.م. وقد أطلق العلماء: على هذا العصر "عصر

الأهـرام" فـإلى هـذا العهـد تعـود الأهرامـات الكبـرى وكثيـر مـن المعابـد والمسلات والتماثيل. وقد عرف لقب فرعون في عهد الأسرة الرابعة، وكان يطلق للدلالة على القصر الذي يسكنه الملك ويعني حرفياً "البيت الكبير". ونظـراً لتحاشـي المـصريين ذكـر اسـم الملـك لقدسـيته وعظمتـه، كـانوا يشيرون الى القـصر ويقـصدون الملـك نفـسه. ولـم يـستخدم لقـب فرعـون للدلالة على الملك نفسه رسمياً إلا في عهد الأسرة الثامنة عشرة. وكـان زوسر أشهر ملوك الأسرة الثالثـة وبـاني هـرم سـقاره المـدرج. ومـن ملـوك الأسرة الرابعة خوفـو والملـك خفـرع والملـك منكـو – رع الـذي تنـسب اليـه أهرامات الجيزة. منذ أواسط الأسرة الخامسة بدأ يـدب الـضعف فـي جـسم الدولة.

رابعاً:
عصر اللامركزية الأول: دخلت مصر منذ أوائل عـصر الأسـرة الـسادسة فتـرة مـن الاضـطراب والارتبـاك الـسياسـي العـام مزقـت وحـدتها الـسياسية بعـد نهاية الأسرة السادسة، فاستقل الحكـام والأمـراء، ودامـت فتـرة الانقـسام هذه ما يقـرب مـن 170 سـنة حكمـت خلالهـا أربـع سـلالات (2270 – 2100 ق.م.).

خامساً:
الدولة الوسطى: تمكنت طيبة في حدود 2100 ق.م. مـن الـسيطرة علـى البلاد وأعادت وحدتها وأقامت سلالة جديـدة هـي الحاديـة عـشرة واسـتمر عهدها الى 1788 ق.م. وقـد تركـت هـذه الفتـرة آثـاراً ضـخمة منهـا المعابـد الشهيرة بالإله آمـون فـي الكرنـك ومعابـد الإلـه (رع) فـي مدينـة الـشمس هليوبوليس. كما انفتحت مصر في هذه الفترة ولا سيما فـي عهـد الأسـرة الثانية عشرة على الخارج واتصلت ببلدان الشرق الأدنى القديم. وقد عـرف ملوك الأسرة الثانية عشر بأحد اسمين: امنمحت أو سنوسرت.

سادساً:
عـصر اللامركزيـة الثـاني: انتهـت الأسـرة الثانيـة عـشرة عـام 1788 ق.م. وانتقلت مقاليد الحكم الى الأسرة الثالثـة عـشر حيـث ظهـرت الاضـطرابات والفوضى، فتعرّضت مصر للأخطار، غير أن الخطر الأكبر جاء من الخارج ومـن وراء الحـدود الـشرقية والـشمالية الـشرقية. حيـث دخلـت الـبلاد أقـوام واستلمت مقاليد الحكم في مصر السفلى وقد عرفـت هـذه الأقـوام باسـم الهكسوس، وابتنى الهكسوس لهم عاصمة جديدة في الدلتا عرفت باسـم افاريس واستمروا بحكم مـصر حتـى عـام 1573 ق.م. تقريبـاً. ولـم يـستطع الهكسوس السيطرة على جميع أرض مصر، وظلّـت طيبـة فـي مـصر العليـا تتمتع بشـيء من الاستقلال الى أن قامت فـي طيبـة سـلالة جديـدة هـي الأسرة الثامنة عشرة وعلى رأسها أحموس.

سابعاً:

الدولة الحديثة: تعتبر بداية الأسرة الثامنة عشرة في حدود 1575 ق.م. بداية عهد جديد في مصر استغرق أكثر من ستة قرون وانتهى بحدود 950 أو 940 ق.م. وحكمت فيه أربع سلالات متعاقبة هي الثامنة عشرة، التاسعة عشرة، العشرون والواحد والعشرون.

ثامناً:
العصور المتأخرة: بدأت هذه العصور منذ أواسط القرن العاشر ق.م. وتذبذب خلالها النشاط المصري بين مد وجزر الى أن ابتدأت مقاليد الحضارة والسيادة تنتقل منها الى غيرها، ثم انتهت بانتهاء مظاهر الحكم الفرعوني في عصر الأسرة الثلاثين مع الاحتلال الفارسي وفتح الاسكندر المقدوني لمصر وغيرها من أقطار الشرق في أواخر القرن الرابع ق.م.

وقد بدأت التفسخ في جسم الدولة الحديثة منذ عهد الأسرة الواحدة والعشرين وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين وسيطر الليبيون على زمام الحكم وأقاموا أسرة جديدة وفي عهد الأسرة الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين سيطر الأحباش على الحكم وقد صادف خلال هذه الفترة تعاظم قوة الأشوريين وتهديدها لمصالح مصر التجارية بالسيطرة على الساحة السورية، مما دفع مصر الى إسناد الدويلات في بلاد الشام ضد النفوذ الأشوري، وكان من نتائج ذلك أن قام الأشوريون بقيادة اسرحدون في مطلع القرن السابع ق.م. وأعقبه أشور بانيبال الذي وصل بجيوشه حتى مدينة طيبة، وبعد انسحاب الأشوريين من مصر أصبحت مصر حليفة الدولة الأشورية، حتى أنها بعثت بجيشها لمعاونة الأشوريين أثناء حصار نينوى لكنها سقطت على يد الجيوش البابلية والميدية قبل وصول الجيش المصري، أي أن ذلك جاء متأخراً الأمر الذي فجّر العداء بين مصر والدولة البابلية الجديدة. وظلت مصر تحرض الدويلات السورية ضد النفوذ البابلي، مما دفع نبوخذ نصر الى القيام بهجوم على هذه الدويلات ومنها يهوذا.

وعندما ظهرت الدولة الأخمينية وقعت مصر تحت سلطتها، ثم وقعت تحت حكم الإسكندر وبعد موته أصبحت مصر من حصة بطليموس.

الخروج الموسوي

القول أن (الإسرائيليين) هم جماعة من الهكسوس، هو مجرد رأي تبناه بعض الباحثين التوراتيين دون أدلة يعتمدونها في استنتاجهم سوى التوراة التي تعتمد على الأسطورة بشكل كبير وواسع. بل إنه أصبح في حكم المؤكد أن هذه الأساطير مستقاة من أداب وتراث الآخرين سواء في بلاد الرافدين أو مصر أو بلاد الشام. فالأخذ بآراء مثل هؤلاء الباحثين دون روية وتمحيص هو تسليم "بظلامية التاريخ" ودكتاتورية الأفكار الغيبية التي تطمس في كثير من الأحيان الحقائق وتثقل العقل بالنقل أو تلغيه تماماً

وتجعله عاجزاً عن تفسير ديناميكية الأشياء. فالتناقض في تسلسل ووجود كثير من الشخوص التوراتية جعل الكثيرين يتخبطون في مغالطات وتفسيرات للأحداث تخرجهم عن سماتهم العلمية وتزج بهم في أتون التبرير اللامنطقي وتجعلهم يدورون حول الحقيقة كي لا تبهرهم أنوارها وإشعاعها الخلاّق أو يغطون أبصارهم وراء تسعة وثلاثين سفراً من "الكتاب المقدس" حتى لا يرون أمامهم إلا الوهم بل والشطط في الوهم والخداع.

فلو كان "الإسرائيليون" من الهكسوس وقد تبوأ أحدهم مركزاً مرموقاً لكانوا أول من طرد من مصر عام 1575 ق.م. على يد أحموس. لكن أن يظلوا – دون مبرر أو منطق مائتي سنة بعد ذلك ليخرجوا مع موسى فهو ما تعجز التوراة عن تفسيره. وإذا كان لهم وجود فعلي في مصر، كشعب متميز، فلماذا تعتم التوراة على وجودهم مدة 430 سنة (منذ موت يوسف وحتى خروجهم مع موسى) فالتوراة تخلو من أية إشارة اليهم.

إن حدثاً، كالخروج، ضخّمه كتاب التوراة الى درجة أدخل في عالم الأسطورة والخيال، هذه الرواية الضخمة بأحداثها ومعاركها ونتائجها لم يذكرها أحد إلا كتاب التوراة، فلا أثر يشهد على ذلك ولا لوح ولا حجر ولا حوليات ولا ورق بردى "فحتى الألواح التي نقشها الله لهم (خروج 12:24) لم يرها أحد، والموسويون كما تصفهم التوراة يعرفون النقش على الحجر والمعدن (خروج 9:28 – 13) فإذا أخذوا آلهة الغير وأساطيرهم وآدابهم وفنونهم فكيف لم يقلدوا الآخرين في الكتابة والرسم؟

إذا أردنا دراسة السومريين وتاريخهم (الألف الرابع ق.م.) فأمامنا مدن شاخصة ولغة لها عمق حضاري بعيد الأغوار. والحال نفسه بالنسبة (للأكديين الألف الثالث ق.م.). وماري عاصمة الأموريين (1800 ق.م.) سجّلت جزءاً من تاريخ البشرية بأكثر من 20.000 رقيم والدولة البابلية الأشورية شاخصة أمام حتى فاقدي البصر والبصيرة. وحتى دويلات المدن في بلاد الشام بدءاً من حدود آسيا الصغرى شمالاً وحتى الحدود المصرية جنوباً تغني الدارس كلما زاد الجهد وتضافرت الجهود، فهناك في حلب، كركميش، وما حولهما ما يؤكد تاريخ الحثيين والأموريين والأراميين، وفي صور وصيدا وبيبلوس وبيروت ودمشق آثار كنعانية وآرامية، وفي القدس وبلاطة وجنين وغزة وتل الدوير آثار مادية توشر الوجود الكنعاني والهكسوسي والفلسطيني فأين الآثار "الإسرائيلية"؟!! في عمان "ربة عمون" وبيسان وجود على مدار التاريخ فأين هم العبريون؟!! هذه البتراء عاصمة الأنباط وحتى سرابيط الخادم وسط صحراء سيناء نحت ونقش له مدلولاته الحضارية. فماذا قدّم الموسويون؟!

لقد ظنت التوراة حتى في ذكر اسم فرعون الخروج. . ألم يكن ذكره ذا أهمية؟! فلماذا ذكر شيشق أو نخو وهما وليسا بأهمية فرعون الخروج – بالنسبة للموسويين ألا يحتمل أن إخفاء اسمه لعدم وجود الحدث ذاته فعلاً

كما تورده التوراة في الأقل؟ لقد تخبط الباحثون التوراتيون في تحديد هذا التاريخ – تاريخ الخروج – فمنهم من أرجعه الى امنحوتب الثالث أو الرابع ومنهم من نسبه الى سيتي الأول وآخرون الى رعمسيس الثاني وغيرهم الى مرنفتاح أو حتى رعمسيس الثاني عشر. .. والمرجح أن الأمر لن يطرأ عليه تغير طالما أن الباحثين يسعون لإثبات علمية الأسطورة ووضع جغرافيا وتاريخ لها.

لقد غالط الباحثون الواقع حينما حاولوا إيجاد موطئ قدم "للإسرائيليين" في التاريخ عندما زاوجوا بين كلمة عابيرو أو خابير أو أبيرو الواردة في النصوص القديمة وبين "عبريين" الواردة في التوراة. فالعبيرو لهم ذكر في اللوائح الآثارية منذ 2100 ق.م. وما قبلها أي حتى قبل وجود ابراهيم – كما تدعيه التوراة – كما ذكروا في ألواح وجدت في مناطق لم تذكرها التوراة في مجال أساطيرها كآسيا الصغرى (تركيا). والعبيرو كانوا ثواراً من (الأموريين) على ظلم الفراعنة، بينما كل الدلائل تؤكد أن الموسويين فراعنة في الهوى والسياسة إن لم يكونوا جنوداً للفراعنة فعلاً.

إن الحبكة الروائية لقصة الخروج ينقصها الكثير من إعمال العقل. فموسى "سليل المضطهدين" وحتى لو تربى في القصر الفرعوني – كما تدعي التوراة – يظل خارج الأطر الفرعونية وقوانينها، وشخص هذه سماته لن يسمح له الدخول على فرعون أو مخاطبته مرات ومرات (خروج 11:6). فإذا تم دخوله على الفرعون فهذا يؤكد صلته المباشرة بالفرعون والتي ترتبط بخطين: إما أن يكون من أرباء الفرعون أو متزوج بإبنة الفرعون فإذا لم يكن موسى واحد من الإثنين وجب إيجاد تفسير لما ذكرته التوراة عن دخوله وخروجه على الفرعون لعدة مرات.

تزوج موسى من ابنة رعوئيل (يثرون) كاهن مدين (خروج 21:2 – 23) وتذكر التوراة أنه تزوج أيضاً من تربيس بنت ملك الحبشة (العدد 1:12). وبعد موت موسى لم تشر التوراة الى نسله بينما أعطت لأبناء هارون دوراً مهماً كرجال كهنة، والتوراة وإن رسمت خيوط قصة زواجه بالمديانية فإنها تعتم تماماً على موضوع زواجه من الحبشية. فالتساؤل يظل مطروحاً كيف تزوج بنت ملك الحبشة، وهي بالتأكيد ليست امرأة عادية يلتقيها على قارعة الطريق أو على بئر ماء، وزواجه منها – وهو سليل المضطهدين – يثير احتمالات أن التوراة لم تورد الخبر صادقاً . . لكن هل من المعقول "عدم صدق الكتاب المقدس"؟ إذن لا بد من وجود وسيلة ليخطب الفتاة ويتزوجها عنوة، وهذا ما دفع ببعض المؤرخين الى ترجيح فكرة وجود قائد عسكري فرعوني يدخل اسم موسى في تركيب اسمه قهر بلاد الأحباش وتزوج ابنة ملكها . . وربما يكون هذا القائد هو موسى نفسه وبالتالي فهو فرعوني وليس له علاقة "بالإسرائيليين" وورود اسمه في التوراة نتيجة التلفيق والتزوير. وتظل معها الشكوك تحوم حول شخصية موسى هل هو مصري – فرعوني أم "إسرائيلي" هرب بقومه من ظلم وجبروت الفرعون؟!

والتوراة لم تعط إجابة قاطعة، فتصفه حيناً بالمصري كما جاء على لسان ابنة يثرون المدياني حيث قالت: في إشارة الى موسى: "رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة" (خروج 19:2)، ولم تذكر التوراة اسم والد ووالدة موسى وجل ما ذكرته أن الوالد والوادة من بيت لاوي (خروج 1:2). بل إن اسم موسى تلفه ظلال كثيفة من عدم اليقين، فالاسم – موسى – كان شائعاً في مصر ومركباً عادة مع اسم أحد الآلهة المصرية مثل (طحوط موسى) (طحوطموس) وبتاح موسى. ومس أمون. ويستوى المعنى للإسم إذا عرفنا أن كلمةم موسى تعني ابن أو طفل فتصبح الأسماء المذكورة مركبة مع أحد الآلهة أي ابن الإله طحوط وابن الإله بتاح وابن الإله أمون.

يرى بعض الباحثين أن اسم موسى منفرداً وليس مركباً ناتج عن إسقاط لآلهة أمون من الإسم بعد تبني ديانة أتون الأخناتونية. وكما فعل أخناتون نفسه حيث سمى نفسه (اخن آتون) بعد أن كان امنحوتب (أمون حوتب). لكن الأرجح أن كُتاب الأسفار هم الذين أسقطوا الاسم الفرعوني الديني بعد أن استعاروا الشخصية والإسم الإنساني، ويرى آخرون أن ابنة فرعون أعطته اسم موسى (أي الطفل) مجرداً لعدم معرفتها اسم والده. لكن مهما كان رأي الباحثين هؤلاء فقد يقترب أو يبتعد عن الحقيقة بقدر نسبي وفق السياقات التوراتية وتفسيرها تاريخياً. أما ما تقوله التوراة ان ابنة فرعون أعطته اسم موسى (موشيه) العبرية لأنها انتشلته من الماء فيتضمن الكثير من الأوهام:

أ:
إن الصيغة المصرية موسى تختلف لفظاً ومعنى عن الصيغة العبرية (موشيه) والتي تعني المنقذ من الماء.

ب:
إذا كانت ابنة فرعون هي التي أعطته الإسم (خروج 10:2) العبري الذي يعني المنتشل من الماء فهذا يثير التساؤل حول معرفة ابنة فرعون اللغة العبرية.

ج:
واللغة العبرية لم تكن موجودة في القرن الثالث عشر ق.م. – فترة الخروج – وليس من دليل آثاري أو توراتي على وجود اللغة العبرية حتى حوالي القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً كلغة معروفة ولم يبدأ أحد الإشارة الى اللغة العبرية إلا بعد أن تبنى عدد من أنبياء اليهود وكتبتها (حوالي القرن الثاني ق.م.) لهجة أرامية سميت "اللغة المقدسة" وهي التي عرفت تالياً باللغة العبرية. فكيف إذن تسمى ابنة فرعون (القرن الثالث عشر ق.م.)

لقيطها موسى بمعنى المنتشل من الماء – بالعبرية – إذا كانت العبرية غير موجودة بعد؟

يرجح معظم الباحثين أن قصة الخروج وحسب التواريخ المثبتة في التوراة لو وقعت فستكون في زمن رعمسيس الثاني أو ابنه مرنفتاح، لكن إذا عدنا الى الأحداث التاريخية المؤكدة والتي لا لبس فيها والمثبتة آثارياً فإن قوة مصر العسكرية بلغت أوجها إبان الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، بحيث لا بد أن يكون الخروج وبالصيغة المذكورة في التوراة استحالة مطلقة. فبلاد الشام كانت تحت القبضة الحديدية للفراعنة الذين ضاقوا ذرعاً بالتمردات التي كانت تعم ولفترات طويلة. ولأن المتمردين كما هو مؤكد، برسائل العمارنة، من سكان البلاد فإن ذلك كان يخلق صعوبات في استمرارية الولاء لحكام مصر. لكن أي قوة، ذلك الوقت، لم تكن تستطيع تحدي سلطة الفرعون سواء أكانت في بلاد الرافدين أو بلاد الحثيين، فالمواجهة المباشرة مع الجيش المصري كانت صعبة حتى لدولة عظيمة، لذا فقول التوراة أنه خرج مع موسى600.000 ماش من الرجال عدا الأولاد (الخروج 37:12) وإذا أضيف الى هذا الرقم عدد النساء والأولاد فسيصبح عددهم بالملايين وهذا ما لا يمكن الركون اليه لعدة أسباب:

أ:
إن وجود هذا العدد الضخم من البشر في صحراء سيناء ولمدة أربعين سنة (التيه) وهم في وضع مضطرب وقلق ومتنقل يخلق أزمة تموينية وغذائية وإسكانية لمحدودية موارد الصحراء.

ب:
لو كان الهروب صحيحاً لتعذر معه اجتياز المعبر على البحر الأحمر بسهولة وبين ليلة وضحاها فهذا العدد يحتاج الى أيام للعبور كما يحتاج الى إمكانات وقدرة على توجيه وتحريك هذا العدد الضخم والذي معه لا بد من لحاق الفرعون بهم. وحتى لو استطاعوا التخفي في صحراء سيناء، مع أن خط سيرهم – كما رسمته التوراة – كان بمحاذاة البحر وعبر طرق مأهولة فإن وصولهم الى فلسطين سيجعلهم تتح رحمة القوات المصرية المتواجدة هناك.

ج:
فإذا ذكر الفراعنة على مسلاتهم وأبواب معابدهم انتصاراتهم الكبيرة والصغيرة، فالغريب جداً ألا يشار ولو إشارة الى عدو بهذه الضخامة 600.000 ماش من الرجال عدا الأولاد. ثم إن الفراعنة الذين يعتقد الباحثون أن أحدهم هو فرعون الخروج (امنحوتب الثالث، امنحوتب الرابع "أخناتون"، سيتي الأول، رعمسيس الثاني، مرنفتاح) لهم آثار ونقوش في فلسطين، ومنها آثار تذكر انتصاراتهم في معارك مختلفة دون الإشارة الى عدو يحمل اسم "الإسرائيليين" أو "العبريين".

إن قـراءة متأنيـة وموضـوعية لرسـائل العمارنـة، والتـي تعطـي صـورة عـن الأوضاع السياسية والثقافية والدينية في بـلاد الـشام وخاصـة فلـسطين لا تشير من قريب أو بعيد الى "إسرائيليين" متواجـدين هنـاك قبـل الخـروج أو بعده، كما أن كلمة عابيرو (خابيرو) الواردة في الرسـائل تـرد فـي كثيـر مـن الأحيان كصفة. . فتقول عبدي – عـشرتا أصـبح عـابيرو أو أخـذ فـلان جانـب الخابيرو وقد غطت الرسائل أنحاء بلاد الشام كلها تقريباً ومع ذلك لا نجد أياً منها يأتي على ذكر "إسرائيليين" أو "عبريين".

يمكن وصـف الوضـع فـي بـلاد الـشام – زمـن العمارنـة – بأنـه ثـورة أموريـة أشـعلها الأمـراء فـي شـمال سـوريا وانتـشر أوارهـا جنوبـاً حتـى الحـدود المصرية، وسيطروا على مساحات شاسعة من الأرض وعلى مـدن مهمـة، وهددوا مدن أخرى موالية للفراعنة . . ومع تداخل المواقـع والخطـوط بحكـم الطبيعة الجغرافية لفلسطين فإن الفرز كان يبدو صعباً بين العبيرو وغيـرهم، ومـع هـذه الحالـة تـشوشت الأوضـاع التجاريـة واضـطرب حبـل الأمـن وبـات الوضع العسكري المصري يعتوره الكثير من الخوف فيمـا لـو وقعـت مواجهـة مع الدول المحيطة الكبيرة، فكان لزاماً ضبط الوضع الأمني لـضمان الوضـعين الاقتـصادي والعـسكري. ومـن هنـا نـرى تحركـات الجيـوش المـصرية لقمـع الثائرين من جهة وتحذيراً للحثيين والعراقيين من جهة ثانية.

وإذا كان تحتمس الثالث قد أكمل ما بدأ أحمـوس مـن كـسر شـوكة أعدائـه المباشرين وفرض سـطوته العـسكرية علـى بـلاد الـشام فلقـد كانـت هـذه البلاد قد امتصت حالة القهر وبـدأت الحركـة المناوئـة منـذ امنحوتـب الثالـث وبرزت على السطح زمن امنحوتب الرابع (اخناتون). وفي عهد سيتي الأول رأى ضرورة إعادة إخضاع المنطقـة والقـضاء علـى الخـابيرو. . فاحتـل المـدن الكنعانية ودمرها وأحرق بيوتها وهدم حصونها وأسوارها.

فمـدن مثـل تـل الـدوير (لجـيش) وعـاي وأريحـا وبيـسان والقـدس أخـضعت و"طهرت" من الخابيرو الواحدة بعد الأخرى. . لذا لم يعد بعد ذلك التاريخ ذكر للخابيرو، فمصر القوية ولقربها الجغرافي ضـمنت ولاء الأمـراء وملـوك المـدن في فلسطين وبلاد الشام، حتى عندما كانـت تتراخـى سـطوتها أمـام قـوة البابليين أو الأشوريين كانت تجـد المؤيـدين لهـا والتـابعيين. وبـشكل خـاص أولئك الذين تمتد جذورهم الى الموسويين.

استتب الأمر كلياً زمن سيتي الأول، واقتضت الضرورة إعادة ترتيب المنطقة بعد حالـة الفوضـى التـي وجـدت زمـن اخنـاتون. أمـا فـي عهـد رعمـسيس الثاني فقد أعاد توزيع أدوار الحكام في المـدن والمقاطعـات الـشامية فعـين الأمـراء المـوالين، وأسـكن المجموعـات الموالـية فـي منـاطق اسـتراتيجية لتخدم الأهداف الفرعونية. وقد أكمل هذا الدور خلفه مرنفتاح. ولتأكيـد ولاء

هـذه المجموعـات للفراعنـة كـان لا بـد مـن إظهـار نمـط مـن الـشجاعة الأسطورية. هذا ما رسمته التوراة في سفر القضاة.

الفترة من سيتي الأول وحتى نهاية عهد رعمسيس الثالث تطابق ما يعرف بعهد القضاة، وهؤلاء القضاة هم زعماء وقادة عسكريون يبرزون زمن المحـن والشدائد أو في الحروب. وفي كثير مـن الأحيـان تـصل المبالغـة فـي وصـف أعمالهم حداً تدخل معه القـصة تخـوم الخيـال، فهـذا شـمجربن عنـاة يقتـل سـتمائة رجـل بمنـساس البقـر (قـضاة 31:3) أمـا القاضـية ديبـورا فأعمالهـا "الخارقة" تصل حد السفه (قضاة 4:4) وجدعون بن يـؤاش الـذي كـان يهلـك البشر كالوباء، فثلاثمائـة رجـل معـه يـذبحون عـشرات الألـوف (قـضاة 10:8) كذلك الأعمال الخارقة في حرب شمشون ضد الفلـسطينيين (قـضاة 1:14 . .).

والحرب ضد الفلسطينيين تسلط الضوء على طبيعـة دور الموسـويين، فمـن المعروف أن رعمسيس الثالث قد حارب الفلـسطينيين القـادمين مـن ايجـه وانتصر عليهم في معركة بحرية 1191 ق.م. مما أرغمهم على النزول علـى الساحل الكنعاني الذي حمل اسمهم. ووجودهم علـى الـساحل الكنعـاني بامتداد الجنوب جعلهم في حالة تمـاس مـع مـصر مـن جهـة وشـكل خطـراً على الوجود المصري في فلسطين وبلاد الشام كلها من جهة ثانية نتيجة الحد من حرية حركـة القـوات المـصرية، وبـذلك شـكّل هـذا الـشعب صـيغة مشابهة لحالة الخابيرو. فهذا الشعب أصبح مأوى وملاذاً لكـل متمـرد علـى الحـاكم المـصري أو ملجـأ لكـل مـن يخـرج علـى سـلطة الحكـام التـابعين للفراعنة. وفي الوقت نفسه. استعدى عليه الموالون للفراعنة الذين شـنوا حرباً متواصلة عليـه، وأعـدى أعـدائهم كـانوا الموسـويين فـي عهـد القـضاة وبداية الملوك.

إمعان النظر في سفر القضاة يعطي أكثر من مؤشـر علـى أن الشخوص هم مصريون، فـصيغة، الإلـه مـصرية الجـوهر، الإلـه – الإنـسان (الإلـه يهـوه ذات النوازع والميول والعواطف) أو هـو آمـون – فرعـون أو منـدوب الملـك النـاطق بلسان فرعون. فلننظر الى بعض آيات هذا السفر: "وكـان بعـد مـوت يوشـع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يـصعد الـى الكنعـانيين. . " (1). "فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان الذي ملك فـي حاصـور ورئـيس جيـشه سيسرا.. ."(2). "وكان في تلك الليلة أن الرب قال له قم انزل الى المحلـه" (3) فلو استبدلنا كلمة "الرب" في هذه النصوص باسم فرعون أو أحد قـواده لكان المعنى أكثر واقعية وملاءمة.

المرحلة هذه (فترة القضاة التوراتيـة) اتـسمت بالحركـة العـسكرية، فوجـود الفلسطينيين بموقعهم الاستراتيجي العازل بـين مـصر وأرض كنعـان ووجـود الأدوميين بوضعهم الجغرافي المحاذي لحدود مصر أيـضاً، وهـم إمـا معـادون للفراعنة أو غير مخلصين في ولائهم الأمر الذي اسـتدعى ترتيـب المنطقـة

ديمغرافياً لصالح الوجود المصري. ومن خلال إسناد مهمات جديدة للموسويين، ودعمهم الدائم. ومع مرور الزمن ذاب الفلسطينييون كشعب في إطار الكنعانيين وانتهى دورهم السياسي وأخضعت آدوم.

إذا عدنا الى الحوليات والوثائق المصرية الآثارية لدراسة هذه المرحلة (القضاة) لوجدنا الأدلة صارخة تؤكد السيطرة العسكرية المصرية على بلاد الشام كلها، ففراعنة هذه الفترة وما قبلها وما بعدها تركوا الآثار الدالة على وجودهم في تل الدوير وبيسان وجيزر وعسقلان وبيروت مثلما تركوا المسلات والسجلات على أبواب المعابد.

تذكر التوراة – والتوراة فقط – ودون أي مصدر تاريخي آخر أن شاؤول أصبح ملكاً. . (4) وبعد مقتل شاؤول وأولاده على يد الفلسطينيين أصبح داود ملكاً والاعتقاد الأرجح أن داود كقائد عسكري يأتمر بأمر الفراعنة تغلّب على الفلسطينيين فكوفئ بتعيينه حاكماً على مجموعة مدن في منطقة يهوذا مناه القدس، فلم ترد أي إشارة من مصر على وجود ملك يحمل هذا الاسم.

---

(1) قضاة 1:1

(1) قضاة 1:1

(2) قضاة 2:4

(3) قضاة 9:7

(4) صموئيل الأول 5:8

(1) الملوك الأولى 1:12 . . . وما بعدها
(2) الملوك الأولى 20:12

"دولتا" يهوذا والسامرة

كان الصراع بين أمراء وملوك بلاد الشام عميقاً وواسعاً، نتيجة لمحاولات السيطرة على الممتلكات وتوسيع مناطق نفوذ الأمراء والملوك ومحاولة تدمير بعضهم البعض. وكانت النزاعات في بضع وجوهها خدمة لمصالح الفرعون واقتصاصاً من مناوئيه، أو ربما تكون عملاً مقصوداً من الفرعون لتعميم حالة الضعف وترسيخه لتظل السيطرة الفرعونية على بلاد الشام أكبر مدة وأطولها. لذا لم يشهد التاريخ في الفترة الزمنية من القرن

الخامس عشر ق.م. وحتى القرن السادس ق.م. قيام دولة قوية في فلسطين، إلا إذا كان وجود مثل هذه الدولة أسطورياً ومن نسيج الوهم والخيال.

دأبت أدبيات الديانة اليهودية على اعتبار "إسرائيل" و "يهوذا" دولتين (لبني إسرائيل) انقسمتا بعد وفاة سليمان وكانتا قبل ذلك – دولة واحدة – فعندما تسلّم الحكم (رحبعام) بن سليمان الذين كان على خلاف مع أخيه (يربعام) (1) الذي كان يعيش في مصر (!!!). ولما عاد يربعام بعد موت سليمان التف حوله عشرة أسباط من أصل اثني عشر سبطاً كان ضمن "دولة سليمان الموحدة" بينما ظل سبطان هما يهوذا وبنيامين على الولاء لرحبعام في القدس. (2)

ومن الجدير بالذكر أن حكام يهوذا والسامرة وتسلسلهم مأخوذ بشكل أساسي من التوراة. كما أن سيرتهم اعتراها كثير من المبالغات الخارقة. فداود وإن كان قائداً عسكرياً اقتضت الظروف المحيطة لعب دور معين، فإن ابنه سليمان لم يستطع الاحتفاظ بالمساحة (المتواضعة) التي أورثه إياها داود. أما ما تورده التوراة من سيطرة سليمان على منطقة تمتد من العراق الى مصر وحتى اليمن، فمن باب الخيال، وروح القهر والأماني، فالتاريخ مدعماً بالآثار يؤكد أن حدود سليمان شمالاً كانت تتوقف عند حدود (حيرام) ملك صور (صديق سليمان) و (روزن) ملك دمشق الأرامي. بل إن ملوك (أرام دمشق) سيطروا على السامرة ويهوذا كما تشير التوراة ذاتها الى ذلك (الملوك الأولى 18:15). أما جنوباً فلم تتجاوز (عصيون جابر).

وردت بعض الأسماء لحكام السامرة (شكيم) مثل "عومري" و "أخاب" في بعض الوثائق والآثار لكنها لا تشير اليهم كملوك إنما يذكروا بصيغة مثل "بيت عومري" حيث ترجمها بعض الباحثين "عومري ملك إسرائيل، بتأثير ما ورد في التوراة".

كانت عاصمة الشمال بادئ الأمر في شكيم (قرب نابلس) تم (ترصه) وأخيراً في مدينة السامرة (وهي سبسطية الآن) وقد اتخذ عومري السامرة مقراً له ثم خلفه أخاب الذي كان حليفاً لدمشق وصهراً لملك صور.

ويبدو أن أخاب قد بدأ يتوجس من تنامي قوة الأشوريين في الشرق فمد اليهم جسوراً لم تجد عند المصريين إلا الاستنكار. فأوعز الفرعون الى القائد العسكري (ياهو) بالتمرد على سيده حيث قضى على سلالة عومري عام 842 ق.م.، الأمر الذي لم يرق للأشوريين فغزوا السامرة وأسروا (ياهو) المرسومة صورته على مسلة الملك الأشوري شلمنصر الثالث والمشهورة باسم المسلة السوداء (1) حيث يظهر (ياهو) يقبل الأرض أمام الملك الآشوري ويقدّم له الجزية. وكان آخر حاكم من هذه

السلالة هو (يربعام) الثاني. (785 – 745 ق.م.) وهذه تناظر فترة ضعف الامبراطورية الأشورية (التي سبقت قيام تجلات بلاسر الثلاث 747 – 727 ق.م.).
ثم إن عشرة أسباط من أصل اثني عشر سبطاً كانوا موالين لحكام السامرة سباهم الملك الأشوري سرجون الثاني (1). سنة 721 ق.م.، ومع ذلك فإن التوراة بكل فوصلها لم تأت على ذكرهم أثناء وجودهم في السبي. كما أن جماعة السبي البابلي الذي تم على يد نبوخذ نصر لم يحاولوا الاتصال "بإخوانهم" في نينوى وغيرها ولم ترد أخبارهم رغم أنهم يشكلون غالبية الأسباط.

لقد أفاض ملوك أشور في وصف حملاتهم ضد أقوام الشرق الأدنى وذكروا أسماء حكام الدول التي أخضعوها ولقبوا رؤساءها بالملوك إلا حكام السامرة لم يطلق عليهم تسمية ملوك بل "بيت عومري" (الكتابة على مسلة شملنصر الثالث وكتابة تجلات بلاسر الثالث). وفي زمن شلمنصر الخامس حاصر الأشوريون السامرة ثلاث سنوات وسقطت في عصر سرجون الثاني الذي تسلم السلطة بعد موت شلمنصر الثالث. وقد عثر الخبير الآثاري بوتا M. Botta بين أطلال مدينة "سمأل" (زنجرلي) عاصمة الأراميين في شمال غربي سوريا عر مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الأشورية والخط المسماري تفاصيل الحملة الأشورية على السامرة والتي انتهت بالقضاء عليها.

حددت التوراة المناطق التي نقل اليها سكان السامرة في زمن كل من تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني وهي "حلح" و "خابور نهر جوزان" و "هارا" ومدن مادي. والمواضع الثلاث الأولى. تقع في منطقة حوض الخابور والبليخ عند منابعهما. فحلح كلمة أشورية تعني اسم مقاطعة أشورية قرب "تل حلف" في حوض الخابور شمالي سوريا. أما جوزان فهي "جوزانا" عاصمة إمارة بحياني الأرامية وهي قريبة من تل حلف. وأما خابور فهو اسم أكدي، وأحد روافد نهر الفرات وقد سمته التوراة "خابور نهر جوزان" لتمييزه عن خابور آخر في منطقة بابل. أما هارا فهي حران الحالية. ويرى البعض أن المدن المادية (الإيرانية) التي نقل اليها سكان السامرة هي: همدان وما جاورها من قرى فيما يرى البعض أنها منطقة نهاوند وما جاورها.

استفادت (يهوذا) في القرن الثامن ق.م. من انحسار المد العسكري الأشوري، وحاولت الاقتصار في علاقاتها مع مصر. لكنها ظلت تؤدي الجزية للأشوريين. وفي زمن (حزقيا بن آحاز) (721 – 692) توضحت العلاقات بين يهوذا ومصر، واعتبر تحدياً لسلطة الأشوريين، فقام الملك سرجون وابنه سنحاريب بعدة هجمات على (أورشليم) ثم حاصرها سنحاريب سنة 701 ق.م. ومع أن المدينة لم تسقط إلا أن حزقيا اعترف بسيادة الأشوريين وتعهد بدفع الجزية، وظل الأمر كذلك حتى سقوط الدولة الأشورية عام 612 ق.م. وقيام الدولة البابلية.

اختار (يهوياقيم بن يوشيا) 608 – 597 ق.م. معارضة بابل وتحالف مع مصر في عهد الفرعون (نخو). ولما دحر نبوخذنصر جيش نخو في كركميش 605 ق.م. دارت الدوائر على يهويا قيم حيث قضى عليه بوخذنصر سنة 597 ق.م. وعين مكانه (يهوياكين)، إلا أنه مال الى مصر فقاد نبوخذنصر حملة لتأديبه، فأسر يهوياكين وكثيراً من أتباعه وساقهم الى بابل وهو ما يعرف بالسبي البابلي الأول ثم عين نبوخذنصر "صدقيا" أحد أبناء يوشيا حاكماً على يهوذا كتابع لبابل، لكنه وبتأثير مصر حاول العصيان فغضب نبوخذنصر وأرسل حملة قوية حاصرت (أور-شليم) ورغم تدخل الملك المصري (حوفرا) ومحاولته نجدة تابعة (صدقيا) لكن ذلك لم يجد نفعاً حيث سقطت (أور-شليم) بيد نبوخذنصر في 586 ق.م. وأخذ كثيراً من الناس أسرى الى بابل وهذا السبي البابلي المشهور.

وتؤكد المصادر أن نبوخذنصر أسكن المسبيين الى بابل أخصب مقاطعاته، مثل منطقة نفر "نيبور" التي كانت تعد من أغنى مناطق بابل ومنحهم أوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية بل إن (دانيال) وهو من جماعة السبي الأول كان من المقربين الى نبوخذنصر (دانيال 1:1 – 7). وخلال وجودهم في هذه المنطقة تعلموا أساليب الزراعة والري . ." والتي ضمنوها في التوراة أيضاً.

لقد عثر المنقبون بين أطلال مدينة نفر على تقويم لأحد المزارعين السومريين فيه نصائح وإرشادات يوجهها هذا المزارع الى ولده، وفيها أفضل الطرق الواجب اتباعها في تنظيم وإدارة الشؤون الزراعية. وقد دونت هذه الوثيقة التي يرقى تاريخها الى ما قبل أربعة آلاف سنة على رقيم من الطين يتكون من 108 أسطر بالخط المسماري واللغة السومرية.

كما خصصت عدة مواد في شريعة حورابي (المواد 53-56) في زراعة النخيل والإرشادات التي تدور حولها.

ولما فتح كورش الفارسي بابل (539 – 538 ق.م.) وجد هناك المهجرين من أسرى نبوخذنصر (أسر 597 وأسر 586 ق.م.) وكان هؤلاء قد ساعدوا المحتل الفارسي، فكافأهم بالسماح لهم بالرجوع الى فلسطين، فاعتبرته التوراة المسيح المخلص (اشعيا 1:45) وعمل اليهود بعدها عيوناً وجنوداً للفرس في بلاد الشام.

عادت يهودا الى الوجود في الفترة الفارسية وهو العصر الذي تطورت فيه الديانة اليهودية تطوراً استمر حتى زمن المسيح. لقد كان الغموض يلف التاريخ التوراتي طيلة المراحل السابقة، بل هناك استحالة من التأكد من حقيقة التاريخ التوراتي. فالتسلسل التاريخي مشوش ونصوص المصادر فاسدة، خاصة الفترة التي أعقبت السبي، فلا نعرف الهيكل التنظيمي

زمن (زيروبابل) ولا نعرف دور عزرا ولا نعرف دور الولاية STATE الفارسية هذه ولا وضع الكاهن الأعلى بين سنوات 517 – 444 ق.م. وأيهما جاء أولاً عزرا أن نحميا وبالمختصر فإن المؤرخ سيجد نفسه مواجهاً عدة إشكالات الأمر الذي يجعل الموضوع التاريخي مستحيلاً (1). رغم معرفتنا، أن نحميا قد عاد زمن الفرس لبناء أسوار القدس وعزرا لبناء الديانة اليهودية و (زيروبابل) لبناء الإطار السياسي (2)، لكن هل يستطيع كل هؤلاء الخروج عن الأطر التي رسمتها السياسة والدين والواقع العسكري الفارسي؟ ويفيد مخطوط وجد في الفنتاين في مصر على ورق البردي أن نحميا نجح أن يكون حاكماً على منطقة تابعة لملك فارس، ويشير سفر نحميا (نحميا 1:5. ..) الى الأتاوات الباهظة التي كان يدفعها اليهود "للملك العظيم" (1).

أما على الصعيد الآثاري فقد تم الكشف عن بعض الأختام الفخارية تعود الى الفترة الفارسية، كتبت بالآرامية، ومنها ختم عليه النجمة الخماسية التي تستعمل في السحر عادة، لكن كل ما اكتشف لا يعطي مؤشراً واضحاً على التاريخ اليهودي في الفترة الفارسية، وإن كان يوضح ما كان اليهود يؤمنون به من أعمال سحرية اقتبسوها من الثقافة الفارسية (2). حتى التلمود البابلي وعندما كان يظن أنه قد اكتمل في القرن الخامس الميلادي، فإنه كان في ذلك الوقت ينمو وتدرس بنوده على يد يزدجرد الأول وبتأثير من فيروز ومزدك (3).

---

(1) طه باقر مقدمةم في تاريخ الحضارات الجزء الثاني ص 292

(1) M. B. Rowbon, P.E.Q. January – April 1953

(1) W. F. Albright B.A.S.O.R. Number 53 February 1943

(2) R.A.S. Macalister, A century of excavation in palestine P. 190

(1) Herbert G. May, Bible Ahas P. 31

(2) W. F. Albright Ibid

(3) Jacob Neusner, A History of The Jews in Babylonia 1970

لا شـك أن الموجـات التـي خرجـت مـن الجزيـرة العربيـة خلقـت مقومـات مشتركة بين هذه الموجات سواء على صعيد الفـرد أو المجتمـع فـي كـل مـن وادي الرافـدين وبـلاد الـشام، فالتركيـب العرقـي متـشابه إن لـم يكـن متجانساً، واللهجات المحكية هـي مـن جـذع واحـد والعبـادات كـذلك كانـت مشتركة في كثير منها،إضافة الى شيوع الفنـون الأخـرى سـواء أكـان فـي المجال الموسيقي أو الأدبي. وكانت أرض كنعـان – وبـلاد الـشام عمومـاً – الجـسر الحـضاري الـذي كـان يـربط بـين مـصر والعـراق، وبحكـم الأوضـاع العسكرية والسياسية التي كانت سائدة، في مراحل مختلفة مـن التـاريخ، سـهل الاتصال الثقافي بين الأطراف الثلاثة.

إن مـن أهـم مظـاهر الاحتكـاك الحـضاري، أن اللغـة الأكديـة أصـبحت اللغـة الرسمية الدبلوماسية في كل من وادي الرافـدين وبـلاد الـشام ومـصر مـن حوالي القرن السابع عشر قبـل المـيلاد وحتـى الثـامن ق.م. تقريبـاً ومنهـا انتقلـت الديانـة والتجـارة وبـاقي المنـاحي الثقافيـة بمـا فيهـا تـشريعات حمورابي الى بلاد الشام ومصر. كما وجد في طبقة التنقيبات الثامنـة فـي مجدو أربعون سطراً من ملحمة جلجامش كتبت باللغـة الفينيقيـة (1) وهـذا نتاج للتأثير الكبير الذي لعبتـه ثقافـة وادي الرافـدين فـي بـلاد الـشام. كمـا وجدت في أشدود مجموعة آثار تعود بتاريخها الى الأشـوريين، ومنهـا حجـر تم تحليل كتاباته وإرجاعها الى سرجون الثاني (1) 712 ق.م.

وقد شاعت الأشهر البابليـة الـى درجـة اسـتعملتها جميـع القبائـل العربيـة القديمـة (البـابليين، الأشـوريين، العمـوريين، الكنعـانيين (الفينيقيـين)، الأراميين) ثم اقتبسها عنهم أتباع الديانة اليهودية بعد تأسيس الديانة هذه هي في بابل ولا زال الكثيرون يستعملونها حتى الآن. (2)

إسم الشهر بالعربية	اللفظ البابلي
1- نيسان	نيسانو
2- أيار	ايرو
3- حزيران	سيمانو
4- تموز	دوزو
5- آب	آبو
6- أيلول	أولولو
7- تشرين أول	تسريتو Tisritu
8- تشرين ثاني	ارح سمنا
9- كانون أول	كيسليمو
10- كانون ثاني	طبتو
11- شباط	سباتو
12- آذار	أدارو

ألقت التنقيبات التي جرت في الشرق الأدنى الأضواء على التاريخ التوراتي، الى درجة أن نهري دجلة والفرات يسقيان جنة عدن التوراتية. . وهناك صلة عميقة بين الأدب الديني والأعراف الدينية البابلية والأشورية وما هو مسجل على صفحات العهد القديم (1). وعندما تجيب التوراة عن أصل النشوء أو بداية الخلق تعتمد على وادي الفرات كأساس لنشوء الجنس البشري، ومن الطبيعي أن كتّاب التوراة وقعوا على خط التماس مع البابليين (2). كما أن الديانة اليهودية تمت بصلة الى وادي الرافدين اكثر مما تمّت الى الكنعانيين (3) (وسنعود الى بحث تأثير الديانة البابلية باليهودية في موضوع مطول تحت عنوان الديانة اليهودية).

قاد الملك الأشوري أشور ناصر بال الثاني (883 – 859 ق.م.) حملة الى كركميش ولبنان حتى وصل البحر المتوسط وفرض الجزية على صور وصيدا وبيبلوس (جبيل) وارواد ومدن فينيقية أخرى. كما حارب ابنه شلمنصر الثالث 853 ق.م. تحالف 12 ملكاً وانتصر عليهم في قرقر على نهر العاصي.

كما قام سرجون الثاني سنة 721 ق.م. بمهاجمة السامرة حيث وجدت أخبار الحملة في مكتشفات (دور شاروكين) خور سأباد، وتفيد هذه الحوليات أنه وصل الى غزة ورفح على حدود مصر. وفي سنة 715 ق.م. أرسل سرجون حملة الى فلسطين وحدود مصر وفي 712 أو 711 ق.م. أخضع فلسطين ثانية ومنها عقرون وتل زكريا واستولى على أشدود وجعلها مقاطعة أشورية، واجتاح خلفه سنحاريب 701 ق.م. فلسطين ويهودا. (4)

الاجتياح الأشوري لفلسطين والذي وصل الى الحدود المصرية كان نتاجاً للتحالف السياسي والعسكري، حيث أدى الى تحفيز التحرك الأشوري في بلاد الشام أكثر ما كان فكرة مسبقة لدى الملوك الأشوريين للسيطرة. ففي زمن تجلات بلاسر (742 – 738 ق.م.) وهو أعظم الفاتحين ومنشئ الامبراطورية الأشورية، سيطر على جزيرة ارواد وشمالي سوريا وعلى الساحل الفينيقي (1). وتذكر وثائق كلح (نمرود) أن تجلات بلاسر فرض حصاراً على فلسطين ومنع دويلات بلاد الشام الأخرى من الاتجار مع فلسطين ومصر. وتفيد الحوليات والوثائق أن تجلات بلاسر استمال بعض حكام وملوك المدن الفلسطينية والسومرية بعد أن كان ولاؤهم لفرعون مصر ومن هؤلاء عزريا من يهوذا وحانون ملك غزة الأمر الذي لم يرض عنه الفرعون فحرّك عملاءه في النمطقة للوقوف ضد المتعاملين مع الأشوريين وعلى رأس هؤلاء وقفت دمشق والسامرة، الأمر الذي حدا بالملك الأشوري تجلات بلاسر الى اجتياحهما حتى وصل الى مدينة العريش، حيث أقام مسلة حدد فيها حدود امبراطوريته، وتدل المسلة التي ثبتها على الحدود مع مصر أن الامبراطورية الأشورية تمتد من بلاد الأناضول حتى الحدود المصرية.

تذكر الحوليات الملكية أيضاً أن قبائل عربية كانت مع ملك أشكلون (2) صديق الملك الأشوري وهذه القبائل تدعى اديبي – أيلو وتشير وثيقة أخرى أن هذه القبيلة "حارسة للحدود مع مصر".

ولمامات تجلات بلاسر سنة 727 ق.م. عمت الإضطرابات في المنطقة وتدخل الفراعنةن الى جانب بعض الزعماء المحليين، الأمر الذي أثار التمردات على السلطة الأشورية. وبعد أن تولى سرجون الثاني السلطة واجه تحالف الأمراء في بلاد الشام بدعم من مصر وكان على رأس هذا التحالف حالون ملك غزة وياوبيدي YAUBIDI ملك حماه وقد انتصر على هذا التحالف في معركة مهمة في قرقر ودانت له سوريا وفلسطين حتى حدود مصر وقد اكتشفت أخبار هذه الحروب على لوح طيني اكتشف في أشور 1941 (3).

جاءتنا أخبار حركة سنحاريب في فلسطين من حولياته حيث يمكن تلخيص أحداث سنة 701 ق.م.

(أ) كان ملك صيدا وصور (ايلو – لايوس) Elu – Laeus من أنشط المحرضين على التمرد ضد الآشوريين، لذا فر الى قبرص مع بداية الزحف الأشوري.

(ب) بويع سنحاريب ملكاً واعترف بسلطته من قبل جميع ملوك فينيقيا وفلسطين، وقد حضر مينتينتي Mitinti ملك أشدود للتهنئة.

(ت) زحف الأشوريون بجيشهم عبر الطريق الساحلي حتى وصلوا الى أشكلون بجوار يافا، وهزمت يافا وبيت دجن (داجون) وأزور فغدت طريق أشكلون مفتوحة.

(ث) الخطوة التالية كانت عقرون Akron (خربة المقنع)، وفي تلك الفترة وصل الملك النوبي قرب Eltekeh (تل الشلف).

(ج) بعد انهزام الجيش النوبي رجع وحاصر عقرون. (1)

وبالنتيجة كانت أرض كنعان الطريق دائم الحركة للجيوش القوية والإمبراطوريات الكبيرة، ومعها لم يكن بالإمكان قيام دولة قوية في فلسطين بل وفي بلاد الشام كلها وهذا ما تؤكده السجلات والآثار والحوليات البابلية والأشورية والمصرية والحثية. فقيام دولة "أسطورية" في التوراة هو محض خيال. كما أن الدور الذي لعبه الموسويون في فلسطين أصبح مكشوفاً وواضحاً وليس له أي بعد حضاري أو قيمي.

(1) Michael W. Several, P.E.Q. July – Dec 1972 P. 130

(1) Michael Avi – Yonah, Encyclopedia Of Archaeological Excavations P: 11

(2) إسرائيل تاريخ اللغات السامية ص 41

(1) Jastrow Morris, Hebrew And Babylonian Traditions P. 8

(2) Ibid P. 16

(3) Willia, F. Albright, Archaeoogy And The Religion of Israel P

(4) Herbert G. May, Oxford Bible Ahas P. 27-29

(1) Iraq Vol 17 1955 P 123 – 128

(2) Hayim Tadmor, Biblical Archaeologist Vol 29 Number 3 1966

(3) Danial D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria And Babylonia Vol 2 P. 3

(1) Hayim Tadmor, Biblical Archaeiologist Vol 29 Number 3 1966

التنقيبات الآثارية في فلسطين

تتولى دائرة الآثار الإسرائيلية اليوم التنقيب أو الإشراف على أعمال البحث الآثارية في فلسطين ومنذ عام 1948، كما كانت السلطات البريطانية تعطي الضوء الأخضر للبعثات الآثارية الغربية للعمل في فلسطين أو شرق الأردن باعتبارها – أي بريطانيا – الدولة المنتدبة بعد الحرب العالمية الأولى. وحتى زمن الإمبراطورية العثمانية كانت تشهد المنطقة بعض النشاط الآثاري إلا أنه اتخذ الطابع السياحي.

أهم أثر اكتشف في المنطقة حتى الآن هو المسمى "حجر ميشا" أو حجر مؤاب قرب قرية ذيبان الواقعة في محافظة الكرك في الأردن. وتقع ذيبان (ديبون) على بعد 20 كم شرق البحر الميت وحوالي 64 كلم جنوب عمان على الطريق الموصل الى الكرك، وتقع قرب وادي الموجب (عرنون في التوراة). وقد بدأ الاهتمام بالمنطقة عام 1868 عندما اكتشف حجر مؤاب ومخطوط ميشا. ويعود تاريخ (ديبون) حسب رأي بعض المؤرخين الى القرن

الثالث عشر ق.م. (1) وهذا لا يبدو معقولاً حيث ذكرت ديبون في معبد الكرنك إبان حكم تحتمس الثالث وبذلك يمكن إعادة تاريخ ديبون الى القرن الخامس عشر ق.م. حسب رأي وليم أولبرايت في B.A.S.O.R. No. 125 Pq ولكن المنطقة كانت محتلة في العصر البرونزي المبكّر حيث ظهرت حضارة هذا العصر في مؤاب والأردن. وفي نهاية القرن الثالث عشر ق.م. كان الأموريون قد انقسموا الى ما يعرف بممالك المدن ومنها مملكتان: عشترون (تل الأشعري حديثاً) والأخرى حشبون (حسبان حديثاً) وتقع على بعد 21 كم الى الشرق في النهاية الشمالية للبحر الميت. كما ظهرت ثلاث ممالك: عمون وعاصمتها ربة عمون (عمان الحالية) ومؤاب وتبدأ من وادي حسبان أو وادي كفرين الى وادي الحس. وأدوم، وتبدأ من وادي الحسا الى العقبة. (1)

ونصب موأب يتطابق في صناعته مع الأعمال الأشورية والكنعانية – الفلسطينية، ويدل الأثر أن الملك ميشا قام به بأمر من إلهه كيموش تخليداً لانتصاره على عمري حاكم السامرة وولده أخاب اللذان أساءا الى كيموش إله مؤاب. (2)

الحروب التي خاضها ميشا ملك مؤادها هي من الحروب القليلة الموثقة والمكتوبة على مسلة حيث سجّل انتصاراته العسكرية ضد (بيت عمري) من السامرة، ويصف لملك ميشا نفسه بالمخلص لمؤاب، التي تعبد كيموش، وبمقارنة ما هو مكتوب على حجر مؤاب مع ما ورد في سفر (الملوك الثاني 1:3 – 27) نرى تناقضاً في الروايات. ولما كانت رواية ميشا مؤكدة على النصب فهي أقرب الى الصحة لعدة أسباب:

(أ) لو أن أحداث التوراة صحيحة وأن عمري انتصر على ميشا واحتل أرضه لما استطاع الأخير إقامة النصب.

(ب) إن التوراة كُتبت بعد الأحداث بحوالي 300 سنة وهذا يجعل الكُتّاب أكثر حرية في التصرف بما يكتب. ويشير المخطوط الى أن ميشا يعتبر أن "ماديبا" (مأدبا) هي من أرض المؤابيين. (3)

ونقش مؤاب، وهو عموري كتب بالفينيقية (الكنعانية) ويضم 34 سطراً (4) هذه ترجمته:

1- أنا ميشا بن كيموش ملك مؤاب.
2- أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة وأنا ملكت،
3- بعد أبي وأقمت بكركه (1) Karcha هذا النصب لكيموش،
4- بعد أن أعانني ومكنني من أعدائي وحقق أماني بأعدائي،
5- حاكم السامرة، أساء لمؤاب أياماً كثيرة حتى غضب كيموش،
6- ولما جاء ابنه قال: سأنال من مؤاب

7- فنظرت اليه والى بيته (2) (أي بعين الغضب) فأبدته الى الأبـد. وكـان عمري قد أخذ
8- مأدبـا وسـكن فيهـا هـو وابنـه وابـن ابنـه، أربعـين سـنة، وكيمـوش يتسامح. ثم أرجعها
9- (لي) كيمـوش، فبنيـت مـذبحاً لبعـل فـي معـان وأقمـت محرقـة مـن شجر الصنوبر وبنيت.
10- قرية ايم Kirjathaim. وكانت جماعة من بيت عمري في أرض عطرت Atroth.
11- فحاربت عطرت واستوليت عليها وقتلت كل المدافعين عن
12- الأسوار. فقرت عين كيموش ومؤاب . . . ونقلت الأسلاب
13- أمم كيموش. وأسكنت في قرية ايم أهل سيران (3) Siran وأهل
14- صيرت Zereth. فقال لي كيموش أذهب وخذ نبه Nebo (اسـم جبـل) من يد بيت عمري
15- فسرت بالليل، وحاربت من مطلع الفجر الى الظهر حتى أخذته
16- وقتلت منهم سبعة آلاف رجل ولم أقتل النساء
17- والعذارى قدمتهن لعشتر كيموش. وأخذت من كل أواني
18- يهوه وأتيت بها الى كيموش. وكان ابن عمري قد بنى
19- يهـص Jahaz (اسـم مدينـة) وسـكن فيهـا أثنـاء حربـه معـي، فطـرده كيموش من أمامي؟
20- أخذت مائتي رجل معي من مؤاب وسيرتهم الى يهص فأخذتها
21- وضممتها الى ذيبان. وبنيت كركه وأسوار الحصن وأسوار
22- المدينة وبنيت أبوابها وأبراجها
23- وبنيت القلعة وأقمت السجن . . . داخل
24- المدينة. ولم يكن داخل كركه بئر، فقلت للشعب أجعلوا
25- لكم أباراً في بيوتكم وأنا حفرت خندقاً بواسطة الأسرى من بيت
26- عمري. أنا بنيت عرعر (اسم مدينة) وأنا حفرت أقنية الى عرنن (نهـر الموجب)
27- أنا بنيت بيت باموت Beth Bamoth بعد أن تخربـت وبنيـت بـصرى بعـد أن كانت خراباً
28- بخمسين رجلاً من ديبون . . . أضحت ديبون حاكمة وسلمت
29- من أعدائي وبنيت
30- بيـت جمـول Beth – Gamul وبيـت دبـلان ايـم Beth. Diblathaim وأسكنت هناك
31- المـؤابيين للـسيطرة علـى الـبلاد كمـا سـكنوا فـي حـورون ايـم Horonaim
32- . . . فقال لي كيموش انزل لتقابلني فنزلت
33- . . . كيموش في أيامي .. .
34- . . . سنة وأنا

نقبت دائرة الآثار الإسـرائيلية خـلال عـشرة سـنوات فقـد مـن عـام 1948 – 1958 في 113 موقعاً في فلسطين، ولم تستطع العثـور علـى أي أثـر يؤكـد أطروحاتها في وجود أناس يسمون "إسرائيليين" أو "عبريين". وما وجـد مـن آثار يهودية تعـود فـي أقـدمها الـى القـرن الثـاني ق.م. وهـي الفتـرة التـي تكونت فيها هذه الديانة. وكل ما وجد من آثار قديمة هـي أموريـة (كنعانيـة) أو بابلية أو أشورية أو مصرية أو فارسية أو يونانية أو رومانيـة (1) ومـن أهـم المواقع التي تم التنقيب فيها في فلسطين:

تل أبو حوام Tell Abu – Hawam قرب عكا. تم التنقيب فـي هـذا التـل عـام 1963 حيث عثر على أحجار يمكن أن تكـون امتـداداً لـسور عكـا الـذي يعـود الى العصر البرونزي، كمـا وجـدت آثـار مـستوطنات تعـود الـى 1400 – 1300 ق.م. (2)

بيسان: وجد اسم بيسان في الكتابات الخاصة بتحتمس الثالث في المعبد العظيم لأمون في الكرنك، وقد ورد اسمها أيـضاً فـي تـل العمارنـة، كمـا ورد اسمها في وصف سيتي الأول وابنه رعمـسيس الثـاني فـي القـرن الثالـث عشر ق.م. وفي معبد بيسان وجدت مجموعة لقى مصرية. (3)

وفي غرفة في (بيت شعاريم) عثر على قبـر عليـه كتابـة عربيـة مـشوشة خطت باليد ويمكـن قـراءة "بـسم الله الـرحمن الـرحيم (4)". كمـا اكتـشفت أثناء التنقيبات على قبور تحوي كتابـات باللغـة اليونانيـة والعربيـة والأراميـة. وفي المقبرة اليهودية التي أرجعت الى ما بعد القرن الميلادي الأول وجدت كتابات بالعبرية والأرامية. أما الكتابات التي وجدت على الجدران فقـد كانـت باليونانية والأرامية والعبرية (5). ومن الملاحظ أن الكتابات العبرية فـي بيـت شعاريم قريبة من الكتابات الأرامية واليونانية.

وفي منطقة أزور Azor (على بعد خمسة كيلومترات الى الجنوب الـشرقي من تل أبيب) وجد قبر يعود الى عهد الهكسوس، كما وجدت آثار تدلل على أنهـا كنعانيـة وترجـع الـى القـرن الـسادس أو الخـامس قبـل المـيلاد. كمـا اكتشفت في تل (بيت يـارا) Tell Bet – Yarah عـدة قبـور تعـود الـى العـصر الكنعاني الوسيط.

عثر في خربة صالح الواقعة قـرب (رامـات راحيـل) عـام 1954 – 1955 علـى بقايا كنيس يرجع الى العهد البيزنطي، وقد تم الحفر تحت جـدران الكنـيس فعثر على آثار تعود الى مراحـل تاريخيـة مختلفـة. كـام قـام الباحـث (أ. بـن دور) وبعده الباحث (م. دوثان) بالتنقيب في منطقة العفولة حيث عثرا على عشرين قطعة أثرية صغيرة كنعانية (1).

وجـد المنقـب (الإسـرائيلي) ي. أهـارون أثنـاء التنقيـب دليلـين علـى أدوم. الدليل الأول لوحاً أرجعه المنقب الى تـاريخ 701 ق.م. والـدليل الثـاني لوحـاً

من رامات – النقب يؤرخ من 600 – 588 ق.م. واللوح الثاني هذا عبارة عن رسالة الى أحد قادة الحصون في عراد Arad والذي يأمر فيها بالانضمام الى القوات التي يأمرها ضابط اسمه (نحمياهو) لإخضاع ايلشيا Elisha وهي قلعة تسمى رامات – نقب (وتبعد تسعة كيلومترات عن عراد) لمنع الأدوميين من الوصول اليها. (2)

اكتشف الباحث ستاركي J. L. Starkey في موقع لجيش (تل الدوير) على نقش (Ostraca) في طبقة منخفضة من المدينة المدمرة. وبقراءة النقش يستدل على تبادل رسائل بين شخص اسمه (هوشعيا) وآخر اسمه (يوآش)، والرسالة من هو شعيا الذي ربما يكون قائداً عسكرياً بينما قد يكون يوآش حاكم المنطقة، وقد استدل على ذلك الباحث (جاك) J. W. Jack من تعابير التذلل والخضوع التي اتسمت بها الرسالة المكتوبة بالكنعانية (3). ويقول كاتب المقال (جانور) R. N. Gajor أن الباحثين (تورسينر) Torcyner وستاركي أرجعا هذا المكتشف الى عصر صدقيا الذي عاصر نبوخذنصر اعتماداً على:

أ) أسماء الأعلام التي ظهرت على المنقوش كانت شائعة ذلك العصر.
ب) يستدل من المنقوش وجود نبي مارس عملية التشويش على السكان في المدينة.

كما يذكر النقش اسم (ياهو) بن الناثان وقد غادر الى مصر. وقد استند البروفسور كورسينر الى سفر (ارميا 20:26 – 23) والذي يذكر أن يهوياكيم أرسل قائداً للجيش هو (الناثان بن عكبور) لاسترجاع النبي (أوريا بن شامعيا) من مصر، فالإسم ياهو الوارد في النقش أصبح عكبور عند هذ الباحث والنبي غير المعروف أصبح أوريا. مع أن النبي أوريا في التوراة ظهر زمن (يهوياكيم) وليس صدقياً. واسم (الناثان بن عكبور) لا يتماثل مع عكبور بن ناثان .والنقش هذا يشابه في خطه حجر ميشا. (1)

إذا رجعنا مع اكتشافات Sellin في تعنك (قرب جنين)، نجد الأواني الفخارية التي وجدها تشير الى أنها مدينة كنعانية معظم العصور، وقد دمرت على أيدي الفراعنة إبان حملة تحتمس الثالث، كما اكتشف إثني عشر لوحاً مسمارياً تعود للملك عشتار – وأشور وفي إحداها أوامر بإرسال جنود وعربات لمساعدة ملك مجدو (2).

أما جبعة فقد ورد اسمها بالتوراة بأشكال عدة: جبعة، جبعت، جبع، جابع وقد رأى الدكتور وليم أولبرايت التشابه بين جبعة وتل الغول والتي تبعد حوالي أربعة أميال شمال القدس حيث تأكد له أن استيطان هذه المدينة كان كنعاني ثم فلسطيني (3). وفي القدس وجدت كميات من الفخاريات والتي ترجع الى العهود اليونانية والرومانية والعربية. أما بقايا الأسوار فتعود

الى اليبوسيين من 2000 – 1600 ق.م. حتى جبل صهيون فيرجع الى الأموريين والكنعانيين (1).
سكن الفلسطينيون وقبلهم الأموريون منطقة تل الصافي (جات) وهي تبعد حوالي خمسة أميال الى الشمال من تل زكريا، وقد استدل المنقبون على ذلك من خلال مجموعة الآثار التي تم إيجادها فيها (2).

وعثر في منطقة الناشبة (في التوراة مذبح) على تمثال للآلهة عشتار، وأصبح مؤكداً أن سور المدينة يرجع الى الكنعانيين (3).

تم العثور أثناء التنقيب في بلدة (زرعين) على ما يعتقد أنه كنيس تحتوي أرضيته على فسيفساء وقد وجدت قرب المجاز مخطوطتان إحداهما بالأرامية والثانية باليونانية، أما الأرامية فطولها 1.18م وعرضها 60 سم تتضمن سبعة أسطر غير مستقيمة تنحدر ببطء الى اليسار، كما أن الأسطر غير متساوية الطول. ويرى الخبراء أنها تعود الى سنة 433 م، أما اليونانية فيبلغ طولها 1.18م وعرضها 27 سم. وتحتوي على خمسة أسطر غير واضحة البداية والنهائية، وتعود الكتابة اليونانية الى شخص يسمى بريانوس.

كما وجدت أيضاً وفي نفس الوقت مجموعة من المسكوكات تلقي ضوءاً على تاريخ الكنيس، وهذه المسكوكات تعود الى أزمان مختلفة. المجموعة الأولى تحمل اسم قسطنطين الكبير (306 – 337م). والثانية غير واضحة وقد تعود الى قسطنطين: أو ابنه. أما الثالثة فتحمل اسم ثيودوسيوس Theodosius (379 – 395م). ومسكوكتان تعودان الى عصر فلنتيناوس الثاني Valentinianus II (383 – 392م).

كما وجد وعاء عليه الطابع العربي مكون من طين ضارب الى الصفرة وقطع من الحجارة (4). ولم يعثر على أي شيء بالعبرية في هذه المدينة (زرعين).

شهدت الأعوام 1926، 1929، 1932، 1963 تنقيبات لعدة بعثات في المنطقة المعروفة في التوراة باسم (شلوه)، ولم تعثر البعثات هذه إلا على أبنية كنعانية قديمة والأبنية الظاهرة تعود الى العصر الروماني. (1)

تقع بيت مرسيم على بعد ثلاثين ميلاً على طريق مستقيم غرب حبرون (الخليل) وتعود ملكيتها الى أهالي دورا (أدوريم بالتوراة). وقد تم اكتشاف الأسوار والبوابة الشرقية لهذه المدينة القديمة، كما وجدت فخاريات محروقة أمكن تحديد تاريخها وإعادتها الى الألف الثالث ق.م. وليس أقل من 2000 ق.م. وقد بنيت على النمط الكنعاني – الأموري (2).

عثر على ثلاثة آلاف سلة من الكسر الفخارية في منطقة (بيت زور) والتي تحمل اليوم اسم (عين الدهروي) Ain-edh-Dhirweh والتي تقع عبر طريق حبرون (الخليل) – القدس، وكل الآثار هذه تعود الى الكنعانيين والهكسوس والفلسطينيين، ومنها تماثيل ترجع الى 1600 ق.م. كما وجدت بعض الأختام (3).

وإمعاناً في تزوير الحقائق نرى الباحث (وليم أولبرايت) يفسّر الكتابة على الحجر الذي اكتشفه B. Maisler وأرجعه الى العصر الهلنستي، حيث يقول أولبرايت [إن الكتابة واضحة وتقرأ: "يجآل ياهو ابن الملك" ومن الطبيعي ألا نعرفه، لكنه يشبه يجآل ابن الملك شكنيا المذكور في أخبار الأيام الأول 23:3 (4)] مع أن النص التوراتي لا يشير الى شكنيا باعتباره ملك ولكنه من نسل سليمان ومن المؤكد أنه ليس كل نسل سليمان ملوك. ومع ذلك يفسر حتى التوراة بما يخدمها.

عثر في عين دوق Ain – Duk قرب أريحا على أثر مهم مخطوط على الفسيفساء، وهو من بقايا كنيس يهودي، ويعود هذا المخطوط الى القرن الرابع أو الخامس الميلادي. وقد أرجعه بعض الباحثين الى سيمون آخر المكابيين بينما أعاده البعض الآخر الى هيرود (1).

كثيرة هي الروايات التوراتية التي تدعي تدمير المدن وحرقها على يد الموسويين، ويبدو الهدف منها إظهار قوة وجبروت الموسويين وهم يعيشون حالة القهر الناتج عن السبي، وبما أن التوراة ذاتها كتبت في جو السبي وضغطه النفسي فالاحتمال الأكثر رجحاناً أن ما ورد في هذا المضمار لا يعدو وهماً توهمه كتبة التوراة نتيجة الوضع النفسي هذا. وقد أوضح البروفسور الألماني (ارنست سيلن) Ernest Sellen ذلك عندما نشر نتائج أعماله التنقيبية في أريحا 1913 واصلاً الى نتيجة أن الكنعانيين سكان مدينة أريحا قد تعرضوا للدمرا ما بين 1600 – 1500 ق.م. عندما كانت أحد المراكز الهامة للهكسوس. بينما حركة الموسويين لم تتم إلا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وعليه فمن المحتمل أن الدمار الذي لحق ببعض المدن الكنعانية قد تم على يد الفراعنة، أثناء مطاردة الهكسوس أو أثناء إخماد ثورات العبيرو (2). وقد أكدت هذا الرأي الآثارية البريطانية (كاثلين كينون) Kathleen Kenyon التي قامت بالتنقيب حول مدينة أريحا في محاولة للعثور على أسوارها أثناء دخول يوشع – حسب رواية التوراة – وتدميره لهذه الأسوار فقد أفادت هذه الباحثة بعدم وجود أسوار تلك الفترة حول أريحا إطلاقاً، فقد كانت الأسوار قد دمرت قبل يوشع بعدة قرون. (3)

تمكنت بعثة تنقيب آثارية تابعة لجامعة تل أبيب وبمشاركة مجموعة من طلاب جامعة "فرايبورغ" الألمانية من اكتشاف أكبر قصر كنعاني، وقد تم العثور عليه في منطقة "التل الكبير" في الجليل الغربي وقد أرجعه

الأثاريون الى 3800 ق.م. وأرضية هذا البناء مزينة ببعض الرسوم النباتية والحيوانية كما اكتشفت بعض الأواني الفخارية المختلفة وأختام من الحجر (1).

أثناء أحد مواسم التنقيبات في منطقة (تل السلطان) قرب أريحا وجد المنقبون مجموعة من الفخاريات تعود الى العصر الكنعاني المبكر وتميز من هذه المكتشفات رأس تمثال فخاري يشبه النماذج التي وجدت في قرية عين غزال وتعود في ميثولوجيتها الى الإيمان بأنالإنسان خلق من تراب، وهذه الأفكار تتفق مع ما جاء في سفر التكوين بأن الله خلق الإنسان من تراب الأرض (2). فهل أخذ كتاب التوراة هذه الفكرة من الكنعانيين أم أن الكنعانيين قد أخذوها بدورهم عن سكان وادي الرافدين حيث كانت الفكرة شائعة في أساطيرهم؟

كذلك وجدت مجموعة من اللقى والفخاريات في "بيت شعاريم" على نهر اليرموك وهي تشبه مثيلات لها اكتشفت في لبنان. كما وجدت بعثة فرنسية تمثالين: الأول في (صفد) والثاني في (بئر السبع) الأول مصنوع من الطين وله عيون جاحظة مستديرة وملتح لكن بدون فم أما الأذنان فقد ثبتتا بشكل دائري، والأنف طويل نسبياً وقد أرجعه الباحثون الى العصر النحاسي المتأخر. أما التمثال الثاني فكان لامرأة، عينا التمثال غير واضحة وكذلك الفم. والأذنان خطا خطاً في الطين بينما الصدر كبير ويشكّل معظم حجم الجسم حيث يرمز الى الخصب والغذاء والحليب. (3)

وجدت دائرة الآثار الإسرائيلية نموذجاً لبيت كنعاني في منطقة (عراد) يعود الى 2000 – 1500 ق.م. كما وجدت تمثالاً على شكل عجل في Beth Ya-rah وأوان فخارية تعود لنفس الفترة (4). كما وجدت بعثة أثارية من الجامعة العبرية في القدس عام 1973 تمثالين لفتاتين في إحدى الغرف المكتشفة في (جيزر) على بعد عدة سنتيمترات من أرضيتها وهما مصنوعان من الذهب ويعودان الى الأنماط الكنعانية. وعثرت بعثة آثارية (إسرائيلية) على لوحة كنعانية في بيسان تمثّل أسد ولبوة تعود الى 1400 – 1200 ق.م. (1).

أصبحت لجيش (تل الدوير) عاصمة كنعانية في الألف الثاني قبل الميلاد، وقد ورد اسمها في عدة رسائل من رسائل العمارنة، وأثناء التنقيب فيها عثر على معبد للآلهة "إيلات" Elat وهي إحدى الآلهة الكنعانية ولقى أخرى كنعانية وأرامية. (2)

ووجدت بعثة بريطانية في (تل العجول) مجموعة من الجواهر الذهبية والفضية على الطراز الكنعاني، بعضها وجد في المدنية والبعض الآخر في القبور، وهي شبيهة بالجواهر المصرية. الأمر الذي يشير الى التأثير المتبادل بين الكنعانيين ومصر القديمة ثقافياً ودينياً. وقد وجدت بعثة من

جامعة بنسلفانيا الأمريكية قلادة ذهبية تعطي نموذجاً رائعاً لتقدم صناعة الجواهر الكنعانية (3).

وجدت بعثة آثارية مشتركة من الجامعة العبرية ودائرة الاثار الإسرائيلية مجموعة من التوابيت الحجرية وكلها كنعانية (4) وتعود الى الفترات من القرن السابع عشر ق.م. وما بعدها، وحتى الآثار التي تعود الى القرن الثالث عشر ق.م. فترة الموسويين – هي في معظمها كنعانية والقليل منها فلسطيني أو أرامي، والى هذه الفترة يعود تمثال رأس المرأة الذي وجد في أشدود. وقد أكدت البعثة الأثارية من جامعة شيكاغو أن الرسوم الموجودة على هذه الفخاريات هي كنعانية (5).

ألم يعثر المنقبون على آثار يهودية في فلسطين وغير فلسطين؟ من المؤكد وجود بعض الآثار اليهودية لكن لم يعثر أحد حتى الآن على أي أثر أبعد من القرن الثاني ق.م. أي أن أقدم أثر وجد يبعد عن العصر الذي عاشه موسى بأكثر من ألف سنة.

---

(1) Fred V. Winnett, The Annual Of The American School Of Oriental Research Vols 36-37

(1) Ibid.

(2) Max Miller, P.E.Q. January – June 1974

(3) J. Liver P.E.Q. January – June 1967

(4) Palestine Exploration Society No 1 July 1871

(1) ربما تكون الكرك

(2) يرد اسم عمري بصيغة بيت عمري. كما لم يرد بصيغة ملك. ولم يرد إطلاقاً إسم إسرائيل ومملكة إسرائيل.

(3) ربما الشراه.

(1) Sh – Yeivin, A Decade Of Archaeology in Israel 1960

(2) Michael Avi – Yonah, Encyclopedia of Archeaological Excavations in the Holy land P 12

(3) Ibid P. 213

(4) بنيامين مزر بيت شعاريم ص 132 (عبري)

(5) المصدر السابق.

(1) Sh. Yeivin, A Decade of Archaeology in Israel 1948 – 1958

(2) Ibid.

(3) N. R. Ganor, P.E.Q. July – Dec 1967

(1) N. R. Gonor, P.E.Q. July – Dec 1967

(2) G.A.F. Knight, Nile And Jordan P. 219

(3) J. Garroz Duncan, Diggin Up Biblical History Vol 1 P 181

(1) Ibid P 200

(2) Ibid P 216

(3) Ibid P 218

(4) Eleazer L. Sukenki, The Ancient Synagogue Of Bethh Al Pha P

(1) Marie – Louise Buhl, Shiloh 1969 P 60

(2) W. F. Albright, B.A.S.O.R. Number 23

(3) Ibid Number 43

(4) Ibid.

(1) B.A.S.O.R. Number 58

(2) W. F. Albright B.A.S.O.R. Number 58

(3) Jerusale, Post 25 – 2 – 1990

(1) Treasures of the Holy Land New York 1986 P. 48

(2) Ibid. P. 60

(3) Ibid. P. 98

(1) Ibid P. 104

(2) Ibid. P. 115

(3) Ibid. P. 122

(4) Treasures of the Holy Land New York 1986 P. 128

(5) Ibid. P. 155

الآثار ذات الطابع اليهودي

إضافة الى دائرة الآثار الإسرائيلية، كمؤسسة أعطيت الطابع "العلمي" لتخدم هدفاً سياسياً في إثبات أطروحات التوراة "تاريخياً وأثارياً" تولى المسؤولون الصهيونيون أدواراً بدافع ذاتي محض أو أيديولوجي عقائدي وندبوا أنفسهم كباحثين أثاريين لهذا الغرض بالذات، ومن هؤلاء الزعماء برز اثنان هما (موشي دايان) وزير الدفاع السابق و (يجئال يادين) نائب رئيس الوزراء والقائد العسكري المعروف.

قاد (يجئال يادين) بعثة أثارية الى المنطقة العربية القريبة من البحر الميت التي تدعى (مسعده) والمعروفة لدى اليهود باسم (الماسادا) حيث يصف يادين العمل: "عندما وصلت البعثة الى غرفة الحمام (!!) وجدت ثلاثة هياكل عظمية الأولى لرجل في العشرين من العمر وبجانبه مئات من القطع الفضية التي تزين بها الدروع عادة، وجعبة سهام، وكتابات عبرية، وبالقرب من هذا الهيكل، هيكل عظمي آخر لامرأة شابة، وشعرها كان مضفوراً بطريقة جميلة ولونه أسود فاحم. والى جانبها حذاء نسائي كان شائعاً في ذلك الوقت والهيكل الثالث كان لطفل" (1). وبالقرب من موقع التنقيب عثر على مئات من قطع النقود وبعض اللقى التي تعود الى العهد الروماني والبيزنطي (2)، وفي غرفة المخزن وجدت مجموعة كبيرة من الجرار وبقايا الطعام. (3)

بعد أن عثر أحد الأطفال العرب – بالصدفة على مخطوطات في أحد كهوف التلال الواقعة على شاطئ البحر الميت عام 1947، قامت الدنيا – ولم تقعد حتى الآن – واعتبر هذا الاكتشاف من الإنجازات التاريخية العظيمة التي سترسخ المفاهيم الصهيونية – التوراتية ويعطي الحجة المادية على

تلك الأطروحات وغدت هذه المخطوطات التي أصبحت تعرف "مخطوطات البحر الميت" من أكثر الاكتشافات التي أخضعت للدراسة والبحث، فصدرت مئات الكتب في أطراف الأرض الأبعة تؤذن "للحقيقة التوراتية" المتجسدة بهذه المخطوطات حتى أنها خطفت الأضواء وحولتها عن "مخطوطات الجنيزا"، والتي عثر عليها أثناء ترميم كنيس عزرا بالقاهرة عام 1896. ومكتشفات الجينيزا لقيت في حينه من الاهتمام الشديد حتى درس كل سطر أو حرف فيها، لكن هذه المخطوطات – أي الجنيزا – تعود الى الفترة من القرن التاسع حتى الثاني عشر للميلاد.

وجدت مخطوطات البحر الميت ملفوفة بقماش من الكتان وموضوعة في جرار مغطاة بطبقة سوداء من الشمع. ومعظم المخطوطات لم تكتب بالعبرية بل بالفينيقية والأرامية، ووصفها أحد الباحثين بأنها "لغة سورية قديمة". وباختبارات الراديو – كاربون Radio-Carbon على الغطاء الكتان تبيّن أن عمرها يتراوح بين 168 ق.م. – 233 م (1).

وبدراسة مخطوطات البحر الميت وجدت عدة أسفار من التوراة بينها سفر اشعيا، كما لم يعثر على أي قطعة من سفر (استير). وقد ارتأى الباحثون أن هذه المخطوطات ترجع الى الفرقة الدينية المعروفة باسم "الإسينيين" واستنتجوا ذلك من وجود مجموعة من القبور لذكور ليس بينها نساء، وبسبب عدم وجود سفر (استير) وعدم وجود نقود ترجع الى هذه الجماعة التي تأثرت تأثراً كبيراً بالفلسفة الفارسية القائمة على الصراع بين عنصر الخير والشر وكما يظهر في النص التالي الذي وجد ضمن مخطوطات البحر الميت (2):

1- [هذه طقوس دينية] لكل المجتمع، نساء ورجالاً وأطفالاً من أجل،
2- المشاركة في السعي نحو الله، ومعرفة السر الإلهي وتكريس النفس لعمل كل ما هو صحيح وحسن،
3- لله ومحبة كل شيء
4- اختاره الله، وكره الأشياء التي
5- لا يحبها الله، بالابتعاد عن الشرور. وعمل كل المآثر الجميلة وممارسة الحق والحقيقة،
6- والعدل في الأرض، والابتعاد عن الجحود،
7- والروح الشريرة، والعيون الشهوانية. فكل من يكرّس نفسه للعمل الإلهي سيكون
8- طرفاً في العهد الإلهي، ويستحق صداقة الله، وبالتالي التوحد أو المشاركة في نصائح الله والعمل.
9- يوحي الخير ومحبة أبناء.
10- النور، الملتزمين بأوامر الله، وكره أبناء الظلام المجرمين.
11- الذين يثيرون انتقام الله وغضبه، كل الذين يكرسون أنفسهم للحقيقة فيضعون عقولهم وقوتهم.

12- وخصوصياتهم للتوحد مع الله. وإيمانهم بقضاء الله والمشاركة
13- بقوتهم ليرتقوا نحو الكمال والهدى. و[مباشرة] كل خير بناء على نصائح الذات الإلهية.
14- دون انتهاك الوحدانية في وجودهم، وعدم التسرع في حياتهم أو التلكؤ
15- خلق كل أسباب قداستهم، كي لا ينحرفوا عن
16- السر الإلهي، يميناً أو يساراً، فكل الذين يدخلون في أمر التوحد.. سيدخلون العهد
17- تذكروا الله عند كل عمل. وعدم الانحراف عن هديه
18- الخوف والرعب والمحن مبعثها الشيطان. ومن يدخل
19- العهد سيكرسه اللاويون .. مقدساً وتلك بعض حكم الله ومآثره
20- وسيقول من دخل العهد، آمين ، آمين
21- والكهان يعرفون أن حقيقة الله
22- تتضمن الخير
23- واللاويون سيكررون مقولاتهم، خطيئة أبناء إسرائيل وجرأتهم على الله
24- وآثامهم، من الشيطان
25- وسيقولون: لقد أفسدنا أنفسنا، وعملنا الشرور لأننا نسينا
26- حقيقة السر الإلهي، ومعرفة الله تحقق العدالة لنا ولأبنائنا

لقيت فرقة الأسينيين اهتماماً كبيراً من قبل دارسي العهد الجديد خاصة في القرنين الثان عشر والتاسع عشر الميلادي، فإلى جانب الفريسيين والصادوقيين أخذت هذه الفرقة موقعها لكن أهم ما يميزها النظام السري الذي اتبعته في كسب المؤيدين بعد أن يحلفوا قسماً على ذلك (1).

اكتشف في (تل المصطبة) عام 1962 وعلى بعد 280 م عن أسوار المدينة البيزنطية لبيسان (بيت شان) على الكنيس رقم 1 ويعود الى الفترة 626 – 640 ميلادي أما الكنيس رقم 2 فقد كان عبارة عن غرفة مربعة تعود الى نفس فترة الكنيس الأول (2).

وتم اكتشاف بقايا جدران لكنيس مكتوب عليها باللغة العبرية في (بيت شعاريم) (الشيخ بريك) في منطقة الجليل، ويعود هذا الكنيس الى القرن الرابع الميلادي، كما وجدت بقايا لقبور محيطة بالكنيس تعود الى نفس الفترة الزمنية، أما الزخرفة والتماثيل فمأخوذة من الفن الروماني، كما وجدت بعض اللقى عليها كتابة باللغة الأرامية (1).

معظم الذين تعاطوا السحر، يكتبون لأتباعهم باللغة الأرامية، وهي اللغة التي استعملها اليهود واشتقوا منها اللغة العبرية. وقد استعملت (الطاسات) كأداة سحرية تكتب عليها بعض الأدعية اللازمة للسحر. وقد اسعمل اليهود هذه الطاسات نتيجة تأثرهم الكبير بالبابليين، وبصورة عامة

بالعادات السحرية في الشرق الأدنى القديم، والكتابة على مثل هذه الطاسات تتحدث عن الشيطان كما ورد في الملوك الثاني 22، ارميا 36، وقد وجدت نماذج من هذ الطاسات في نفر (قرب بابل)، عربستان، همذان، نهاوند، وقد كتبت عليها الأدعية التي تعوذ بالإله يهوه من الشيطان (2).

ومن المرجح أن تاريخ بعض اللقى الفخارية الموجودة الآن في متحف تورنتو والتي اكتشفت في نفر في العراق: وعليها كتابات باللغة العبرية تعود الى الفترة التي وجد فيها التلمود البابلي (القرن الخامس أو السادس الميلادي) فقد وجدت هذه اللقى تحت أرضية البيوت المهدمة وهي – أي اللقى – في وضع مقلوب لأسباب تعويذية. (3)

لم يجد الباحثون الآثاريون الذين عثروا على (طاسات) يهودية كتابات على جوانبها الخارجية، وإذا وجدت بعض الكتابات الخارجية فإنها تكون مترافقة مع كتابات داخل الطاسة، مما يدل أنها عملت لدرء المعتقدات السحرية، وبذلك يكون للتعويذة غايتان: الأولى درء الأعمال الشريرة، والثانية، الحصانة من الوقوع في مصيدة الشيطان. ومن هذه الكتابات نموذجان يتضمنان تلك المعتقدات الميتافيزيقية (4).

1- ايل، ايل: أحط بنا واكفنا الشر أيها الإله، أيها السيد العالي – ارعنا يا ايلِ، وارسِل خمسة ملائكة على حميرهم
2- ارعَ بيتَ أبي، وادفع الحزن عنه، وابعد الأمراض والظلم كما كنت قد تعهدت لنا.
3- قدسي بنت مردوخ، ساجدة تحت قدميك، تلوذ بك
4- آلامنا متواصلة وأبدية، يا ايل، وسنظل بأذيالك نلوذ

1- . . . مصائب كثيرة تزخ . . .
2- نبيذ الحانات أتلف . . . ريح . . .. آه واحسرتاه
3- الحياة قذارة وآلام . . . أنقذ بيتي وداري . . .. .. أسرع يا ايل أسرع يا ايل
4- المزارع ثمارها ناضجة. وإله الخمر في الحانات يعاقر المدام. . . .. . . لينسى القهر والانسحاق
5- كتبَ وختمَ: نبيذي من الزبيب . . . وأنا أتطلع الى كسرة خبز ثم يكون حمدي وشكري
6- لتحمي النبيذ ورائحة النبيذ . . . فعهدك واسع يبعث على الإطمنان وينعش الفؤاد النواح
7- تعويذة وآهات . . . ورائحة نبيذ نفاذة من يدك فاعصمنا بغضبك
8- . . . . متى يكون شرب الخمر، واأسفاه لتعوّض به نواحنا
9- الخمور ورائحتها اللذيذة، ملك يدك، احفظها واحفظ بيوتنا ونبيذنا.

النصوص التي اكتشفت في البحر الميت والتي معظمها أجزاء من أسفار التوراة أو بعض الإرشادات والأدعية التي تمارسها فرقة الأسينيين، لا تختلف في مضامينها مع تلك المكتشفة في "الجينزا"، وقد ورد نص من الجينزا يقول (1):

يا إلهي أنقذنا جميعاً
واجعل الجوييم يرتعدون
وارفع راية الشعب
لتعلو عظمتك

وتتقدس في العيون
عيون المريدين

الكل يدعو مثلما ندعو
فليس من إله سواك

كل شهر وكل سنة معجزة
فللقدير نزرع الحقيقة والايمان

المدينة غضبي وبين الشفاه لظى
فيستسلم الخصم ويصد العدوان

استعجل الأمر لجمع الشمل
ومثلي بأمرك يأتمر

السكون يعم مؤاب
وأمرك من الجميع مجاب

اجمع كل أسباط يعقوب
ليكونوا كأيامهم الغابرة

الرحمة باسمك يقرأ الشعب
فإسرائيل هو الابن الأكبر

الرحمة على المدينة المقدسة
والقدس بيتك

وصهيون حقق مجدك
والعظمة لهيكلك

يا واهب الحق والعدل
اقم النبوات تسبيحاً لاسمك

اعط الأمل بنعمائك
والأمان لأنبيائك

لتسمع في السجود عبدك
كما طلبت من شعبك

الفترة الزمنية التي أعيدت اليها كتابات الجينزا تحدد بين القرن التاسع الى الثاني عشر الميلادي وهي فترة طغى عليها الطابع العربي، لذا من المنطقي تأثر اليهود بالثقافة والعلوم العربية، بل والدينية واللغوية: وقد وجدت عدة مخطوطات في "الجينزا" مدونة باللغة العربية لكن بأحرف عبرية، ومن مجموعة الوثائق التي نشرها Richard J. H. Gothell (1): وتتعامل بالطب والعلاج، كتبت باللغة العربية وبأحرف عبرية. ومثل هذه المخطوطات التي وجدت في الجينزا لم يعثر على ما يشابهها ضمن وثائق البحر الميت، وسأعيد النص الى أحرفه العربية، كما ورد باللفظة:

المرض البهاث
هذا نوع من الجنون، تفسيره الجنون الهياج والداء
الكَلَب. السبب المرارة الصفراء شديدة
الالتهاب أو خلط سوداوي حار متحرق. الأعراض
السهر والتفرغ والاختلاط والتوثب والعبث
الشديد والنظر الدال على الجرأة والإقدام

التدبير:
تبريد المزاج وترطيبه بشرب ماء الشعير ودهن
اللوز واستعمال ماء القرع . . . ويتعدل
الطبع بماء تمرهندي والإجاص بشراب. . .
وغذي المريض بالقرع والمماش وأمره بالاستكثار
من أكل الخس فإن كان البدن ممتلئ فاسهله
بالمطبوخ فإن لم يكن فبالحقن الملينة وبعد
التنقية (1) اعضد قواهم بلحم الفراريج والأجداء (2)
الرضع والسمك الصخوري واسقهم يسيراً من الـ
شراب بمزاج كثير واصرف عنايتك بعد ذلك الى
علاج الرأس بأن يزيل الشعر عنه وتصب على
مقدم الرأس ماء قد طبّق فيه البنفسج وورق
اللينوفر والكلف والورد والشعير المقشر
المرضوض وقشور القرع والخشخاش والتفاح
ولبن الماء الفاترة .. . المريض يلين . . .

واحلب على رأسه في منامه ليسكن حر
المريض واسقه شراب الخشخاش مع ماء الرمان

المادة الجصية وأدوات الكتابة والسيراميك والحبر التي وجدت بين أطلال الكهوف التي اكتشفت فيها "مخطوطات البحر الميت" تعود في غالبيتها الى الفترة الهلنستية،والاعتقاد السائد أن المنطقة كانت مسكونة في القرن الثاني ق.م. وتؤكد الحفريات وجود مستوطنات في منتصف القرن الأول ق.م. وحتى عام 63م (1) وقد أيد هذا الطرح عدد كبير من الباحثين منهم (سومر A. Dupent – Sommer) ووليم أولبرايت حيث اعتبروا القرن الثاني ق.م. الفترة المثالية لسكن المنطقة وهي فترة وجود الأسينيين والذين ندعوهم (الحاسديين) وقد ذكر المؤرخون: فيلو، جوسيغوس، بليني، هيبوليتوس Hippolytos أنهم كانوا يدعون الأسينيين. وقد وجدت في مكتبة (قمران) كل أسفار التوراة باستثناء سفر استير، كما وجد سفر أيوب بالأرامية ووجدت قطع من سفر اللاويين كتبت بالفينيقية (2).
الاكتشاف الذي تم قرب البحر الميت، أحدث حالة من الذهول لدى الباحثين، فهي المرة الأولى التي يعثرون بها على شيء ذو تماس مباشر بالديانة اليهودية، وحالة الذهول هذه أوقعت الكثير من المتتبعين في مصيدة التسرع والنتائج الفجة. يقول البروفسور (يوجين الريخ) Eugene Utrich من جامعة نوتردام والمحاضر في معهد روكفلر في القدس: إن ما نشر من مخطوطات البحر الميت قد تعرض للتسرع والخطأ، ولم يكن خطأ الناشرين الأمريكيين بل خطأ الباحثين أنفسهم. فقد نشر الباحثون مواضيع غير صحيحة كنتائج لتلك التنقيبات، وقد قرئت بالتالي خطأ وتسربت الى المقالات الأخرى بهذه السمة. إن 75% من المخطوطات تعتورها الشكوك، وبعد عدة سنوات من اكتشافها يتأكد ذلك. وأول من يتحمل ذلك الباحث (جوزيف ميليك) Joseph Milik الذي عمل عشرات السنين في مهمة دراسة هذه المخطوطات والتي كان يدفعها الى باحثين مبتدئين. (3)

درس (يوجين الريخ) ست كسر من مخطوطات البحر الميت، محاولاً قراءة أحرفها الآخذة بالاضمحلال. خمس من الكسر تتضمن من حرف الى سبعة حروف. والقطعة الأكبر (السادسة) حجمها أقل من 5/4 سم وتبدو لأحرف جميعها يونانية. هذا الاكتشاف يدل على أنها مقتبسة من التوراة ليونانية، مما يدل على أن الأسينيين قد استعملوا التوراة اليونانية، فسفر التثنية – ضمن المخطوطات – كتب باللغة اليونانية كما تفعل الطائفة الأرثوذكسية لمتطرفة الآن في (مائة شعاريم) (1) حيث تتكلم الإنجليزية، ويؤكد الريخ أنه حتى بداية المسيحية ظلت اللغة اليونانية هي لغة أسفار التوراة والى عدة قرون تالية (2). هنا يكمن نقده للباحثين التوراتيين حيث ظنوا المخطوطات الأرامية أنها عبرية.

اكتشاف آخر أحدث لغطاً كبيراً وجد في الأردن هو مخطوط "عراق الأمير" قرب مدينة عمان وقراءة اسم توبيا على النقش لجأ الباحثون الى تتبع مصادر الإسم أو الذين سموا باسم توبيا Tobiah. وقد ورد الإسم زمن فيلاديلفيوس الثاني (3) Philadelphus II (258 – 246 ق.م.) وهي ضمن فترة البطالسة. وقد ذكر الاسم على بردي زينون Zenon Papyri وجاء في Antiquities XII. 160 – 236 ذكر لإسم توبيا (يوسف بن توبيا) زمن البطليمي أورجنس الثالث Eargetes (246 – 221 ق.م.) حيث قاتل ضد أشقائه الأكبر وبعد اندحاره تراجع عبر الأردن ومكث هناك حتى وفاته ويسمى "الامكان قصر العبد" في موقع عراق الأمير. ومن المرجح أن النص المنقوش يعود الى أسرة وليس الى فرد، كما أن تطور المخطوط يشير الى عائلة لها امتداداتها الفينيقية – الأرامية الأمر الذي يفسّر حالة التطور الظاهرة قياساً بمخطوط حجر ميشا الكنعاني (الفينيقي).

منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وحتى عام 1937م كانت الطبعة الأساس في النموذج العبري للكتاب المقدس الذي طبع من قبل (يعقوب بن حاييم) ونشره في فينيسيا (دانيال بومبيرغ) Danial Bomberg 1524 – 1525م. لكن البروفسور (باول كاهل) Paul Kahle اكتشف أقدم نموذج في المكتبة الشعبية الروسية في لينين جراد عام 1926. وأعاد (رادولف كيتيل) Radolf kittel عام 1936 أقدم نص الى عام 1008م. والنص الموجود في لينين جراد يتضمن معظم المزامير التي أرسلت الى هناك في الربع الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي بواسطة أبراهام فيركوتش Abraham Firkowitch من كنيس عزرا القديم في القاهرة (الجينزا). أما المخطوط الذي وجد في حلب والموجود حالياً في (إسرائيل) يؤرخ في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ويحتوي على معظم المزامير. ونص من أقدم المخطوطات التوراتية جاءت من مصر، ولكن ليس من الجينزا

الفصل السابع
مقدمة

لم تعرف الديانة اليهودية – أفكاراً وطقوساً – المتكاملة إلا بعد فترة السبي البابلي 586 ق.م.، حيث بدء بكتابة أسفار التوراة وهيكل بناء الديانة بمناسكها وفكرها ونهجها وأهدافها، فالموسويون لم يشكّلوا أطراً واضحة فيما يسمى دين، قبل فترة السبي وكل ما نعرفه عنهم عبادتهم للإله يهوه – كما جاء بالتوراة – رغم أن الأدلة تشير أن هذا الإله نفسه استعير من سكان صحراء سيناء (الكنعانيين). وعبادة الآلهة كانت تشكل لدى الأمم والشعوب السمة الدينية الأولى في تفكيرهم والتي تطورت بشكل ملحوظ عند المصريين والبابليين والفينيقيين. وكانت الأضاحي (الحيوانية والبشرية أحياناً) تحدد أسلوب التقديس الذي لا بد من تعميقه كلما احتاج الإنسان لقوى ميتافيزيقية تحميه من عواتي الطبيعة.

والخوف الميتافيزيقي هو جوهر الدين بالإطلاق، به ابتدأ الإنسان تساؤلاته الفلسفية الفطرية فكان لا بد من الوصول الى النتائج في أطرها الفكريةز ومع حالة تراكم التساؤلات واكتسابه القدرة على ملكة النقد والفهم والوعي. وهو ما يمكن تسميته بالتطور الفكري، بدأت تظهر النوازع الذرائعية التي تبحث عن العلة والأسباب وبالتالي تبلورت فكرة الإله.

إن حالة التطور هذه نلمسها في الديانة المصرية وديانات وادي الرافدين وديانات بلاد الشام، لكنها تنعدم تماماً في الديانة التوراتية، حيث بدأت بحدها الأقصى كديانة طوطمية متداخلة مع عبادة الأصنام وهي قريبة العهد من الديانات التي عمت الشرق الأدنى في حالاتها المتقدمة.

لقد كانت الأحداث التي شهدتها مصر وبلاد الشام ووادي الرافدين ثمينة جداً لكتبة التوراة الذين كانوا على تماس مع هذه الأحداث فاتخذوا الكتابات الأشورية والبابلية باللغة المسمارية مفتاحاً للعمل، وفي تلك الفترة اطلع رجال الدين التوراتيون على أسرار الكتابة المصرية الهيروغليفية، (1) وهذا ما نلمسه في سفر التكوين حتى الإصحاح الثاني عشر والذي يتعامل مع قصة إبراهيم على أنها تراث خاص مع أنها استمرار للتراث المصري والعراقي (2). وقبل إبراهيم كانت الأنساب التوراتية كلها لأماكن جغرافية أو قبائل أو أنها ترجع الى عالم خرافي أو الى الميثالوجيا البابلية المأخوذة بالاحتكاك المباشر أو غير المباشر مع الحياة اليومية (3).

هل يمكن الوصول الى معلومات من قصة إبراهيم والدور المهم الذي قام به ذلك التاريخ؟ لقد تعامل إبراهيم – حسب التوراة – مع فرعون لكننا لا نعلم أي فرعون، وكل ما ترسمه التوراة من أحداث هذه القصة لا يتطابق مع المكتشفات في مصر والعراق، بل ليس من علاقة بين إبراهيم والآثار المكتشفة (4).

وليس بخافٍ على أحد أن التوراة أشارت الى عبادة مجموعة من الآلهة من قبل الموسويين وهذه الآلهة كانت شائعة في المنطقة أشهرها: ايل، بعل، يهوه، ايلوهيم، تموز، مع التركيز على الإله يهوه الذي كان يعبده المديانيون على تخوم صحراء سيناء. فلماذا يهوه بالذات؟ إن ظروف السبي النفسية وحالة الإحباط التي لاقتها هذه الشريحة من البشر، جعلتهم أكثر سعياً وراء التوازن الانفعالي باللجوء الى إله له سمة القسوة والعنف والجبروت، فكان اختيار هذا الإله الصحراوي كحالة تعويضية، وهم في الحقيقة لم يعبدوا يهوه بل استعاروه وهم في بابل، وهو إله ثانوي في بلاد الشام وغير معروف في بلاد الرافدين.

اختير يهوه كإله للتوراة بعناية فائقة رغم عدم أهميته على الصعيد الديني في الشرق الأدنى، فاختاره كتبة التوراة إمعاناً في الشعور بالتميز. وقد ورد

اسم يهوه تحت أسماء (ياو) و (يو) في لوح مسماري يعود الى الألف الثالث ق.م. وجد في تل تعنك (قرب جنين) يقرأ عليه اسم (أهي ياهو) ويظهر اختصار الإسم (يو) على ايادي الجرار في عصور تالية. كما ورد الإسم (يو) في نصوص أوغاريت.

---

(1) Werner Keller, The Bible As History 1957 P 122

(2) Herbert G. May, Oxford Bible Atlas, P 105

(3) Ibid

(4) Ibid

الديانة اليهودية (التسمية)

استعمل مصطلح "يهود" أو "يهودي" أول مرة من قبل البابليين إشارة الى من جيء بهم من يهوذا (1) (وهو الاسم الكنعاني لمنطقة أور-شليم). وهذا الأسلوب كان شائعاً قديماً كما هو الحال الآن، حيث يطلق على من جاء الى فلسطين من مصر بالمصري ومن جاء الى العراق من الشام بالشامي ومن جاء الى سوريا من العراق بالعراقي. . الخ وقد وردت مثل هذه التسمية وبهذا المعنى على لسان سنحاريب (705 – 681 ق.م.) أثناء وصفه لانتصاراته على يهوذا حيث أشار الى "حزقيا اليهودي" أي الذي أحضر من يهوذا.

لفظة "ديانة يهودية" لم تظهر في المراحل الأولى من كتابة الأسفار، فالإسم إضافة الى البنية العقائدية لليهودية جاءت متأخرة عن السبي ولم يبدأ الحديث عن "الديانة اليهودية" إلا بعد القرن الرابع قبل الميلاد. فالديانة اليهودية كما نعرفها تكونت في بابل أثناء السبي (586 – 538 ق.م.) وتطورت بعده، وكان التطور الفعلي إبان فترة الحكم الفارسي وحتى غزو الاسكندر لبلاد فارس (538 – 330 ق.م.) ويصل النضوج شبه الكامل في الفترة اليونانية والرومانية وهي المعروفة بمرحلة "المكابيين".

فإذا كانت بداية كتابة التوراة ووضع خطوطها العامة قد بدأت إبان الدولة البابلية فإن عدة أسفار كتبت متأخرة جداً وفي فترة الحكم السلوقي مثل كتاب دانيال (في حدود 168 – 165 ق.م.) وكذلك جملة من المزامير تعود الى هذا العهد. أما سفر أشعيا فلا يبعد أكثر من (100 ق.م.) وكذلك سفر أيوب.

تأثرت الديانة اليهودية تأثراً كبيراً بالديانة الفارسية (الزرادشتيه) فموضوع النور والظلام كألهين يسيطران على العالم ووجود الشيطان والملائكة أخذت من بلاد فارس، وقد وردت ضمن مخطوطات البحر الميت أمثلة على هذا التأثير.

بعد اندحار الجيش الفارسي بقيادة دارا الثالث (336 – 330 ق.م.) قرب خليج الاسكندرية توالت انتصارات الاسكندر، فخضعت له معظم المدن الفينيقية مثل ارواد، جبيل، وصيدا وصور التي قاومت بضراوة. ثم فتح مصر، ثم عاد الى بابل ومات هناك. وبعد موته انقسمت امبراطوريته الى أربع ممالك، فصارت مصر من حصة بطليموس وبلاد بابل من حصة سلوقس، وملك انتيكونس في آسيا الصغرى، مملكة مقدونيا. أما بلاد الشام فقد الحقت بادئ الأمر بآسيا الصغرى. وبعد معارك بين سلوقس وبطليموس متحدين وصاحب آسيا الصغرى الحقت فلسطين عام 312 ق.م. بملكة بطليموس وبنفس العام استعاد سلوقس بابل التي كان قد فقدها. وفي 301 ق.م. احتل جزءاً من آسيا الصغرى وجمع بلاد سوريا من الفرات الى البحر المتوسط، وقد بنى مدينة أنطاكيا على نهر العاصي وسماها باسم أبيه (أنطيوخوس) وصارت مركز الحكم السلوقي في سوريا. وقد عد عام 312 بداية الحكم السلوقي في سوريا وصاروا يلقبون أنفسهم (ملوك سوريا). كما حذا سلوقس حذو الاسكندر في تحويل الشرق الى الهلنستيه.

استجاب اليهود في فلسطين للثقافة الإغريقية وتعاونوا مع السلوقيين الى درجة أنهم منحوا سلطات كبيرة تابعة لليونانيين (1). وفي فترة حكم (انتيوخس الرابع 715 ق.م.) تغيرت هذه السياسة واتخذ الامبراطور موقفاً متشدداً من اليهود، في سنة 169 ق.م. دمر الهيكل واستولى على موجوداته، الأمر الذي أثار اليهود. ثم حوّل الإغريق هذا المكان لعبادة (زيوس) (2). وفي سنة 167 ق.م. حصل تمرد يهودي في قرية مودين Modin (تقع على بعد 17 ميلاً الى الشمال الغربي من القدس والى الشرق منها يقع اليوم مطار اللد) قاده حاخام يهودي اسمه متاثياس Mattathias الذي يرجه نسبه الى عائلة الحسمونيين وكان له خمسة أولاد: يوحنان، سيمون، يهوذا، العازار، يوناثان (1) وقد التفت طائفة الحاسديين حول متاثياس الذين أخذوا يهاجمون القوات اليونانية (السلوقية). وبعد بضعة أشهر مات متاثياس وانتقلت الزعامة الى ولده يهوذا الذي لقب نفسه مكابي (أي المطرقة) وعرف أتباعه بالمكابيين. وقد قتل اليونانيون يهوذا بالقرب من بلدة إلسا Elsa (على بعد 12 ميلاً الى الشمال الغربي من القدس). فأصبح شقيقه يوناثان زعيماً عام 160 ق.م. ورسخ التعاليم اليهودية وسعى الى نشرها (2). وقد وطد علاقاته مع السلوقيين، فدخل القدس سنة 152 ق.م. ككاهن أعلى وحاكم باسم السلوقيين (3) وأصبح يعرف باسم الملك ديمتريوس Demetrius. وبعد موت

ديمتـــرويس حكـــم أخـــوه ســـيمون عـــام 141 ق.م. واســـتمرت أســـرة الحسمونيين حتى انتصار الرومان عام 63 ق.م.

أيد اليهود الرومان ونصبوا أسـرة يهوديـة لمـساعدتهم فـي حكـم فلـسطين بـدلاً مـن أسـرة المكـابيين (الحـسمونيين) صـار مـنهم ملـوك تـابعون لرومـا اشتهروا باسم "هيرود". وأشهرهم هيرود الملقب بـالكبير الـذي حكـم مـن 40 – 4 ق.م.، ويقـال أنـه شـهد ولادة المـسيح فـي الـسنة الأخيـرة مـن حكمه. وقد نجح هـذا الملـك الـى حـد كبيـر فـي نـشر الثقافـة الرومانيـة – الهلنستية، وقد وجـه عنايتـه الـى مدينـة الـسامرة وأعـاد تـسميتها باسـم سبـسطيه (أي مدنيـة أوغـسطس) كمـا أنـه اشـتهر بأنـه قاتـل يوحنـا المعمدان.

أشعل اليهود لأسباب دينية فتيـل التمـرد عـام 66 – 70م أثنـاء حكـم نيـرون فقـضى علـى هـذا التمـرد القائـد (فسبـسيان) Vispasian، وبعـد اسـتلامه عرش روما أكمل قائده (طيطوس) أحكام قبـضته علـى فلـسطين عـام 70م وخـرب مدينـة القـدس بالكامـل. وبعـد هـذا الحـادث بحـوالي 62 عامـاً ثـار (سيمون بركوكبـا) فـي عهـد هـدريان سـنة 132 – 135م فـسحق هادريـان العصاة بقسوة وحوّل القدس الى مستعمرة رومانية.

إن تقبل الناس لادعاءات اليهود في تاريخهم القـديم مرجعـه احتكـار اليهـود "المدونات التاريخية" لأنفسهم، فلما كانت التوراة هي الكتاب الوحيد الـذي جمع علوم التـراث الإنـساني فـي قلـب العـالم القـديم الـسومري والأكـدي والبـابلي والأشـوري والفينيقـي والمـصري والفارسـي والحثـي واليونـاني واحتكار كل هذا التراث وكأنه تراثهم مضافاً الى ذلك الهالة المقدسـة التـي لف بها هذا الكتاب جعله المرجع الـدنيوي والـديني لمعظـم الأفكـار الدينيـة التي تعم العالم اليوم، وهذا العامـل بالـذات هـو الـذي يعيـق النظـر للتـوراة بموضوعية، مع تكشـف أسـرار العالم القـديم الـذي ترافـق مـع فـك طلاسـم ورموز الهيروغليفية والمسمارية وبـاقي اللغـات القديمـة حيـث اتـضح مـدى "اقتباس" التوراة من تراث الآخـرين، الـى درجـة لـو جـردت التـوراة مـن هـذا التراث لغدت مجرد لطخات حبر على ورق.

تاريخ الشـرق الأدنى المدون اليوم مأخوذ فـي معظمـه مـن التـوراة، مـع أن المعلومات آخذة بالابتعاد عـن الحقيقـة. فالكتابـات التـي تـسطرها الأسـفار الخمسـة الأولى من العهد القديم، منها ما هو أسـطوري أو أخبـار يـستحيل إثبـات صـدقها ومعهـا يـصعب وضـع هـذه المعلومـات فـي إطارهـا التـاريخي العلمـي، وقـد يكـون الأجـدى إدراجهـا فـي مجـال الأسـطورة أو الروايـات الخيالية، وهي بالإجمـال ينقـصها الـدليل والـسند التـاريخي، حتـى الوصـايا العشر التي يعتقد البعض "ما تبقى من التوراة" بعيدة كل البعد عن هيئتهـا الأصلية. (1)

الإله يهوه أو الألوهيم في التوراة بعيد كل البعد عن التنزيه. فهو له يتسم بصفات إنسانية، يعقد "العهود" ويسير مع "شعبه المختار" يخدمهم ويحارب دونهم، يتحدّث معهم، ينفعل فرحاً وغضباً، هذه الصفات مأخوذة من ديانات العالم القديم وخاصة الصفات التشبيهية المسقطة على الآلهة البابلية.

ويقصد بالتشبيه أن البابليين نسبوا الى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية كالصورة والأعضاء والفكر والرأي والعواطف عند الإنسان. فقد تصور البابليون آلهتهم على صورهم وشبههم. ومن مظاهر التشبيه أنهم نسبوا الى الآلهة حتى الأوضاع السايسية التي كانت في بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ، مثل عزوهم الى الآلهة مجالس الشورى المقدسة، وكان لكل إله حاشية وسراري وأولاد وهي تعيش وتأكل، ومع ذلك فقد ميزوا الآلهة عن البشر بصفة فارقة وهي الخلود. ومما يجدر التنويه اليه الفرق البارز بين تمثيل قدماء المصريين لآلهتهم وبين تمثيل سكان وادي الرافدين، فنجد الآلهة المصرية كثيراً ما تمثّل بهيئة كبش أو ابن آوى أو التمساح أو البقرة. وقد يكون لبعض الآلهة البابلية حيوانات مقدسة خاصة بها ولكن الآلهة لا تمثّل بصورها على غرار الطريقة المصرية. لذا فإن التشبيه في الديانة اليهودية مأخوذ من البابلية بالدرجة الأساس.

---

(1) Lady Megnus, Outline Of Jewish History From B.C. 586 – C.E. 1885 P. e

(1) Toddy Kollek And Pearlman, Jerusalem, 1968 P. 85

(2) Ibid.

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(1) Abba Hillel Silver, Mosses And The Original Torah P. 76

جاء في أسطورة الخلق البابلية أن الآلهة "خلقت الإنسان ليعبدها" (1) وإذا ما قصر البشر في واجباتهم تجاه الآلهة فإنهم يجاوزون بعقاب شديد – في هذه الحياة – حيث الثواب والعقاب.

الجدير بالملاحظة أنه يسهل علينا رؤية الخيوط الواصلة بين القصص البابلية وأسفار العهد القديم ولا يصعب علينا أن نجد العلاقة بينها وبين القصص المصرية فلقد كان في تطور الشرق الأدنى القديم تشابه عام بين أجزائه.

لنأخذ عبارة من "كتاب الموتى" والتي تنص على ظهور رع – اتوم الإله الخالق منفرداً لأول مرة: أنا أتوم عندما كنت وحدي في نون (المياه الأولى)، أنا رع في ظهوره (الأول) حين بدأ يحكم ما صنع . . . ما معنى ذلك؟

إن رع عندما بدأ يحكم ما صنع معناه أن رع بدأ بالظهور كملك، كمن وجد قبل أن يرفع شو (إله الهواء) السماء عن الأرض . . ويستمر النص في التأكيد أن الإله خلق ذاته ثم راح يخلق "الآلهة التي تتبعه" وهو على الاربية الأولى. والرمز الهيروغليفي الذي يعني الرابية الأولى يعني أيضاً (ظهور مجيد) ورسمه مرتفع محدودب تنطلق منه أشعة الشمس صعداً فهو يصور بذلك معجزة ظهور الإله الخالق لأول مرة. (1)

النص الذي ذكرناه يجعل الخليقة على مرتفع في مدينة (هرموبوليس) موطن بعض الآلهة ممن وجدوا قبل الخليقة، غير أن التناقض في وجود سبق الخلق لن يقلقنا هنا (2) لأن أسماء هذه الآلهة تنبئ أنها تمثّل تلك الهيولي التي لا شكل لها والتي وجدت قبل أن يجعل منها الإله الخالق شكلاً ونظاماً. وعلينا أن نحدد مصطلح (الهيولي) بعض الشيء، لأن آلهة ما قبل الخليقة هذه تقسم الى أربعة أزواج: إله وإلهة (زوجته) لكل صفة من صفات الهيولي. لقد بقيت هذه الأزواج الإلهة تعرف بالأساطير (بالثمانية) الذين كانوا قبل البدء وهم: (نون) الحياة الأولى وقرينته (ناونت) التي صارت فيما بعد السماء السفلى، و(حوح) اللاشكلية المطلقة وقرينته (حاوحت)، و(كوك) الظلام وقرينته (كاوكت) و (أمون) أي الخفي، ممثل الفوضى التي لا تلمس ولا تدرك، وقرينته (أماونت). وهذا ما اقتبسه سفر التكوين في قوله من أن قبل الخليقة "كانت الأرض خربة وخالية وكانت الظلمة على وجه الغمر"، وحوح-أمون اللامحدود واللامدرك توازيان تقريباً لفظتي (توهو وفوهو) خربة وخالية في سفر التكوين. كما أن كوك الظلام ونون الهاوية شبيهان ولا ريب "الظلام على وجه الغمر" التوراتية.

شُغل سكان العراق الأقدمون كما شُغل غيرهم بقضية أصل الوجود، وقد نشأ عن الكهنة في العراق القديم وأصحاب الرأي والمعرفة منهم مذاهب وعقائد مختلفة حول أصل الوجود، وقد خلفوا لنا هذه الآراء بهيئة ملاحم

شـعرية وقـصص وأسـاطير دونوهـا علـى ألـواح الطـين، وقـد جاءتنـا مـن السومريين والبابليين نماذج من هذه الآداب الدينية:

يستدل من قصة الخليقة البابلية أن المياه الأولى كانت المادة الأولى التي ولدت منها جميع الأشياء. وكانت هذه المياه الأولى مـشوشة ومؤلفـة مـن عنصرين من الماء مختلطين، الماء العذب (وهو العنصر المذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث) وقد جسم البابليون هـذين العنـصرين مـن المـاء وعـدوهما إلهاً وإلهة وهما (ابسو) و (تيامه) ومن هـذين الإلهـين الأبـوين ولـدت جميـع الآلهة. وقد فصل الإله مردوخ جـسم تيامـه وكـون مـن نـصفه الـسماء ومـن النصف الثاني الأرض. ثم خلق الكواكب والنجوم وخلـق بالاشـتراك مـع أبيـه الإله (ايا) الإنسان من دم أحد الآلهة.

وفـي روايـة أخـرى عـن الخليقـة أن الإنـسان خلـق مـن دم إلـه ومـن تـراب الأرض، والظاهر أن خلق الإنسان قد جاء بعد خلق الكون والحيوان والنبـات، ثم خلقت الأشياء الأخرى الخاصة بالعمران البشري من فلحٍ وزرع ومدن.

وجاءت آراء أخرى في القصة السومرية القديمة حول أصل الوجـود والأشـياء ولكنها وردت بما نسميه أساطير دينية، أي أنها وردت بلغة الأساطير ولكننـا نستطيع استخلاصـها مـن غلافهـا الأسـطوري الـديني، وإذا مـا فعلنـا ذلـك وجدنا أن الآراء التي خلفها لنا أولئك المفكرون الأوائل لـم تكـن سـاذجة بـل كانت في الواقع محاولات فلسفية جريئة في التفكير في هذا الكـون وأصـل الوجود والأشياء.

وبالنتيجة فإن ما جاء في سفر التكـوين لـيس إبـداعاً أو خلقـاً وإنمـا تـسرب عن حضارة وادي الرافدين أو وادي النيل التي سـبقت تـدوين التـوراة بـآلاف السنين.

---

(1) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات الجزء الأول ص 229

(1) جون أ. ولسون ما قبل الفلسفة ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ص 67.

(2) المصدر السابق.

الإيمان بالآلهة

حلل الباحث فرانكفورت H. Frankfert القوى الطبيعيـة المهمـة التـي كانـت أصل الديانة المصرية فأرجعها الى ثلاثة مصادر رئيسية:

(1) القوى المستمدة من الشمس
(2) القوى المستمدة من الأرض
(3) القوى المستمدة من الحيوانات

- آلهة الشمس:

عبد المصريون الأقدمون آلهة الشمس بأشكال وأسماء متعددة، وهي التي نشأت ونمت تحت معبد الشمس (هليوبوليس) وبين كهنته. ومن الأسماء التي اشتهرت "رع" و "أتوم".

كان إله الشمس أول ملك بصفته الإله الخالق، والفرعون خليفته، والإله الشمس بصفته الإله الخالق ظهر من الحياة الأولى (نون) أو (نو) فوق "كل الخليقة". وعد المصريون الإله الشمس، الإله الخاص بالعدل، كما كان إله الشمس في وادي الرافدين. وقد جسموا العدالة وجعلوها ابنة هذا الإله وسموها باسم (مات). وقد دعي قرص الشمس الظاهر باسم (أتون) ومن الآلهة التي أدمجت أو طوبقت مع الإله، الشمس (الإله (أمون)، إله طيبة العظيم، ولقب بملك الآلهة وتصوروه متجسداً على صورة كبش. وسمي باندماجه مع إله الشمس (أمون-رع) وعد السبب الأول في الخلق وأصل الحياة. كما عد أيضاً الإله الخالق الذي كان أول من خرج من المياه الأولى (نون) وأنه أبو الآلهة وبضمنهم الآله (رع) وأكمل نفسه وصار الإله الكامل (أتوم).

- الآلهة المشتقة من الأرض:

أدركت معظم الأمم القديمة أثر القوى الأرضية فجسمتها وعبدتها، فسكان وادي الرافدين رأوا فيها مبدأ الخصب وعبدوه بهيئة (الآلهة – الأم) ودعوها أسماء مختلفة أشهرها الآلهة (عشتار) وكذلك جسّم اليونان مبدأ الخصب في الأرض بهيئة آلهة أنثى. ولكن المصريين شخصوا الأرض وعبدوها بهيئة إله ذكر وليس إلهة أنثى ودعوه باسم (جيب) Geb واسم (بتاح). ومن الآلهة المهمة المتعلقة بقوى الأرض الإله الشهير (أوزريس)، والذي ربما يكون صيغة من الإله السومري (تموز)، وقد تولى أوزريس عالم الأموات. وإذا كانت الديانة الشمسية هي التي سادت في عصر الأهرام، فإنها اضطرت الى إفساح المجال الى عبادة الإله أوزريس رغم تناقضهما فالإله (رع)، إله الشمس هو إله الأحياء، أما أوزريس فكان بالدرجة الأساس إله الأموات، ولكن مع اختلاف هذين الإلهين فإنهما يشتركان معاً في الوصول الى يوم القيامة والعودة الى الحياة بعد الموت.

- الآلهة المشتقة من أصل حيواني:

لا تبدو عبادة الحيوانات عند المصريين القدماء غريبة إذا علمنا أن الفكرة الكامنة وراءها هي أن الآلهة تتجلى أو تتجسد في الحيوانات ولذلك اتخذت أشكال الحيوانات وتعددت، كفرس البحر والتمساح والأسد والثور والكبش والقرد .. .الخ.

يشير تاريخ الديانات الى تداخل العبادات بين شعوب المنطقة، مما أدى الى وقوع اقتباسات وتطوير للأفكار الدينية. فالقبائل العربية القديمة (أكديون، عموريون، كنعانيون، بابليون، أشوريون، أراميون) هذبوا صيغهم الدينية الموروثة من البيئة الصحراوية، ووصل بهم الأمر حداً خلطوا هذه الآلهة مع مثيلاتها السومرية. كذلك الحال بالنسبة للسومريين حيث تأثروا بالمحيطين بهم والأمر ينطبق على مصر القديمة. لذا بدأت حالة الانغلاق بالتلاشي وأخذت القشرة الدينية تتكسّر.

القائمة البابلية الطويلة التي تضم أسماء الآلهة والتي عثر عليها في مكتبة أشور بانيبال تحوي أكثر من 2500 إسم إله، وفي البحوث التي قام بها (دايمل)P. Deimel عام 1914 حول مجموع الآلهة توصل الى تشخيص 3300 إسماً. وسجل (تولفست) K. Tallavist عام 1938، 2400 إلهاً. (1)

إن حمورابي نفسه يذكر حوالي عشرين إلهاً لمدن مختلفة من امبراطوريته: أدد، أيا، أنو، داكان، دامكال، ننونا، انكي، انليل، أنانا، عشتار، مارما، مردوخ، نرجال، نينازو، نينتو، شمش، صاربنيت، سن، زابابا وغيرهم. وغالبية هذه الآلهة من جذور سومرية، ورغم اقتباس الآلهة السومرية فإن القبائل العربي القديمة التي جاءت من جزيرة العرب واحتكت بالسومريين، لم ينبذوا آلهتهم الخاصة ولكنهم خلطوا هذه الآلهة مع الآلهة المقاربة لها من مجمع الآلهة السومري (2). وقدنتج عن ذلك أن حافظوا على تسميات هذه الآلهة حيناً كما هو الحال في (زابابا) أو أنهم عدلوا الإسم باشتقاقه من لغتهم مثل الإله (آن) السومري الذي أصبح يسمى عندهم (انو) ومن آلهتهم:

1- آنو: عند السومريين (آن) ويعني السماء وهو إله السماء، الإله الأعلى، وقد أدمجته بعض القبائل العربية القديمة بإلههم (ال) أي ايل، واهتموا به أكثر من اهتمام السومريين لما حظي عندهم من مركز سماوي فكان يدعى (أبو الآلهة) ولم تتوقف عبادته حتى فترة السلوقيين، وبصورة خاصة، في (الوركاء) حيث معبده المسمى معبد أي – آن – نا ويعني معبد السماء. أما شريكة أنو فهي (انتو) وقد سميت من قبل السومريين (ان – اوكي) وتعني الأرض.

2- انليل: ويعني بالسومرية سيد الريح العاصفة وقد اقتبسه الأكديون ونعت (السيد) ومنه اللقب المستعمل عند القبائل العربية القديمة (بيل) "ايل" ويوجد انليل عادة بمعية الإله (أنو). وكانت مدينة (نفر)

مركز عبادة الإله انليل ويحمل معبده اسم أي – كو (ايكور) ويعني معبد الجبل.

3- ايا: اسم سومري يعني "مقر الماء" أما مقر عبادته التقليدي فكان مدينة (اريدو) وسمي معبده أي – ايزا ويعني معبد الأبسو، وهو المحيط المائي لكل الأرض.

4- الإله سن: إله القمر، وهو اسم بابلي قد يكون مشتق من الكلمة السومرية انزو Enzu التي تقرأ زوين ومنها زن وزين وسن. وفي عصر السومريين كانت عبادته في مدينة أور، وفي عصر أور الثالثة انتشرت عبادته بعيداً نحو الغرب وبصورة خاصة في مدينة حران في سوريا. وهناك شواهد على استمرار عبادته حتى القرن السادس ق.م. (مسلة نيراب) (1).

5- الإله شمش: وهو اسم عربي ويعني شمس وأكدوا على صفته كمصدر لكل ضوء وكانت مدينة سيبار ولارسا (سنكره) من مراكز عبادته التقليدية أما معبده الخاص فيحمل اسم (أي) بابار ويعني معبد الشمس.

6- الإله أدد: إن الصيغ المختلفة لتسمية هذا الإله تجيز اعتباره عربياً (ادو: آدي، آدا، خادو، دادا، هادا. . .) والتسمية هدد (هداد) معروفة جيداً عند الكنعانيين والأراميين، وقوائم أسماء الآلهة البابلية تذكر عبادته في مناطق (اورو) أي الغرب – بلاد الشام – بالنسبة لوادي الرافدين وعبد بصورة خاصة في حلب. وقد تبلورت عبادة هذا الإله في زمن حكم العموريين لوادي الرافدين، ويبدو أنه عبد في العصر السومري كما عبده الأشوريون. إن أداد هو إله الزوابع والعواصف وإله كل الظواهر الجدية المهيبة والمفزعة، وهو بنفس الوقت سيد الأمطار والغلة الكثيرة.

7- الإله نرجال: إله الجحيم وهو سومري الأصل ويعني (سلطة المدينة الكبيرة) ويتضمن هذا المعنى إشارة الى جهنم. وحمل نرجال (نركال) اسم (ايرا) أيضاً وعبد وقدس تحت هذا الاسم الأخير في مدينة (كوثا) وانتشرت عبادته في الغرب (سوريا) واستمرت الى ما بعد المسيح ويرد ذلك في مكتوبات مدينة تدمر (1).

8- الإله مردوخ: يحتمل أن يكون الاسم سومرياً ويحمل معنى "جاموس الشمس صغير السن" أو "الشمس الحديثة السن". وقد أصبح إله مدينة بابل. وفي أسطورة (اينوما ايليش) ينسب اليه دور الخالق وسيد الكون السمائي والبشري.

9- الإله نابو: تعني نابو بالأكدية "اللامع". أما أصل هذا الإله فهو غير معروف وكل ما يعرف عنه ارتباطه بمدينة بورسيبا (برس نمرود).

10- الإله أشور: وهو الإله الرئيس والأول عند الأشوريين ونسبة له سميت أول عاصمة لمملكته (مدينة أشور). إن اسم أشور هو بدون شك أول اسم عربي قديم يقابله باللغة السومرية التعبير a – Usar وهذا التعبير لم يستخدم إلا في عصر الملك الأشوري شمشي – اداد الأول المعاصر للملك البابلي حمورابي، لقد كتب الملك الأشوري سنحاريب (704 – 681 ق.م.) الإله أشور: مالك العالم السماوي بأجمعه، وخالق نفسه وأبو الآلهة. . ملك السماء والأرض، سيد كل الآلهة وبيده مصير الكون. ومع كل هذه التسميات ضاعت طبيعة الإله أشوري كإله وطني.

11- الإله داكان: وهو أحد الآلهة العربية عند القبائل التي كانت تسكن أطراف مدينة ماري (تل الحريري) وتذكره التوراة كإله للفلسطينيين (قضاة 1:23، صموئيل الأول 2:5 – 7)

12- الإله تموز: وهذه صيغة أكدية (عربية قديمة) مأخوذة من الكلمة السومرية (دومو – زي) وهو رمز النبات والخضرة، وعبادته ذات أصول سومرية انتشرت في سوريا وفلسطين (حزقيال 14:8) وفينيقيا، ثم أصبح تموز هو أدونيس الذي انتشرت عبادته في بلاد الشام في العصر الهلنستي.

إضافة الى عدة آلهة مشهورة أخرى مثل: عشتار، أمورو، والإله نينورتا. وقد ألقت المخطوطات الملكية الأشورية (باللغة الأكدية والخط المسماري) للفترة من 900 – 640 ق.م. الأضواء على الديانات في بلاد الشام من خلال الأسماء الإلهية التي تتضمنها، والأسماء المذكورة تتطابق مع الآلهة المعبودة في سوريا. إضافة الى ذلك فإن رسائل العمارنة أضافت معلومات قيممة ورسمت صورة الحالة في بلاد الشام قبل قرن ونصف من دخول الموسويين (1).

رغم أن التوراة تشير الى أن (الآباء) قد عبدوا آلهة كنعان فإن الكثيرين زالوا يتساءلون عن الزمن الذي عاشوا فيه وهل وجدوا في وقت سابق على موسى. البعض يقول أن وجودهم نتاج للخداع النفسي (2). والبعض يفسر الآباء على أنهم آلهة كنعانية، أو أبطالاً كنعانيين اختيروا ليكونوا "خاصة" كتبة التوراة وبعد ذلك، أسقطت هذه الأسماء على شخوص. (3)

تقول القصص التوراتية أن إبراهيم سكن حبرون (الخليل) وسكن اسحاق في بئر السبع جنوباً أما يعقوب فقد سكن فترة شرق الأردن وأخرى قرب شكيم بثل Bethel، فتأثر (الآباء) بعبادات هذه الأماكن فكان إبراهيم يدفع

الى ايل (ايلون) في القدس عشر أمواله ويتقبّل تبريك (ملكي صادق) كاهن الإله الأعلى (تكوين 20:14). وهاجر زوجة ابراهيم اعتقدت بايل – روئي في بئر السبع (تكوين 14:16) وهكذا كان موقف يعقوب مع ايل – بثل (تكوين 10:28 –22) كما ابتنى مذبحاً سماه ايل (تكوين 20:33) ونرى انعكاس عبادة ايل، إله الكنعانيين، في كل مكان تبنته التوراة (1).

لقد كانت شكيم مركزاً دينياً للكنعانيين وكانت عبادتهم تتركّز حول بعل – بيريت Baeil Berith أي "سيد الميثاق" ويدعى أيضاً ايل – بيريت – El Berith. وهنا يوجد مكان مقدس، حجر مقدس، مذبح، بلوطة. وغالباً يدعى "بلوطة الحجر المقدس" والمكان لا يزال يدعى بلاطة "بلوطة" ومعنى هذا المفهوم "سيد الميثاق" يتطابق مع ما سماه كتبة التوراة (ميثاق العهد) أو ربما أخذوه من أصوله البابلية والسومرية (2).

يستنتج مما ورد في التوراة أن عبادة عشيرا Asherah قد تأتي مقترنة مع الإله بعل بدليل مجيئها مقرونة بضمير الغائب المتصل "عشيرته" His Asherah وترد أيضاً بصيغة المفرد والجمع في التوراة عشيرا في المفرد وعشيروت في الجمع مما يدل على وجود أكثر من صيغة لهذه الإلهة (3).

إن عبادة الاسم الأنثوي معروفة جداً فهناك عشتار نينوى وعشتار اربيلا Arbela. كما ان استعمال الضمير الغائب (His) مع عاشيرا تؤشر التقاليد الأسطورية الكنعانية التي وجدت على ألواح أوغاريت فعشيرا هي زوجة الإله ايل رئيس الآلهة في المجمع الإلهي الفينيقي (الكنعاني) وهذه الصورة عكسها كتاب التوراة على قصة (ايليا) على جبل الكرمل (الملوك الأولى 18) فقد ارتبطت عشيرا مع بعل كزوجته فكان ضرورياً تعيين جهة الإلتحاق لبعل His Ashirah وليس لغيره.

فعشيرا ليست أنثى مشهورة تعبد بل لها دور مركزي في كثير من الأساطير، توضحه القصة الواردة في التوراة (الملوك الأول 1:18 – 46) وتحكي قصة الصراع بين أنبياء البعل والنبي إيليا على جبل الكرمل، وهذا الصراع يدل على أي من بعل أو يهوه هو الإله الحقيقي، لكن بالنتيجة يهوه وبعل يحملان نفس المعنى. وقد ورد في القصة وجود 450 نبياً لبعل و400 نبياً لعشيرا، كل هؤلاء دعوا الى اجتماع على جبل الكرمل حيث كان يعيش نبي يهوه وحيداً لمواجهتهم (الملوك الأول 18، 19) فانتصر عليهم وذبح 450 نبياً لبعل في وادي قيشون – كما تقول التوراة – لكن ماذا حصل لأنبياء عشيرا؟!

رغم أن الحرب ضد بعل كانت مستمرة في السامرة إلا أن عشيرا لم تمس، بل بدأ الحديث عن يهوه وعشيرته كما جاء في المخطوط Qentillet Ajrud والذي يتحدث عن "يهوه السامرة وعشيرته" وبناء على (عاموس 14:8) فقد كان الناس يتضرعون ويقسمون بآلهة تدعى (اشامه شمرون)

Asmat Someron حيث يقول حرفياً: "ذنوب السامرة". والإسم إشامه، يبدو أنثوي رغم عدم وجود آلهة بهذا الاسم في الشرق الأدنى القديم. (فعشرة شمرون) لا بد أن تكون عشيرا السامرة، والموضوع ليس إلا تلاعب لفظي في أسماء الهيه وهو دليل الجحود المعروف بالتوراة. (1)

يعرف الإله بعل بأنه الإله ايل (الفينيقي). والذي يذكر في المخطوطات الأرامية من (زنجرلي) بهذا الإسم أيضاً (ايل) وقد انحدر الاسم الى الأراميين من الفينيقيين، واسم الإله ايل ليس عاماً وليس خاصاً بالنسبة للتوراة ومفاهيمها، بل إسم إله يخص الكنعانيين كما كانت عشيرا إحدى آلهة الأموريين ومنهم الكنعانيين، ومن هنا جاء اسم عبدي – عشرتا في رسائل العمارنة (2).

هذان الإلهان الهامان في عبادة الكنعانيين، منشؤهما من عبادة الظواهر الطبيعية، وهما: إله السماء (الأب) وإلهة الأرض (الأم). لقد عبد إله السماء في أوغاريت تحت اسم (ايل) والإلهة تحت اسم عشيرة أو عشيرات (عشتار)، وكان ايل الإله الأسمى عند معظم الأقوام التي سكنت بلاد الشام ولا سيما الكنعانيين (كما اقتبسه كتبة التوراة، بشكل واسع) ولقب باسم (عليان) وعبد تحت اسم (بعل) أيضاً. كما عبد الموسويون الإله (مولك) "مولوخ" وقد ورد اسمه في التوراة (الملوك الأول 5:11، الملوك الثاني 13:23) باسم ملكوم وقد وجد المنقبون بقايا أطفال في مواقع زيارته، حيث مارس الموسويون عادة وأد الأطفال وتقديمهم ضحايا لهذا الإله كما ورد في (الملوك الثاني 10:23)، واسم المكان الذي كانت تمارس فيه هذه الطقوس هو وادي بني هنوم أو وادي هنوم الذي يقع جنوبي القدس وغربها ويعرف باسم (وادي رابابه اليوم)، ثم أخذ الناس برمي القاذورات والفضلات وإحراقها في هذا الوادي وأخذ من ثم اسم "جهنم" وأطلق على موقع العقاب (1). أما الإلهة الأم فقد ذكرت وعبدت بصيغ مختلفة من اسم (عشيرا) وكذلك (عشتاره) و (عشاره) وسميت بالتوراة (عشتوريت) وهي عشتار عند البابليين. وعبدها الرومان تحت اسم (افروديت) واليونان (فينوس) ودعيت في بلاد الشام أيضاً باسم (بعلة) "السيدة" وباسم ملكة أي (ملكة السماء) وعناة أو عاناة حيث ورد ذكرها في لوح من أوغاريت، وهي "أخت عليان بعل" ومن صفاتها الحب والحرب.
تأثر الأراميون بديانة القبائل التي سبقتهم بالخروج من جزيرة العرب كالأكديين وبشكل خاص الأموريين وفرعهم الهام الكنعانيين. وكان أعظم إله خصون بالعبادة الإله (حدد) أو (هدد) أو (أدد) أو (أدو) وهو أحد أهم الآلهة الأمورية والكنعانية ومن أهم القابه (رمون) و (رمان) أي المرعد. وهو الإله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار. وقد أقيم معبده الرئيس في مدينة "منبج" شمالي سوريا وشيدت له مجموعة معابد في عدة أنحاء من بلاد الشام واختلطت عبادته مع عبادة إله الشمس ويقال أنه هو نفسه الإله "جوبتر" المعبود في بعلبك، وصار في العهد الروماني "جوبر" الخاص بمدينة دمشق. وجد في (سمأل) (زنجرلي) تمثال ضخم – نحو تسعة أقدام

ونصف – أقامه الملك بنمو الأول Penammu في القرن الثامن ق.م. وعبدت مع الإله هدد في منبج وفي المواطن الأرامية الأخرى زوجته الإلهة – اتراغاس Atargatis حيث نعتت بالإلهة السورية ووصفت بأنها (الإلهة – الأم) كما عبدت في عسقلان (فلسطين).

بعد خمس سنوات على اكتشاف ألواح أوغاريت نشر M. Virolleaud لوحاً من الشعر يحكي "ميلاد الإلهة الكريمة الجميلة"، كما نشر أيضاً أسطورة "كيريت" (1) Keret Epic، وبناء على هذه الألواح يستدل مدى تأثير الآداب الكنعانية (الفينيقية) بالتوراة. فالزعيم الصيدوني كيريت قد أشار الى قدسية إله القمر (تارح). . ومن المعروف أن تارح ورد بالتوراة جد إبراهيم. كما أشارت أبيات الشعر 61 – 68 من اللوح الى أن الإله (ايل) قد أغوى امرأتين، فأنجبتا الإلهين شحار Shahar وشاليم Shalim.

لقد كان لكل مكان في كنعان إله أو سيد يدعى (بعل)، ولما جاء الموسويون أخذوا هذا الإله وعبدوه تحت اسم "يهوه". ومما لا شك فيه أن آلهة الأسفار الخمسة (الأولى) مأخوذة من الكنعانيين. وبذلك أصبح (يهوه) "البعل" أو سيد الصحراء، ثم استعمل بعد ذلك بعل ويهوه بنفس المفهوم. (2)

عندما اكتشفت الألواح الفخارية عام 1929 في أوغاريت (رأس شمره)، وقد ورد في إحدى القصائد ما يدل على المعتقد الديني حول النزاع بين إله النبات (عليان بعل) وخصمه الإله (موت). وقد وجد الباحثون التشابه الكبير بين أدب أوغاريت وسفر أيوب: ومما يلفت النظر تطابق المفردات والأفكار والأدوات الشعرية والتركيب الأدبي بين معظم الأدب الأوغاريتي والمزامير التوراتية، فنجد في الأوغاريتية أن الإله (بعل) يوصف "براكب الغيوم" وكذلك يوصف الله في المزمور 4:68. وفي إحدى نصوص أوغاريت يوصف الرعد بأنه صوت بعل وفي (سفر أيوب 2:37 – 5)، المزمور 3:29 – 5 نجد أنه صوت يهوه. وهذا المزمور بكامله من أصل كنعاني ظاهر (1). وفي الأدب الكنعاني والتوراة تسمى لوياثان Leviathan "الحية المتحوية" (اشعيا 1:27) فبعل يقتل لوياثان وكذلك يفعل يهوه.

الصفات البارزة في عبادة الخصب الكنعانية متمثلة بالحزن على موت إله النبات والقيام بطقوس هدفها تمكينه من الفوز على خصمه (إله الموت والعالم الأسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لإنتاج موسم العام الجديد والفرح عند عودة الإله للحياة. وقد كانت أسطورة تموز (وهو في البابلية دموزي Dumu-zi) والذي يسميه الكنعانيون الإله (أدون) ويعني السيد. وقد اقتبسه اليونان وجعلوا منه (أدونيس). ثم أصبح أدونيس أشهر الآلهة السورية. وقد جعل الفينيقيون حادثته مع الإلهة عشتار أو سيدة بيبلوس عند نبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان، ففي هذا المكان جرح تموز – كما تقول الأسطورة – بينما كان يصطاد

الخنزير البري، وحمله وهو يشرف على الموت الى حبيبته. ومنذ ذلك الوقت والنهر يصطبغ باللون الأحمر في أحد الفصول، وهو لون دمه، كما يعتقدون. وبينما كان تموز في العالم الأسفل تدخلت عشتار واستعادته ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته.

إن ديانة كنعان مثلها مثل ديانات القبائل المهاجرة من جزيرة العرب تقوم على عبادة الطبيعة حيث كانت تضم إلهين رئيسيين يعرفان بأسماء مختلفة: السماء (الأب) والأرض (الأم) وفي أوغاريت كان إله السماء يعرف باسم (ايل) فيما الإلهة الأم تسمى (عاشره) وبعده يأتي (عليان) والإله مولخ Mo-loch الذي كانت تقدم لها الضحايا من الأولاد.

رفيقة ايل تسمى عاشره في أوغاريت كما توجد آلهة أخرى تسمى عشتروت كما وردت في آثار أوغاريت وتل العمارنة. وهي عشتار عند الأشوريين والبابليين. وسميت بالتوراة عشتوريت، وكانت تسمى أحياناً بعله (أي سيده). وقد وجدت كتابة تعود الى القرن الثالث عشر ق.م. تسمى عنات فيها باسم (سيدة السماء).

قصة بعل في أوغاريت وأنات Anat وآبائهما وأخوانهما تظهر بوضوح أن (ايل) الإسم المهم في (البانثيون) الكنعاني (1) ربما لا يكون إسماً لإله معين. وبذلك نصل الى نتيجة منطقية مؤكدة أن العبادات القديمة الواردة في التوراة موجودة على مواد منقوشة في فينيقيا والمستعمرات الفينيقية. (2)

إن تنامي قوة الفينيقيين التجارية والسياسية أدّت الى غلبة بعل وأشياعه الى أيل وأتباعه وبالتالي السيطرة على معبد الكنعانيين (البانثيون) (3). صحيح أن وجود ألواح من أوغاريت تشير الى رئاسة ايل للبانثيون لكنها تظهر ذلك الإله في حالة خرف وعجز، وربما ذلك بتأثير الأوغاريتية المتأخرة. وقد انحازت مجموعة من الباحثين الى جانب إيل، عندما ظهرت ألواح أوغاريت، واعتبروا أن حيويته كبيرة ويفسرون ذلك أن عدة عبادات متقنعة بأسماء أخرى كانت معروفة في أوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد. كذلك اسم (عشيرا) والذي قلما ظهر في النقوش وسط فينيقيا خلال الألف الأولى ق.م. بينما الإسم (اتيراتو) Atiratu يردد في آلاف من النقوش الفينيقية في المستعمرات غربي البحر المتوسط وهي مكرسة لعبادة الآلهة (تانيت) Tannit باعتباره لقب عشيرا. ثم بدأ التناقض في تأثير عبادة أنات بعد خراب أوغاريت، وهذا الإسم أنات Anat ظهر في أحد ألواح سوريا، ونفس الشيء ربما حصل مع (ايل) فقد ساد في البدء في أوغاريت ثم اضمحل لتنتقل السلطة الى بعل – هدد (4).

قامت بعثة آثارية إيطالية تابعة لجامعةت روما بقيادة البروفسور Paolo Matthiae بالتنقيب في منطقة تل مرديخ Mardikh الواقعة بين حماه وحلب

شمال سوريا، وكانت عاصمة المنطقة هذه إبلا Ebla التابعة لإمبراطورية أكد والتي دمرها نارام – سن Naram – Sin. وقد عثرت البعثة على 15.000 لوح مكتوب باللغة الكنعانية وبالخط المسماري، وكان لهذا المكتشف أثر كبير في إلقاء الضوء على ديانات المنطقة ومجريات الأحداث التاريخية. وفي عام 1968 اكتشفت البعثة تمثالاً يحمل اسم ابيت – ليم Ibbit – Lim حاكم مدينة ابلا وهو يقدم العطايا للآلهة عشتار، ثم وصلت البعثة عام 1974 الى غرفة الأرشيف الملكي، والمخطوطات هذه تشير الى أنها اللغة الكنعانية القديمة (1).

احتوت ألواح ابلا على أسماء حوالي 500 إله، لكن قبل كل شيء توضحت العلاقة بين ايل IL ويهوه w(Ya). وكان دور ايل أنه يمثل الرب عموماً God ومع ذلك هناك عبادات محددة للإله ايل IL/EL في ألواح أوغاريت. فيهوه (Ya) لايزال محبباً بطريقة مختصرة، كما يرد في الألواح En-na – IL / En – na Is – ra – IL / Isra – Ya, Mi – ka – IL / M – ka – Ya, - Ya، وفي ألواح ابلا يستعمل ايل IL مرادفاً ليهوه Ya كعبادة محددة، وقد تم اختصار اسم يهوه Yaw الى Ya بعد هجرة القبائل العربية القديمة من الجزيرة العربية وإقامتها في بلاد الرافدين وبلاد الشام . (2)

هناك عبارات أخرى تقرأ في ألواح ابلا تشير الى الإله (داجون) “Degon of Tuttul”، “Dagon on Sivad” وهنا يجدر الانتباه الى وجود داجون الكنعانيين “Dagon of Canaan” والذي يعرف بداجون الفلسطينيي “Dagon of Philistines” ثم يأتي دور الإله راساب أو رشاب، أو رشف Resef في الوثائق المتأخرة. وهذا الإله يأتي بالدرجة الثانية في ترتيب البانثيون وهي العبادة التي كانت سائدة في ابلا.

مجموعة من الاكتشافات وجدت في قطنا و Alalakh في سوريا وتعنك ونابلس وغيرها في فلسطين تضمنت ألواحاً تؤشر الديانة في سوريا ووادي الرافدين في القرن الثامن عشر ق.م. ومن خلالها تعرفنا على الطقوس الدينية وأسماء بعض الالهة (1).

ومن خلال علاقة مصر ببلاد الشام، وبالإشارة الى حركة الأشخاص والحكام المذكورين في الآثار المصرية يمكننا معرفة ديانة الكنعانيين، فقد وجدت القصص الأسطورية الكنعانية مدونة على هذه الآثار (2). ففي زمن الأسرة الثامنة عشرة 2000 – 1800 ق.م. وجدت آثاراً عليها أسماء أشخاص أضافت مادة معرفية للعبادات في فلسطين وسوريا. كما ألقت الوثائق الآرامية في سوريا وخاصة الحجر المكتشف في سمأل (زنجرلي) والذي يعود الى الفترة 900 – 650 ق.م. الأضواء على الديانة في المنطقة. أما الكتابة الأرامية على أوراق البردي في مصر والتي تعود الى 400 ق.م. تعطي معلومات كبيرة عن الديانة اليهودية والتي بدأت بالظهور ذلك الوقت.

انتقلت عبادة (أتون) الى فلسطين بعد أن أشاعها امنحوتب الرابع (أخناتون)، وقد تكون هذه العبادة قد انتقلت الى بلاد الرافدين عبر أرض كنعان، فأخذ الموسويون عباداتهم من أرض الرافدين أو مصر مباشرة أو عن طريق كنعان. فإذا قارنا بين نشيد (أتون) المنسوب الى أخناتون وبعض المزامير (3) نرى الاقتباس واضحاً بينهما . . ولما كان اخناتون قد سبق الموسويين بحوالي مائة سنة فلا بد أن الاقتباس قد تم من قبل كتبة المزامير والتي تم إنجازها بعد اخناتون بحوالي 800 سنة.

نشيد أتون

الشروق جميل في أفق فيا
أتون ابدأ الحياة
عندما ترتفع شرقاً فإن أفق
السماء يملأ الدنيا جمالاً
لهذا يكون الفن جميلاً. عظيم
الألقاب عال عن الأرض. شعاعك
يحيط بالكون وكل ما صنعت

وعندما تغيب يكون أفق السماء
والعالم ملعون بالظلام
كأنه الموت
كل أسد يخرج من عرينه، كل الأفاعي
اتخذت الظلام بيتها والعالم
في صمت

المزامير

يا رب إلهي، قد عظمت جداً، مجدداً وجلالاً
لبست. اللابس النور كثوب، الباسط السموات
الصانع ملائكته رياحاً. وخدامه ناراً
ملتهبة، المؤسس الأرض على قواعدها فلا
تزعزع الى الدهر والأبد
(المزمور 1:104 – 9)

صنع القمر للمواقيت، الشمس تعرف مغربها
تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان
الوعر. الأشبال تزمجر ولتلتمس من الله
طعامها
(المزمور 19:104، 20، 21)

نشيد أتون

يضيء الكون بإشراقك في الأفق
وعندما تضيء الشمس كأتون نهاراً
ينقشع الظلام
وهكذا يقوم الرجال بأعمالهم

السفن تبحر أعلى النهر وأسفله
كل طريق عال مفتوح للنزول
الأسماك تتقافز ونورك
في قلب البحر العظيم

المزامير

تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض
الإنسان يخرج الى عمله والى شغله الى المساء
(المزمور 23:104، 24)

النازلون الى البحر في السفن، العاملون
عملاً في المياه الكثيرة، هم رأوا
أعمال الرب وعجائبه في العمق
(المزمور 22:107 – 23)

محاولات كثيرة سعت الى اكتشاف سر (سفر أيوب) وأحد الأفكار المرجحة تؤكد على التأثير المصري وبصمات الثقافة المصرية على هذا السفر، بينما يرى آخرون أن أرض الكلدانيين هي مكان ولادة السفر في حين يؤكد غيرهم أن الكنعانيين هم المصدر الذي اقتبس عنه كتبة هذا السفر. والأرجح أن أحد اليهود "وبعد ولادة الديانة اليهودية في السبي" استوطن مصر خلال الفترة الفارسية كتب سفر أيوب هناك متأثراً بالثقافة البابلية والأشورية والكنعانية وبالتالي المصرية، وهذا ما نلحظه في سفر أيوب ذاته. فأول إشارة الى تأثير مصر نشاهدها ونحن نبحث في وجود بلاد عوص UZ التي يقول السفر أن أيوب كان يعيش فيها، فهي تقع تجاه مصر أكثر مما تقع تجاه الكلدانيين، وكانت تقع على الحدود المصرية جنوب أدوم (ارميا 19:25 – 20) وبذلك تكون عوص قرب مصر وليست قرب وادي الرافدين. وهناك إشارة في سفر أيوب (3:1) تشير أن عوص في الشرق وبذلك لن تكون إلا شرق مصر، ففلسطين تقع غرب بلاد الرافدين وليس شرقها. وبذلك تكون مغالطة جغرافية قاتلة إذ تؤكد التوراة وجود أيوب في نينوى (العراق) (أيوب 1:1، 1:3).

اكتشف كذلك ايرمان Erman نصاً مكتوباً بالأرامية في منطقة الفنتاين في مصر يقول: "النوم العميق يعم الناس، خوف شديد انتابني، اضطربت، اصطكت عظامي، ثم عبرت روح من أمامي فتوقف شعر جسدي، استيقظت لكن لم أتيقن من وصفها ثم غابت عن عيني، المكان صامت لكني سمعت صوتاً". وهذا النص يتطابق تماماً ما ورد في سفر أيوب (13:26 – 16).

عثرت بعثة التنقيبات الآثارية التابعة لجامعة بنسلفانيا على 135 سطراً أمكن جمعها من ستة ألواح من الطين باللغة السومرية في مدينة (نفر) التي تبعد زهاء 100 ميل جنوب بغداد، فاتضح أنها أول مقالة مدونة تعالج مسألة عذاب الإنسان وخضوعه وهو موضوع اشتهرت به الآداب العالمية، والفكر الديني عن طريق سفر أيوب في التوراة. إن هذه القصيدة السومرية تمثل أول محاولة مدونة للإنسان في معالجة تلك القصة وهي أقدم من سفر أيوب بحوالي ألف سنة. والفكرة الأساسية التي تعرض لها الشاعر السومري هي: في حالات العذاب والمصائب ليس للضحية المعذبة مهما تراءى له أنه لا يستحق ما حل به سوى سبيل واحد يسلكه، وهو أن يمجد ربه ويتابع البكاء والضراعة والاستغفار حتى يستجاب له (1)، كما أن التراث السومري والمدونات السومرية تشير الى وجود نماذج هائلة من الحكم والأمثال، مدونة بالسومرية وترجمتها الأكدية، وهي ما اقتبسها كتبة التوراة وصاغوها على أنها المزامير والأمثال التوراتية.

ومع وجود أدلة على اقتباس كتبة المزامير من هذا التراث أو غيره يظل الاقتباس من مصر أكثر رجحاناً، فهناك دليل على تأثير التراث المصري على كاتب سفر أيوب: فالمصريون كانوا يعتبرون الفضة أثمن وأندر من الذهب ويأتي الحديد في المرتبة الثالثة والنحاس يحتل المرتبة الرابعة وبهذه الطريقة ترد هذه المعادن في هذا السفر (أيوب 1:18 – 2).

إن كاتب سفر أيوب ربما يكون قد عاش في الفترة الفارسية وتأثر بالأفكار الفارسية خاصة كتاب الشيطان الذي نقل من (سوسه) الى (ممفيس) (2).

اكتشفت كتابات على البردي تعود الى 400 ق.م. تحم اسم Kegemni (3) وتضمنت الحكم والنصائح التي استعارها كتبة التوراة ونسبوها الى سليمان أو غيره. ومقارنة بسيطة توضح مدى الاقتباس الذي وقع:

الحكمة المصرية

1- كل مستمع الى حكمتي يسلم

2- بركاتي للباحث عن الحقيقة

3- وأفتح كنوز (حكمتي) له

4- حكمتي تأخذ مدى واسعاً من السلام

5- العهود تشحذ بالسكاكين وتبعد التراخي

6- إذا جلست مع مجموعة من الناس فلا تشتهي طعامهم الذي يحبونه، فلحظات الكرب قصيرة والحسد مؤلم.

7- الرجل الذي يملأ بطنه هو الذي عادة لا يستطيع ملء بطنه في بيته.

8- كن حذراً عن المنازعات، فالشخص لا يعرف متى يحل عقاب الله.

الأمثال التوراتية

1- أما المستمع لي فيسكن آمناً ويستريح من خوف الشر (أمثال 33:1)

2- بركات على رأس الصديق، أما فم الأشرار فيغشاه ظلم (أمثال 6:10)

3- فأدرت محبتي رزقاً وأملأ خزائنهم (أمثال 21:8)

4- الحكمة بنت بيتها، نحتت أعمدتها السبعة (أمثال 1:9)

5- الرب لا يجيع نفس الصديق، ولكنه يدفع هوى الأشرار، العامل بيد رخوة يفتقر. أما يد المجتهم فتغني.
(الأمثال 3:10 – 4)

6- إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملاً وضع سكيناً لحنجرتك إن كنت شرهاً، لا تشتهي أطايبه لأنها خبز أكاذيب.
(الأمثال 1:23 – 3)

7- لا تكن بين شاربي الخمر، بين المتلفي أجسادهم لأن السكير والمسرف يفتقران. والنوم يكسو الخرق (الأمثال 20:23 – 21)

8- لا تبرز عاجلاً للخصام، لئلا تفعل شيئاً بالآخر حين يخزيك قريبك.
(الأمثال 8:22)

تغلغلت كذلك طقوس آلهة الكنعانيين والبابليين والأشوريين الى الديانة اليهودية بحكم نشوئها – أي اليهودية – في بابل (1): وكذلك نقرأ عن

عبادة الشخوص الأوائل للتوراة للشمس، كما أطلقوا على الألهة عشتار اسمها البابلي (ملكة السماء) وقد تأثر سكان يهوذا في بابل برصد النجوم، فصب سفر أشعيا جام غضبه عليهم (اشعيا 13:47 . . .). وبالرجوع الى التوراة (الملوك الثاني 30:17 –31) نجد عدداً من الآلهة المعبودة في وادي الرافدين عبدت من قبل "الشعب المختار" ومنها: ساككوت – بينوت والإله البابلي نرجال. وصفحات العهد القديم والأنبياء مليئة بالخلفيات التنجيمية وأنواع من العبادات وصلت من بابل الى كنعان. (2)
يقول الباحث (جاسترو موريس): من الواضح أن الأفكار التوراتية اعتمدت على البابلية والأشورية، فالتعمق بدراسة الحضارة البابلية – الأشورية ستجعل صورة الإنجازات الواردة في التوراة باهتة بالمقارنة مع حضارة وادي الرافدين. وستطغى – هذه الحضارة – على أي فهم لأحداث التوراة، وهي التي تجعلنا قادرين على امتلاك مفتاح حل افشكالات التي تعترض طريقنا أثناء دراسة الأفكار الدينية اليهودية: وهي التي تجعلنا، من جهة ثانية، نمتلك المواقف الدفاعية في فهم الخاصية الغامضة لعموم العهد القديم واختلاط السطحي والأساسي من العناصر التي حملت الى تاريخنا عبر التوراة، والتي كان القصد منها الإيمان المسبق بأطروحات التوراة لتكون مرتكزات للأفكار التي يرسمها العهد القديم ضمن أضواء كاذبة وطرق كاذبة مخادعة (3).

كتب الباحث التوراتي (جوزيف أوفورد) (4) Joseph Offord مقارنة مطولة بين الكثير من الأفكار الواردة في الكتابة السماوية، سواء أكانت سومرية أو أكدية، وما يشابهها في التوراة، ولما كان السومريون والأكديون قد سبقوا الديانة اليهودية وكتابة التوراة بآلاف السنين، فمن المنطقي أن يكون كتبة التوراة قد استقوا معلوماتهم وأفكارهم ممن سبقوهم. فعندما اكتملت قراءتنا للمخطوطات المسمارية والمواد المتيسرة، وبمقارنة الدلالات اللغوية نجد الصلاة وثيقة بين هذه المخطوطات وما جاءت فيه التوراة فالأسماء الدينية الواردة ف التوراة تقودنا الى مصدر واحد طبيعي السمات وإنساني المظهر. ومن الأفكار الموثوقة المقتبسة تلك التي تتعامل مع الله "كراع لجمهوره". والتي وجدت في عدة حوليات مسمارية مثل: Assur – re – sunu أي (أشور راعيهم) و Shamash – re – ua أي الإله شمشي يرعاني. وقد ظهر من الأسرة البابلية الأولى ملوك يحملون أسماء تعطي المعنى السابق Shamash – re – u، Su – re – u.
الاعتقاد بالله كحامٍ، طبيعي، يتضمن الإحسان تجاه المخلصين، فقد وردت مفردات تحمل معنى القوة وتؤكد هذا المدلول: الحامي، الظل، الصخرة، التل، الجبل.

حملت التوراة أسماء: شاميريا (أخبار الأيام الأول 5:12) والذي يعني سيدي حاميّ واسم عزاريا الذي يعني (الذي يساعده يهوه) وهذا المعنى يمكن استخراجه متضمناً في (المزمور 20:33) إنه "مساعدي وحاميّ"، وبنفس المعاني ترد في السومرية القديمة حيث ترى تعبير Utu – ur – ra

(أور حاميّ) Bel – Shum – Uzur أي (بعل حامي الذرية) أو – Shamash – abl – UZUR أي (يا شمش احمي الولد). ويبدو الاحتمال وارداً أن اسمي (ابشائيل) "أي الإله ايل قوتي" و (عزريا) أي "ايل يساند" مشتقان من اسم (ايلو – ناصر) البابلي الذي يعني "الإله ايل حامي لي" وهي تتطابق مع اسم (اشور – جارنيليا) Ashur – Garnelia أي "اشور نصيري". وما جاء في سفر صموئيل الثاني 16:5 اسم (اليداع) ايل – يداع والذي يعني "ايل يهتم به".

فضيلة الإله الحامي تكمن في قوته واستقامته. فكانوا ييسمون (ايو – اوم – ايلو) Iau – um – ilu وهو نفسه (يوئيل) التوراتي الذي كان يأتي في البابلية بصيغة (الإله نيريغ الدافع) Nirig – ellata – za وهكذا أيضاً ترد فكرة Nergal – Tukia – tue – أي "يثق بقوة نرجال" وترد الجملة البابلية Ilama – tukak أي "أنا أثق بالإله" Ashur – udannin – a;lu التي تعني "أشور يشجع الابن" بما يدل على الثقة المطلقة بآلهتهم.

فكرة حفاظ الله "يهوه" على قوة عبيده كالقلاع الراسخة واضحة في المزمور 5:19 كما ترد في البابلية القديمة Urkituu – duri أي الإله "أوركيتو حصني" و Urkjuti – duri أي الإله "أور قلعتي". أو Bel – emenuri أي الإله "بعل قلعتي".

والصخور من مظاهر القوة لذا نجد أسماء في التوراة تحمل هذا المعنى مثل (زورئيل) Zuriel أي الإله "ايل صخرتي" و (ايل زور) Elizur أي "ايل صخرة". وفي البابلية مثل هذا التعبير Suri – addana أي "صخرتي ملائمة".

الظلال، ظلال الصخور، هي ملجأ العابدين وملاذ التائبين. ففي التوراة، يرد اسم (بعلائيل) (خروج 2:31) والذي يعني "يجلس في ظل (الإله) ايل وزفانئيل Zephabial أي "ملجأ ايل" وجاء في سفر (العدد 30:3) اسم (الصافان) Elizaphan و (اليداع) وهما يشيران الى أن الإله ايل يستطيع تضليل الإنسان كما العصفور الضعيف يحتضنه العش، وهذا يذكرنا باسم أكدي (ايتي – بعل – جيني) Itti –Bel – Ginni أي "عشي مع بعل" والذي يعني أن العائلة تحت حماية الإله بعل.

استعارت التوراة المضامين التي تدخل في صلب الديانة البابلية القديمة مثل Add – Milki أي الإله "أدد رئيسي". وكذلك Ili – Maliki أي ايل "الهي رئيسي". وهي طبق الأصل كا جاءت في اشعيا 6:9 حيث يذكر الإله باسم الرئيس.

بعض الأسماء التوراتية تطري المعبود مثل: "ميخا" (الملوك الأولى 8:22) و (أخبار الأيام الأخر 7:18) والذي يعني "الذي يحب يهوه" و (ميكائيل) الذي "يحب ايل" وهذه الأسماء تطابق أسماء وردت في البابلية: (أبا ننجر

سوكيم) Aba – Ningir – Sukim أي "الذي يحب ننجر سوكيم" و (مانو – كي – عشتار) Mannu- Ki –Ishtar "الذي يحب عشتار". كذلك اسم إلياهو التوراتي "ايل هو" بينما في السومرية Uttu –me – ne أي "أوتو هو".

إن فهم الله على أنه نور الهداية أو الهادي لطريقنا مألوف لدى البابليين، فقد وجدت هذه المعاني منقوشة في الآثار البابلية والسومرية مثل (ايلو – نوري) Illu – Nuri أي الإله "بعل نور لي". وهذا يماثل ما ورد في المزمور 1:22.

ترد في التوراة أسماء مثل (نورا) Nuriah أي "نور يهوه" وتساوى لدى الأشوريين (نور – ايلو) Nur – Ilu أو (نور-أور-ريا) Nur – ur – riya و (نور – ايليشو) Nur – Ilishu والذي يعني "الهه نور" ونظراً لشيوع عبادة النور استعمل البابليون أسماء مثل (بعل – لامار) Bel – Lamar أي "يمكنني أن أرى بعل"، تماماً مثل جاءت رغبة أيوب حيث يقول: "وبعد أن يفنى جلدي هذا سأرى يهوه" (أيوب 26:19).

وأبوة الله معروفة في التوراة حيث ورد اسم (ابائيل) و (اليآب) Eliab (العدد 19:1) وهي فكرة دينية جاءت أول مرة عند البابليين، وأشارت اليها سلسلة أسماء، فالإسم (اليآب) هو استخلاص مؤكد من الإسم الأشوري (ايلو – آبي) Ilu – abi والذي يعني الإله "ايلو والدي". و(أشور-باني) Assur – bani و (بعل – باني) Bel – bani أي "شاور (أو بعل) خالقي". وإذا كان الإله هو الخالق الأبوي للإنسان، فالإله نفسه غير مخلوق في الديانة السومرية يؤكده النص: Ba – u – da – me – a والذي يعني أن الإله (با) ليس أب. والإله أشور يقول أنه خالق نفسه. كذلك الإله ايل في سفر العدد 21:34 حيث يأتي اسم (اليادا‌د) Elidad أي "الإله ايل صديقي" وهي تساوي لدى البابليين (ايلو – تابي) Ilu – tappi أي الإله "ايلو – صديقي".

مجدّ السومريون والبابليون آلهتهم، واعتبروا أنفسهم أبناء الآلهة أو عبيدها، ففي سومر وأور اسم (أور – بعيو) Ur – Bau أي "المنذور لبعيو" واسم (عبد-ايلي) Abd – ili البابلي الذي يتطابق مع الإسم التوراتي (عبد – ايل) Ab- diel: وقد ورد النص التالي لدى البابليين: Ninmar – mah –kal –la أي "ننمار يرفع الرجل الوضيع"، وهذا يتطابق تماماً مع ما جاء في سفر (حزقيال 26:21): "هكذا قال السيد الرب. . أرفع الوضيع واضع الرفيع".

ويجب ألا نغفل التشابه بين الإله (سن) Sin البابلي والذي جاء في النص المسماري sin-be-el-sa-ne-en وبين كلمة (شمايم) سماء التوراتية (سفر التكوين 7:24). كذلك فإن العبارة المسمارية Ilu –siru تتساوى تماماً مع (ايل عليون) التوراتي. أما عبارة (أنا الموجود) الواردة في سفر الخروج فتكاد تكون نفس العبارة البابلية Ibassi – ilu والتي تعني حرفياً "ايلو يكون". كما ورد اسم آخر هو La – we – ilu وهو Ya- ilu حيث يقترب

المعنى من "ياه هو الله" أو "ياهو هو الله" القريبة من "يهوه هو الله". وهذه النصوص ترجع الى حمورابي.

كثيرة من الأسماء الواردة في التوراة كان يعتقد – قبل الاكتشافات الآثارية – أنها توراتية حتى بدأت تتسرب المعلومات كلما اكتشفت مواقع آثارية جديدة، فأصبح اسم إبراهيم ويعقوب أسماء لأماكن جغرافية في لوائح ماري. كذلك اسم (ازنيا) أي "الله يسمع" الواردة في (نحميا 9:10) واسم (اسماعيل) أي الإله "ايل يسمع" كلها أسماء وردت في التراث البابلي والسومري وبالخط المسماري قبل وجود ابراهيم وذريته –حسب رواية التوراة – ففي (سبار) Sippara عثر على نص يحمل اسم Isma – Ilum أي الإله "ايل يسمع" و Sin Sheme أي الإله "سن – اسمع". ومن المتشابهات المؤكدة بعض أسماء مثل "ابشوع" أي "أب السعادة" (أخبار الأيام الأول 4:8) وقد ظهر الإسم في الأسرة البابلية الثامنة بصيغة Abi – e shukh –. كما تتشابه الشخصية البابلية البارزة (أبي – شوم) fEbi – shum و (ايشوع). أما (ابيمالك) التوراتي فيشبهه Abi – sarru السومري.

كما وجدت مسلة اسطوانية في وادي الرافدين تعود الى فترة (نارام – سن) (2260 – 2223 ق.م.) تحمل اسم شخص يدعى (اسر – ايل) Isre – il مما يدل على استعمال الإسم قبل فترة طويلة من وجود التوراة وشخوصها وأحداثها فهذا التاريخ يسبق (ابراهيم) إذا راعينا معاصرته لحمورابي – حسب ما تقوله التوراة – بحوالي 700 سنة. وتؤكد ذلك الأسماء التي قرئت على مسلة (مانشيتوسو) Mainishtusu والمكتوبة بالخط المسماري مثل (اسماعيل) Ismael– بينما على لوح آخر من (سبار) نجد اسم (اسماعيليوم) Ism-mi – I – lum (1).

دليل آخر على اختلاف التوراة وأحداثها وتناقضها مع أطروحاتها. فموسى كما تقول التوراة سمى ابنه (اليعازر) والذي يعني الإله "ايل يساعد"، وتؤكد التوراة أن موسى سمى ابنه بهذا الاسم لأن الله ساعده. لكن الإسم كان مستعملاً قبل موسى بفترة طويلة في بابل Ili – Ha – zi – ri وليس من المعقول أن ينقل موسى الاسم البابلي وثقافته مصرية والأصح أن كتبة التوراة هم الذين نسبوا الإسم له.

تداخل الثقافات الثلاث، المصرية، البابلية، الكنعانية، واختلاط العادات جعلت كتبة التوراة يتخبطون في اختياراتهم للشخوص الواردة في "الكتاب المقدس" كما جعلت كثيراً من الباحثين يفسرون القضايا المطروحة حسب فهمهم العام للتوراة، فلقد أرسل ملك أشور الكهنة الى فلسطين الذين ابتنوا معابد آلهتهم المتعددة على الجبال كما تذكر التوراة ذلك (الملوك الثاني 28:17 – 30) وقد قدّس أهل حماه آلهتهم (اشيما)، والتي يقول الدكتور هومل Hommel أن عاموس 14:8 كان يقصدها عندما ذكر الآلهة عشرت Ashrat .

وعبادة (اشيما) ارتبطت مع الآلهة السورية (سيما) Sima إبنة هدد واتراجاتس Atragates وقد ذكرت بعض المخطوطات من سوريا وجود اسم (سيميا) Simae كما تذكر اسماً آخر هو (عبد –سيما) وجاء في مخطوطات حوران اسم (امت – سيما) (1).

الثالوث السامري بيت ايل – عنات – اشيما يمكن أن يتطابق مع الثالوث السوري هدد – أترجاتس – سيما ويشير الدكتور Ungnad الى احتمال ارتباط عبادة (سيما) مع (اشيما) و (اشم) Asm، وهو يعتقد أن أفضل نسب بين (اشم) يمكن أن يكون (اشوم) Asum وهي العبادة البابلية للنار التي تتساوى مع الكلمة العبرية (ايش) "النار" المذكورة في الملوك الأول 38:18 وحبقوق 5:3.

كانت عنات Anath الآلهة الفلسطينية وهي أناتوت Anathoth وبيت عنات. وبيت عنان وبيت عنوت في (يشوع) أصبحت (بتل) Bethel، وهي نسخة مؤثثة من (أناتو) Anatu أو (أنوم) Anum إله الجنة البابلي، وقد اعتبرها كثير من الباحثين عبادة سومرية استناداً الى المخطوطات الفينيقية، وعبادة هذه الآلهة عرفت تماماً لأرميا (2)، الذي اعترض عليها. فاحتجوا عليه قائلين لقد قدمنا الأضاحي وسكبنا الخمر تقدمة الى (ملكة السماء). وعبادة ملكة السماء تعبّر عنها وثنية النساء في ارميا 18:8 حيث يقول: إن النساء عملن فطيراً قدمنه الى ملكة السماء.

---

(1) جان بوتيرو الديانة عند البابليين ترجمة وليد الجادر ص 53.

(2) المصدر السابق.

(1) جان بوتيرو الديانة عند البابليين ترجمة وليد الجادر ص 40.

(1) المصدر السابق.

(1) W. F. Albright, Archaeology And The Religion Of Israel P. 38
(2) O. Elissfeldt, Palestine In Time Of The Nineteenth Dynasty Vol. II

(3) Ibid.

(1) Ibid.

(2) A. T. Olmstead, History of Palestine And Syria P. 107

(3) David Noel Freedman, Biblical Archaeologist Vol 50 December 1987

(1) موشيه ديفيد قسوطو الآلهة عنات (عبري) 1958 ص 42-45.

(1) العهد الجديد انجيل متّى 28:10، 15:23.

(1) W. F. Albright, B.A.S.O.R. Number 71 October 1938

(2) فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. ترجمة جورج حداد ص 87.

(1) المصدر السابق.

(1) هو معبد مكرس لعبادة جميع الآلهة أو هو مجمع آلهة.

(2) R.A. Oden, Biblical Archaeologist Vol 39 No. 1 March 1967

(3) Ulf Oldenburg, The Conflict Between El And Baal In Cananite Religion 1969

(4) R.A. Oden, Biblical Archaeologist Vol. 39 No. 1 March 1976 P. 32

(1) Giovanni Pettinato, Biblical Archaeologist Vol 39 No. 2 May 1976

(2) Ibid.

(1) W.F. Albright Archaeology And The Religion of Israel P. 38

(2) W.F. Albright Archaeology And The Religion of Israel

(3) G.A.F. Knight, Nile And Jordan P. 178

(1) صموئيل كريمر من ألواح سومر ترجمة طه باقر ص 207 – 209

(2) G.A.F. Knight, Nile And Jordan P. 405

(3) Ibid.

(1) John Mckay, Religion In Judah Under The Assyrians 1973 P. 1

(2) Jastrow Morris, Hebrew And Babylonian Traditions 1914, P. 32

(3) Ibid.

(4) Joseph Offord, P.E.Q. 1916

(1) Joseph Offord P.E.Q. 1917

(1) Joseph Offord P.E.A. 1915

(2) ارميا 15:44

الأنبياء

لعل أهم الذين أثروا في بلورة الديانة اليهودية هم الأنبياء، والنبي يعني المتكلم عن الله أو المخبر عن الله، والأنبياء في التوراة أكثر، لكن ليس من دليل غير التوراة على وجودهم. والأنبياء الموجودون فعلاً هم الذين عاشوا في السبي أو بعد عودتهم الى فلسطين مع الجيش الفارسي. وقد تشكّلت الديانة اليهودية خلال قرنين بعد سقوط بابل على يد قورش الفارسي، عن طريق أنبياء السبي والكتبة، وهؤلاء أعطوا أدواراً لشخوص مخترعة سموهم أنبياء في فترات زمنية متباعدة، وكان دور هؤلاء "نقد" سلوكية العامة والخاصة، وليكون هذا النقد بمثابة دروس وعبر وتاريخ تبنى عليها الديانة الجديدة. وقد تطور التفكير عند الأنبياء المتأخرين بحيث تشكّلت هوة بين الكتابات وأنبياء المرحلة الأولى وكتابات وأنبياء المرحلة المتأخرة. ومما يميز المرحلة الأخيرة عن الأولى أنها اتسمت بالوعي الديني، فكانت أكثر تسامياً بالصفات الإلهية، وأعاد أنبياؤها صياغة العلاقة بين الإله والإنسان، وبين الإنسان والإنسان.

إن هذا التطور في الموقف الديني من المرحلة البدائية الفجة الى المرحلة المتسامية نسبياً يلقي الضوء على النفسية المنكسرة لهذه الشريحة من البشر، فبعد أن كانت تعاليم يهوه تحض على سفك الدماء وقتل الناس وبقر بطون الحوامل وحرق المدن والتنكيل بأهلها، وهي ردات فعل أولية على بداية مرحلة السبي فإن المعاملة الإنسانية التي عوملوا بها والدور الذي لعبه كثيرون ومنهم "النبي" دانيال واقتطاعهم المناطق الزراعية وإسناد الوظائف الإدارية الهامة لهم والسماح لهم بحرية العبادة. خفف من غلواء حالتهم النفسية. ومن جهة ثانية اطلع أنبياء مرحلة السبي على مجمل الديانات المحيطة وعلى تطورها واستفادوا منها، فلم يبق تفكيرهم محدداً ضمن إطار ديني واحد بل تجاوزوه الى ديانات ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام حتى تمكنوا من تهذيب أخلاقهم الدينية وصولاً الى مصطلح "التوحيد" بعد أن تجاوزوا مصطلح "التفريد" الذي أعطوه لإله موسى وداود مثلاً، والذي كان شائعاً في الديانات الأخرى فما هو منسوب

الى إله موسى أو داود هو ما عرف لدى الحضارات القديمة حيث كان يخص إلهاً واحداً من بين مجموعة آلهة بالتقديس والتعظيم دون نبذ عبادة الآلهة الأخرى. والواقع أن أهم ما يميز مبدأ الوحدانية الصرفة هو أن لا تساهل بوجود آلهة أخرى أو عبادتها، بل يعمد أصحاب الأديان الموحدة الى اضطهادهم وجواز قتلهم إن لم ينبذوا الشرك. والفريد هو مرحلة متطورة بين الشرك والوحدانية الصرفة، وقد ساعد في تسريع عملية التطور هذه أن أنبياء السبي لم يقروا بتفوق الإله (أشور) كما هو العرف عند الشعوب القديمة التي كانت تسقط القوة على إله الشعب المنتصر والضعف على إله الشعب المنهزم، بل لم يعترفوا بوجود الإله (أشور) ولا بغيره من آلهة الأقوام الأخرى، وعللوا ما كان يقع عليهم من محن أنه ناشئ عن ذنوبهم وآثامهم وعدم رضى إلههم (يهوه)، ويعتبر هذا المنطق من أبلغ التبريرات لتحويل الهزيمة الى نصر.

كان الهدف الأول والأهم لأنبياء السبي اختراع (أنبياء) من شخوص معروفة أو ليس لهم وجود إطلاقاً لترسيخ أفكارهم وإطروحاتهم وأعطائها البعد والامتداد التاريخي، فالكتبة هؤلاء أشاروا الى ثلاثة أنبياء هم عاموس وهوشع وأشعيا في فترة زمنية واحدة، وإذا شهد هؤلاء الثلاثة تدمير (السامرة) فقد شهد (ارميا) تدمير القدس وله نفس الأطروحات. . فلماذا هذا التكديس في الأنبياء؟!

مما لا شك فيه أن وجود عدد من أنبياء السبي في بابل وتبوؤ بعضهم مراكز هامة في الدولة (دانيال 3:1 – 10) مثل دانيال وعزرا وحزقيال ومع وجود الوثائق التي تعود الى فترات سابقة بحكم علاقاتهم مع مصر أولاً ثم البابليين ووجود مثل هذه الوثائق في البلاد البابلي، والجو النفسي العام – السبي والحرية الممنوحة لهم – أتاح فرصة نادرة للكهنة والأنبياء للإيحاء بما يريدون، خاصة أن هذا الإيحاء ربط مباشرة بالقوى الغيبية أو القوى الميتافيزيقية غير القابلة للتدقيق والتمحيص أو حتى التساؤل عنها. ولذلك ظهر من أسفار التوراة أول ما ظهر أسفار (الأنبياء) سواء الأنبياء المعاصرون للمرحلة أو الأنبياء الشخوص المتخيلة التي كتبها الأنبياء "المعاصرون للسبي وما بعده". وعندما بدأ قوروش الفارسي يتسعد لزرع العيون له في فلسطين سارع اليهود الى كتابة الأسفار الخمسة (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية) ليؤكدوا "حقهم التاريخي" بالرجوع الى فلسطين وقد ساعدهم في ذلك اطلاعهم على النصوص العراقية القديمة ومعرفتهم أنساب ملوك مصر من المصدرين، المصري (بحكم ارتباطهم كعملاء للفرعون وهم في فلسطين) أو من خلال الوثائق التي لا بد أن تذكر مجريات الأحداث المحيطة ببلاد الرافدين.

عاصر نبيان من أنبياء التوراة فترة السبي هما: حزقيال ودانيال، وكان نبوخذنصر قد استقدم دانيال الى بابل في أول سنة من حكمه (605 ق.م.) أي قبل السبي الأول البابلي بثمان سنوات، ورشح للخدمة في القصر

الملكي وسماه نبوخذنصر باسم (بلطشاصر)، وبعد انتقال الحكم الى الفرس الأخمينيين تقلد دانيال أسمى المناصب. ويعتقد أن مدفن دانيال يقع في مدينة الشوش الواقعة غرب ديزفول على الضفة اليسرى لنهر الكرخة في ايران.

كما ظهر في بابل وفي عهد (ارتحشستا) الأول (465 – 425 ق.م.) نبيان آخران هما عزرا ونحميا، فكان عزرا كاهناً لقّب بالكاتب لأنه كان موظفاً في بلاط الإمبراطور الفارسي ارتحششتا الأول وكان كاتباً دينياً ماهراً لذا سمي "عزرا الكاهن، كاتب شريعة إله السماء" وقد طلب عزرا من الإمبراطور السماح له بالهجرة الى القدس، فغادر بابل سنة 458 ق.م.، وقد قام عزرا بعد وصوله الى القدس بقراءة بعض فصول التوراة التي كتبها في بابل بإحدى اللهجات الأرامية التي اختارها لتكون "اللغة المقدسة" مفسراً لهم النصوص بالأرامية التي يعرفونها، كما أنه حمل معه الخط الأرامي (المربع) الذي سمي تالياً الخط العبري. وقد مات عزرا أثناء عودته الى بلاد فارس ودفن في منطقة بين القرنة والعمارة في العراق.

أما (نحميا) الذي عاصر عزرا في عهد ارتحشستا الأول فقد كان يعمل ساقياً في بلاد الملك الفارسي في (الشوش) عاصمة الفرس (نحميا 11:1) فرجا الملك السماح له بالذهاب الى القدس فأذن له وعينه حاكماً على إحدى ولايات فلسطين التابعة لفارس.

لقد أثر الفرس في الديانة اليهودية تأثيراً عميقاً ولا سيما في النظرة الفارسية الدينية (الثنائية الخير – الشر وفكرة الحساب ومبدأ العقاب والثواب والملائكة والشيطان).

لفظة نبي وفكرة النبوة ومدلولاتها وردت في التراث الكنعاني قبل وجود التوراة بمئات السنين مما يشير الى اقتباسها من قبل كتبة التوراة، فقد كانت مستعملة عند البابليين ويطلقون على الأنبياء اسماً محدداً يتضمن هذا المعنى هو "موخوخو"، كذلك وجدت في ألواح (ماري) كلمة موخوخو بمعنى رسول الإله كما وردت في إحداها كلمة نبوة (موخوخوتوم) (1).
تقوم الديانة اليهودية على مصدرين: التوراة (العهد القديم) والتلمود ومعناه التعاليم أو الشرح والتفسير وتتكون التوراة من 39 سفراً وتقسم الى ثلاثة أقسام:

الأول:
ويتألف من خمسة أسفار هي: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية، وقد أطلق على هذه الأسفار اسم "كتب موسى الخمسة".

الثاني:

الأنبياء ويشمل على مجموعتين: الأولى خاصة بالأنبياء الأول والثانية بالأنبياء المتأخرين، والأولى تحتوي على سفر يشوع، سفر القضاة، سفر صموئيل الأول والثاني، سفر الملوك الأول والثاني وسفر الأخبار، الأول والثاني. والمجموعة الثانية الخاصة بالأنبياء المتأخرين تتألف من أربعة عشر سفراً هي: اشعيا، ارميا، حزقيال، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، ملاخي.

الثالث:
الكتابات وتتألف من اثني عشر سفراً وهي: مزامير داود، أمثال سليمان، أيوب، نشيد الانشاد، راعوت، هوشع، مراثي ارميا، الجامعة، استير، دانيال، عزرا، نحميا.

---

(1) Giovanni: Pettinato Biblical Archaeologist Vol 39 No. 2 May 1976.

الكهنة

اقتبست الديانة اليهودية أول ما اقتبست نظام الكهنة من الديانات المحيطة وطورته ليصبح معها دور الكاهن، الإشراف على تطبيق الشرائع والشعائر، وبذلك أصبح الواسطة بين الإله والإنسان، أي أنه يقوم بدور النبي والحكيم بصورة غير معلنة . . فإذا كان النبي هو صاحب التشريع والحكيم هو المفسر لهذا التشريع فإن الكاهن هو المشرف الاجتماعي إضافة الى تفسير وحماية التشريع. ولكي يكون أتباع هذه الديانة تحت سياط اللوم و"التوجيه" والعقاب الدائم أسبغ على هذه المهنة سمات التقديس بنسبها الى هارون وأبنائه "اللاويين" (1).

تأثرت الديانة اليهودية بديانات مصر وكنعان في موضوع الكهنة، ففي مصر ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد لعب الكاهن الأعظم لآمون في طيبة مركزاً سياسياً هاماً. وفي بداية القرن الحادي عشر ق.م. وضع الكاهن الأعظم (هريهور) Hrihor أسس الكهنوتية المنظمة في النيل الأعلى.

إضافة الى ذلك فقد كان في أوغاريت كاهن عظيم (رابو كاهينيما)، ويعتبر رئيساً للكهنة. وهذا الإسم يشبه الإسم الأرامي (كهانا رابا) وهو في العبرية الكاهن الأعلى. وقد كان اللفظ نفسه تقريباً (راب كهونيم) يستعمل في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. حيث يطلق على رئيس الكهنة في المخطوطات الفينيقية. فهل يمكن الاعتراف بحقيقة أن مصادر العهد القديم عن الكاهن الأعظم مأخوذة ببساطة من (هاكوهن) "الكاهن" في الفينيقية والأرامية؟ سؤال طرحه الباحث وليم أولبرايت (2).

(1) الخروج 1:28

(2) W.F. Albright, Archaeology And The Religion Of Israel P. 107 – 108

الهيكل

الهيكل هو البيت الكبير الذي اعتقد الإنسان في بلاد الرافدين ضرورته لسكن الآلهة، فمكان إقامة الآلهة في السماء، وإذا رغبت النزول الى الأرض فلا تكون إقامتها إلا في بيوت كبيرة (الهيكل). لذا فتقديس الهيكل في الديانة اليهودية ليس من إبداع مؤسسي هذه الديانة بل هو مقتبس من الشعوب المحيطة ففي نفر – بابل ونينوى – أشور كان تقديس الهيكل منذ الألف الثاني قبل الميلاد. وفي (ماري) أظهرت اللقى أن هيكل (سن) في حران وقطنا كانا ذو شهرة منذ 1800 ق.م. ولم يكن الاهتمام بالهيكل في سوريا فقط أو العراق بل في مصر أيضاً، الى درجة أن هيكل بعل في بيبلوس تسلم النذور المصرية بكميات كبيرة في العصر البرونزي. (1)

أسفرت التحريات الحديثة في بلاد الشام الى الكشف عن المعابد القديمة وبعضها يرجع الى الألف الثالث قبل الميلاد كتلك التي عثر عليها في أريحا ومجدو وكانت بأبسط صورها مكونة من حجرة واحدة وباب، ولكن طورت أبنية المعابد بعد منتصف الألف الثاني ق.م. وازدادت مرافقها وأجزاؤها، وتمثلها المعابد التي اكتشفت في بيسان وأوغاريت، وتشترك مثل هذه المعابد جميعها بعناصر أساسية:

1) مذبح من الحجر
2) النصب المقدس
3) وبجانبه العمود المقدس
4) الحجرات تحت أرضية المعبد.

والى جانب المعابد المبنية استعمل الكنعانيون معابد محلية في العراء وعلى قمم الجبال والتلال لا تحتوي إلا على مذبح الحجر وعمود الحجر المقدس.

يعتبر المذبح أهم أجزاء المعبد وقد اقتبس كتبة التوراة سماته من الديانات المحيطة، وسمت الحجر المقدس – على طريقة الآخرين – بالتمثال والعمود (الملوك الثاني 27:10)، (التكوين 14:32)، (صموئيل الثاني 18:18) وبجانبه كان العمود المقدس أو الشجرة المقدسة (اشيرا) (الملوك الأولى 33:16)، (الملوك الثاني 6:23 – 7) (اشعيا 9:27). وقد اعتبر البروفسور Bade أن مذبح هيكل يهوه قد اقتبس كلياً من مذبح هيكل عشتارت، تؤكد

ذلك الآثار المكتشفة في رأس شمرة والتي أشارت الى الإسم الديني (يو-ايلات) (1).

تقول التوراة أن سليمان بنى الهيكل في السنة الرابعة لحكمه ليضع فيه تابوت العهد وكان اتجاه المعبد نحو الشرق حيث يمكن – على حد تعبير التوراة – رؤية الشمس المشرقة بين أعمدة المعبد. وهذه الأعمدة تذكرنا بالأعمدة الأشورية، وهو يماثل في تصميمه المعابد السورية (الكنعانية) المعروفة من أوغاريت وقطنا ودمشق، ومن الظواهر المعمارية التي يذكرها العهد القديم عن المعبد أنه بني من أرز لبنان، أي على الطريقة الفينيقية (ملوك الأول 14:6) وتذكر التوراة اسم (حيرام الصوري) (الملوك الأولى 23:7) حيث بنى لسليمان الحوض المسبوك من البرونز (الملوك الأولى 23:7) بقطر عشرة أذرع وعمق خمسة أذرع ويستوعب عشرة آلاف غالون ماء، ويرتكز على اثني عشر ثوراً برونزياً، والذي فسر على أنه رمز فينيقي للكون، وهو بالتأكيد على غرار المعابد البابلية التي ترمز الى (ابسو) أي ماء الأعماق.

عثر أثناء التنقيبات في (تل الناشبة) في فلسطين على مذبح كنعاني يماثل مذبح بنيامين التوراتي ويدل السور حول التل دون أدنى شك أنه كنعاني البناء (2). فالمذابح في فلسطين يرقى وجودها الى العصر البرونزي الوسيط أي قبل وجود الموسويين بمئات السنين. كما أن مذبح بيت شان مبني على النمط المصري (3).

---

(1) W. F. Albright, Archaeology And The Religion Of Israel P. 105

(1) Herbert Gorden May, Culture And Conscience P. 90

(2) J. Garrow Duncan, Diggin Up biblical History P. 218

(3) Raphael Giveon P.E.Q. Jan – June 1961

تابوت العهد

بعد أن كتب الله الوصايا بخط يده (خروج 15:32 – 17) وأعطاها لموسى كما تدعي التوراة وفيها نقش "العهد" مع "شعب الله المختار" ارتأى هؤلاء وضعها في خزانة يحملونها في ترحالهم سموها تابوت العهد. وتابوت العهد كعبادة متنقلة كانت صورة مطابقة لما جاء في الديانة المصرية، فتابوت المصريين غالباً ما يتضمن شعارات ورموز دينية وغالباً ما أخذ شكل القوارب، ولكن القاعدة العامة أنه يأخذ شكل صندوق أو خزانة – فكان

تابوت العهد الموسوي قد صنع ليحمل في موكب أو على أكتاف الكهنة وطوّق بالأعمدة والأضلاع، فالفوارق بين النوعين المصري والموسوي معدومة والسمات المشتركة ليست عارضة، لذا من الجائز القول أن تابوت العهد الموسوي نسخة طبق الأصل من تابوت العهد المصري الى درجة أن الكهنة التوراتيون أخذوا بطرق وقواعد الكهنة المصريين حتى في لباسهم وطرق تنفيذ شعائرهم (1).

يوم السبت

أساس الفكرة الدينية اليهودية بالنسبة ليوم السبت تذكرها التوراة: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل" (التكوين 2:2) لكن بالرجوع الى التراث البابلي فإن "يوم الراحة" يسمى "شباتوم Shabattum" ويتضمن نفس المفهوم التوراتي، ولما كان البابليون أقدم من موسى والموسويين فلم يعد مجالاً للشك أن كتبة التوراة اقتبسوه منهم.

المقارنة بين شباتوم البابلية و"سبت" التوراتية تبدو ضرورية. فعدة ألواح من مكتبة نينوى (مكتبة أشور بانيبال) تشير الى جملة "يوم راحة للقلب" Day of rest of the heart وهي جملة متكررة وواضحة تشير الى التوقف عن مواصلة الجهد والعمل وهذه الجملة توضحها جملة "اجعل القلب في راحة" May the heart be in resty وهي تعني ليكن الكائن الحي هادئاً. القلب والكائن الحي استخدما من قبل البابليين والأشوريين وكتبة التوراة ليأخذا مقعدهما في العقل والحياة، إنهما يظهران أن "راحة القلب" تعني راحة العقل والنفس. وأن "هدوء الكائن الحي" ترادف راحة القلب لتصل الى هدوء الكائن الحي الذي يعني التوقف عن الحركة. وهذا يؤكد وجود يوم لراحة البابليين، فشباتوم البابلية تكون أساس (شبت) أي سبت التوراتية (1).

---

(1) Werner Keller, The Bible As History P. 100

(1) Jastrow Morris, Hebrew And Babylonian Traditions 1914 P. 137

الموت ومصير الروح

اكتسبت فكرة الحساب بعد الموت أهمية كبيرة في العقائد الدينية عند العديد من أقوام الشرق الأدنى، حيث كانت هذه العقائد واضحة ومؤثرة في حضارة مصر القديمة وحضارة وادي الرافدين. فقد وردت الكثير من

الإشارات عن توقع المصري القديم للحساب بعد الموت منذ عصر الأهرام حيث نجده يؤكد مراراً على براءته من المعاصي والسوء، مثل: لم أرتكب أي عمل سيء نحو أي شخص، وكان جلياً أن مثل هذه الأخلاق تعتبر ذات قيمة في نظر الآلهة ويمكن أن تؤثر تأثيراً مادياً على سعادة الميت في الحياة الأخرى، فهناك عقاباً منتظراً لكل من ارتكب إثماً. وقد اعتبر الوصول الى حياة النعيم بعد الموت مرهون بحياة المتوفي الدنيوية الخلقية. حتى الفرعون الإلهي الذي كان فوق وصاية الحكومة الأرضية كان خاضعاً للإلزام الخلقي هذا (2)، بعد أن كان الملك في نصوص الأهرام يعرض كصاعد الى النعيم وهو يحظى بكل مباهج الخلود كإبن للإله (رع)، ويقوم الإله (أوزوريس) بدور القاضي في يوم الحساب في ردهة الحقيقة يعاونه اثنان وأربعون إلهاً وهم يمثلون أقاليم البلاد كلها، ويقف وراء أوزريس في المحكمة الإلهتان (ايزيس) و (نيفتس)، والى جانب الردهة يصطف تسعة آلهة يمثلون تاسوع (هليوبوليس) برئاسة إله الشمس (رع) وفي الوسط ينتصب ميزان (رع) الذي توزن فيه العدالة ويقوم على إدارته (أنوبيس) ويقف الى الخلف منه الكاتب الإلهي (تحوت) وهو يشرف على عملية الوزن وفي يده القلم ولوح الكتابة وتقبع خلفه ماردة مروعة يطلق عليها "الملتهمة" لها رأس تمساح ومقدمة أسد ومؤخرة فرس النهر، وهي تنتظر التهام الروح المدانة. وحين يدخل الميت الى الردهة يوضع قلبه في كفة من الميزان بينما توضع في الكفة الأخرى ريشة، رمز الحق والاستقامة، ثم يعلن تحوت الحكم على الميت (1).
لقد اعتقد المصريون القدماء بأن الإنسان مكون من عنصرين متمايزين هما الجسم والروح، واعتقدوا أيضاً بخلود الروح بعد الموت شرط بقاء الجسم سالماً وزود ببعض احتياجاته. فكان هم الديانة المصرية القديمة انقاذ روح الميت، لذا وضعت أدعية لهذا الغرض اقتبسها كتبة سفر أيوب وأدخلوها للديانة اليهودية ومنها (2).

الأدعية المصرية

- لم أرتكب زنا
- لم أتعامل بالغدر مع أي إنسان

أدعية أيوب

- عهداً قطعت على نفسي ألا أنظر الى عذراء
- لم أمش الى الغش أبداً

الانعطاف الحاد الذي تعرّضت له الديانة المصرية القديمة فيما يتعلّق بمصير الميت وقع نتيجة الأفكار التي طرحها امنحوتب الرابع (اخناتون) حيث نسخ فكرة البعث التي كانت متبعة والتي أقام الفراعنة الأهرامات لدفن الفراعنة

استعداداً ليوم البعث. وقد رأى بعض المفكرين (3) تأثر كتبة التوراة بما جاء به (اخناتون) الأمر الذي يفسد عدم ذكر يوم البعث في كافة أسفار التوراة.

كان تأثر الديانة الكنعانية مقتصراً على مصر قبل الألف الثاني قبل الميلاد حيث شاعت "عبادة الموت" (1) فقد تم اكتشاف أعداد من القبور جرى تحنيط أصحابها على الطريقة المصرية، ومنذ الألف الثاني ق.م. بدأت تدخل البلاد صنوف من الديانات من بلاد وادي الرافدين وذات جذور سومرية أو من شمال سوريا وذات جذور حثية. وقد تواترت الاكتشافات الآثارية في فلسطين مشيرة الى تداخل النماذج الدينية.

كانت العقيدة العامة عند سكان وادي الرافدين القدماء أن الخلود والحياة ميزة استأثرت بها الآلهة في حين أنها جعلت الموت نصيباً مقدراً على البشر وفكرة خلود الآلهة هذه أخذها لاحقاً كتاب التوراة كما يتضح من النص الآتي: "أيامي كظل مائل وأنا مثل العشب يبست، أما أنت يا رب فإلى الدهر جالس وذكرك من دور الى دور". (المزمور 11:102 – 12).

لم يتصور البابليون أن الموت غاية تتفرق عندها الحياة وتنعدم انعداماً كلياً أي أنهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق وأن الموت عندهم انعدام الكائن الحي الى جزأين وانفصال أحدهما عن الآخر وهما الروح والجسد، فبالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل الى طور جديد من الوجود، إذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر الى عالم الأرواح، وهو العالم الأسفل وتعيش هناك الى أبد الآبدين حيث لا قيامة ولا رجعة عندهم. فلم تتوالد عندهم فكرة دار للعقاب ودار الثواب فيما بعد الموت، فلم يكن ثمة نعيم وجحيم أو جنة ونار في الديانة البابلية بل للثواب والعقاب زمنيان في هذه الحياة، ونشأ عن هذا الاعتقاد تمسكهم بالسلوك والأخلاق التي فرضتها عليهم ديانتهم والتي انعكست على عباداتهم وخضوعهم للشرائع ومعاملاتهم التجارية، حيث تجد الآلهة تدخل في العقود والصكوك لئلا ينتقص نص العقد. وتذكر لعنات الآلهة في الشرائع على من يبدل نصوصها ويحرفها كما ورد جلياً في شريعة حمورابي.

ومن آثار الاعتقاد بالثواب والعقاب في هذه الحياة وانتفاء فكرة البعث والنشور أن البابليين أقبلوا على الدنيا وعملوا لها بخلاف الحضارة المصرية القديمة التي خصصت معظم جهودها لشؤون الموت، في حين أن الصفة المادية والتنعم والمتعة في هذه الحياة قد ظهرت في حضارات العراق القديم واضحة في مقوماتها وخصائصها؛ ويبدو أن ملوك العراق القدماء قد دفعهم الإيمان بانتفاء الخلود في عالم آخر الى تخليد أنفسهم بالأعمال العمرانية، وتراهم يشيرون الى هذه المحاولة صراحة في كثير من سجلاتهم ومآثرهم، حيث ذكر بعض أبطالهم ومنهم (جلجامش) الذي قام بأسفار ومغامرات الى موضع قصي ليكتب اسمه في مكان مخصص لأسماء الآلهة نشداناً للخلود.

يصف اللوح الثاني عشر من ملحمة (جلجامش) العالم الأسفل، وعالم الأرواح، وحين يصل الى جده (أوتو – نبشتم) يشرح له هذا أن الخلود فقط سمة للآلهة العظيمة.

أما العقائد الواردة في التوراة فأكثر قرباً الى عقائد البابليين رغم ممارسة بعض الشعائر المصرية كالتحنيط الذي فعلوه بيعقوب ويوسف كما تورد التوراة ذلك. فالتوراة تذكر عالم الأموات باسم "شيئول" (وهي تعني عالم الأموات أو جهنم أو عالم الأشرار) وتعني أيضاً العالم الأسفل والقبر والموت بشكل عام. وكما هو الحال عند البابليين، لم تتصور التوراة هذا العالم إلا مظلماً ومخيفاً. واستعملت التوراة لفظة (موت) للتدليل على فعل الموت، وهذه اللفظة اكتشفت حديثاً – من خلال ألواح شمره – إنها خاصة بإله الموت الأوغاريتي الذي يحمل اسم (موت) وهو نفسه (موتو) البابلي. ويستنتج من التوراة أن عالم الأرواح أو عالم الموتى في أعمق أجزاء الأرض السفلى تحت البحر (1). وأن لهذا العالم مدخل أو أبواب، كما اعتقد البابليون، وهناك حالات لم تذهب فيها أرواح بعض الموتى الى "شيئول" مثل حزقيا. وبعضهم مثل الياهو صعد الى السماء.

هل يذهب الأشرار والصالحون الى مصير واحد في نهاية المطاف هو "شيئول" وبذلك تتساوى الأعمال الخيرة والشريرة؟: لقد اختار فقهاء الدين اليهودي في الإجابة على مثل هذا التساؤل بالنظر لعدم وجود نصوص صريحة في التوراة حول موضع العقاب والثواب أو دار النعيم والجحيم. وهناك بعض الشروحات اليهودية التي تشير الى "شيئول" وهي مقر الأشرار فقط، فيكون هذا الموضع مرادفاً "لجهنم" (والجدير بالذكر أن كلمة جهنم مأخوذة من "وادي هنوم" قرب القدس وهو موضع كانت تمارس فيه عادة إلقاء الضحايا البشرية لأحد آلهة النار "مولك" ثم صاروا يرمون فيه أجسام المجرمين والقاذورات ويشعلون فيها النار منعاً من انتشار العفونة منه، فصار بذلك مرادفاً لموضع العذاب أي جهنم).

---

(1) نائل حنون عليوي عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين ص 116

(1) جيمس هنري بريستيد تطور الفكر والدين في مصر القديمة ترجمة زكي سوس ص 404

(2) G.A. Frank Knight, Nile And Jordan P. 390

(3) سيجموند فرويد موسى والتوحيد

(1) Herbert Gordon May, Culture And Conscience P. 65

(1) التثنية 22:32، المزمور 8:139، عاموس 2:9، أيوب 5:26

الطوفان

شاعت قصة الطوفان عن طريق التوراة (1)، التي كان بطلها (نوح)، وغدت رغم أسطوريتها تمثل حالة تاريخية لدى عموم الناس. لكن ما أن اكتشف الآثاريون البريطانيون مكتبة أشور بانيبال في نينوى ومن بينها عشرين رقيماً هي ما عرف تالياً بملحمة جلجامش حتى بات الباحثون يتساءلون حول القصة التوراتية للطوفان: ثم توالت الاكتشافات الخاصة بالطوفان لتكشف عدة قصص أخرى جميعها كانت شائعة وقبل كتابة التوراة بآلاف السنين، والقصص هذه ترتبط ثقافياً بأكثر من قناة وحبل واصل ومتصل بين ثقافة وأخرى.

لقد كشفت حتى الآن ثلاث قصص بابلية عن الطوفان الأولى – حسب اكتشافها – بطلها (اوتو – نبشتم) والثانية بطلها (زيو –سدرا) والثالثة ذكرها فرير كينسكي (2) Tikva Frymer – Kensky وبطلها يحمل اسم (ارهاسيس) الأمر الذي يؤكد شيوع هذه القصة الى الحد الذي وصلت معه بسهولة الى كتبة التوراة فوظفوها في كتابة سفر التكوين.

عرفت أسطورة (آرهاريس) منذ وقت طويل لكن البناء الأدبي للأسطورة لم يفهم حتى تمت قراءة صياغته من قبل J. Laessoe عام 1965 ساعد في ذلك نشر بعض الألواح البابلية المكتوبة بالمسمارية والتي تعود الى 1650 ق.م. من قبل الباحثان Millard و Lambert مما ساعد في معرفتنا لهذه الأسطورة.

تبين هذه الأسطورة صورة الكون ووجوده قبل الإنسان، عندما كانت الآلهة تعمل كالإنسان، والكون مقسم بين الآلهة، وكان انليل يحكم الأرض، والإله انكي العالم السفلي، وسبعة آلهة (يسمون أنو ناكي Anunnaki في الألواح) عينوا أنفسهم كطبقة حكام.

أصبحت "أعمال الآلهة ثقيلة وازعاج العمل تزايد" خاصة عندما حفروا دجلة والفرات – كما تقول الأسطورة – فتمردوا ورفضوا الاستمرار بمثل هذه الأعمال، وبنصيحة من انكي قرر الآلهة خلق من يقوم بالعمل. فخلق انكي والآلهة الأم الإنسان من طين ومن لحم ودم الآلهة المقتولة (1).

هذه الأسطورة تبدو أنها في حالة متطورة الى حد بعيد وقد استفاد كاتبها من الأفكار القديمة وربطها منطقياً من خلال بداية الإنسان، فقد كون صورة

عن خلق الإنسان وسبب وجوده، مما يدلل أنه أخذ بالمعرفة السابقة عن الطوفان ووظفها في قصة خلقه ليكمل القصة. ولما خلق الإنسان – كما ورد في أسطورة ارهاسيس – حدثت مشاكل:

اثنا عشر مائة من السنين [قد مرت]
[كانت الأرض ممتدة الى ما لانهاية] والشعوب تعيش عليها
[الأرض] تنفخ [مثل ثور]
انزعجت الآلهة من [هياجهم]
[أنليل سمع] ضجيجهم
[وخاطب] الآلهة العظام
ازعاج الإنسان [أصبح مؤرقاً لي]
[ومن ضجيجهم]، أحرم من النوم

لقد قررت الآلهة حل المشكلة بالقضاء على الإنسان، فأرسلت الطاعون، لكنه انتهى عندما نصح الآلهة أنكي رجلاً بمحاولة إقناع (نامتار) Namtar إله الطاعون لإبعاد هذا الوباء. فالطاعون لم يحل المشكلة – بالنسبة للآلهة – حلاً دائماً، فبعد اثنتي عشرة مائة من السنين ظهرت المشكلة مرة ثانية، فأرسلت الآلهة الجفاف والذي انتهى عندما رشى رجالٌ الإله هدد Adad فأرسل الأمطار. وتكررت المشكلة فأرسلت الآلهة المجاعة، ولم تحل المنغصات. وأخيراً حث الإله أنليل الآلهة لإيجاد "حل مثالي" للمعضلة واقترح إرسال الطوفان، فقضى الطوفان على الجنس البشري. وقد عارض انكي هذه الخطة حيث طلب من ارهاسيس بناء فلك لينجو من الطوفان، وقد ندمت الآلهة على فعلتها بسبب جوعها وعطشها وحاجتها لقرابين الإنسان. وهناك أقام ارهاسيس القرابين ودعا الآلهة، وأثناء ذلك قدم انكي حلاً دائماً للمشكلة، فجعل العالم بعد الطوفان يختلف بأن استدعى (نينتو) Nintu الى الولادة وخلقت خلقاً جديداً فتأكد أن المشكلة لن تتكرر.

القصة السومرية. ربما تكون أولى قصص الطوفان التي وصلتنا من البابليين وهي القصة التي بطلها (زيو – سدرا). وتبدأ الأسطورة بخلق الإنسان والحيوان وتأسيس المدن الخمس القديمة، ثم حدوث الطوفان لإفناء البشر، ولكن ندم بعض الآلهة ولا سيما إله (اريدو) "انكي" أخبر (زيو – سدرا) أن ينقذ نفسه ويبني فلكاً، ودام الطوفان سبعة أيام وسبع ليال، وبعد الطوفان كوفئ (زيو – سدرا) بأن خلدته الآلهة وأسكنته في أرض الموت والى أرض الموت ركب جلجامش الأسفار الطويلة، وحج الى جدة (اوتو – نبشتم) كي يعلمه الخلود.

أما أشهر القصص والملاحم التي تذكر الطوفان فهي قصة "جلجامش" والتي يشكّل "اوتو – نبشتم) إنسان الطوفان بطلها. وهذه القصة أطول ملحمة شعرية في الأدب البابلي وقد كتبت على إثني عشر لوحاً من الطين بنحو 3500 سطراً وقد عثر عليها الباحثون في مكتبة أشور بانيبال

في نينوى. ومحور القصة يدور حول مغامرات جلجامش وصاحبه (انكيدو) والطوفان في الأصل وقائع حقيقية حدثت في طيات الماضي البعيد في جنوب العراق تؤكده الحفريات الحديثة، وقد أرجعه الآثاريون الى حدود 3000 ق.م. وهذه الوقائع كانت تروى شفاهاً فتشوهت معالمها التاريخية والحال نفسه يشمل رواية التوراة عن الطوفان التي تشبه الروايات البابلية شبهاً كبيراً يجعلها ترجع الى أصل واحد، أي أن قصة التوراة والقصص البابلية الأخرى تروي خبر طوفان واحد وقع جنوب العراق في العهد المسمى بعهد جمدة نصر بداية الألف الثالث ق.م. تفصل بين دوري جمدة نصر وعصر فجر السلالات وذلك في مدن العراق القديمة ومنها (كيش) و (الوركاء) و (شروباك) (وهي بلدة فارة اليوم) والمدينة الأخيرة كانت موطن (أوتو – مبشتم) بطل أسطورة الطوفان البابلي. وقد ورد ذكر الطوفان في ثبت الملوك السومريين، حيث رتّب الملوك الى ملوك ما قبل الطوفان وملوك ما بعد الطوفان.

تبدأ القصة بوصف بطل الرواية (جلجامش) فتذكر حكمته وقوته، وتصف أعماله في مدينة الوركاء وكيف أنه بنى أسوارها ومعبدها المقدس (أي – أنا) وكان جلجامش على أتم ما يكون من الصورة والخلق، فقد صنعته الآلهة أحسن صنعة وذا جسم قوي، هائل الخلقة، ثلثاه إله وثلثه الباقي بشر.

أخذ جلجامش أهل الوركاء بالعنف والاضطهاد، فلم يترك ولداً لأبيه، ولم يترك الزوجة لحبيبها.

فاستغاث الناس بالآلهة، فاستمع الإله (أنو) لهم وقال للآلهة (ارورو) أنت خلقت جلجامش فاصغي غريماً ونظيراً له. فامتثلت (ارورو) لأمر (آنو) فغسلت يديها وأخذت طيناً وعجنته وصنعت منه بطلاً قوياً هو (أنكيدو) وكان هذا مارداً يغطي جسمه الشعر، لا يعرف البشر، وقف أنكيدو على باب المدينة متحدياً جلجامش، فنشبت معركة عنيفة بينهما، وبعد جهد تمكن جلجامش من أنكيدو. وأعجب البطلان كل منهما بالآخر فصارا صديقين حميمين.

ثم تآمرت الآلهة عشتار على أنكيدو فمرض ومات، فحزن جلجامش وأخذ يفكر بفكرة الخلود، حتى استقر به الأمر الى أن يجدّ بالسفر الى جده (اوتو – نبشتم) ليسأله عن الخلود، ولما وصل بدأ (اوتو – نبشتم) يروي له قصة الطوفان:

قال (اوتو نبشتم) لجلجامش: كنت أعيش في (شروباك) المدينة التي تعرفها الواقعة على نهر الفرات، وقد عزم الآلهة على إحداث الطوفان. وكان الإله (ايا) في مجلسهم فنقل حديثهم الى كوخ القصب (أي مسكن اوتو – نبشتم) وقال مخاطباً: يا كوخ القصب، اسمع يا كوخ القصب، وتأمل يا

حائط: يا رجل (شروباك) قوض بيتك وابن لك سفينة واترك ما تملك وانج بنفسك وخذ معك الى السفينة بذرة كل مخلوق حي. ولما سمعت ذلك قلت للإله (ايا)، يا إلهي سأعمل بكل ما أمرتني به ولكن بماذا سأجيب أهل مدينتي؟ فأجابني (ايا) هكذا قل لهم أن (انليل) يكرهني فلن أستطيع العيش في مدينتكم بعد الآن وسأنزل الى مياه (الابسو) وأعيش مع (ايا) الهي، أما أنتم فسينزل عليكم المطر مدراراً، وسيمطركم الموكل بالزوابع مطراً من قمح، فجمعت الناس حولي وشرعت بصنع السفينة، وأقامت هيكلها، وأنشأت فيها ست طبقات سفلى، قسمتها الى سبع طبقات، وقسمت طبقاتها الى تسعة أقسام وجهزتها بما نحتاج اليه من المؤن. وحملت فيها كل ما أملك، ووضعت فيها بذرة كل مخلوق حي، وأدخلت فيها أهلي وذوي قرباي، وحيوان البرية ووحوشها وجميع الصناع. وحلّ الوقت المعين فأرسل الموكل بالزوابع مطراً مهلكاً من السماء، وتطلّعت الى الجو فإذا هو مخيف لا يمكن النظر اليه، فدخلت السفينة وأغلقت بابها، وعندما لاح أول خيط من نور الصباح أتت غيوم سود من الأفق البعيد، وأرعد الإله (أدد) في داخلها، وبلغت رعوده عنان السماء، وانقلب النور الى ظلمة، وهبّت العواصف العاتية يوماً واحداً وحلت بالناس كالحرب المدمرة وانكسرت السدود، استمرت العواصف ستة أيام وست ليال وانهمرت الأمطار، فغطى الطوفان الأرض وذعر الناس بل والآلهة حيث انهزموا الى سماء (انو) وصرخت عشتار مثل امرأة في المخاض وانتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي وقالت: تحولت الخليقة القديمة الى طين لأني أمرت بالشر في مجلس الآلهة، وصار البشر الذين ولدتهم مثل بيض السمك يملأون المياه. ولما كان اليوم السابع خفت شدة العاصة والطوفان، وسكن البحر وهدأت الزوبعة، ففتحت كوة من السفينة فسقط النور على وجهي، وتطلعت الى البحر فكان كل شيء هادئاً واستحال البشر جميعاً الى طين. فانحنيت وبكيت . . ثم استوت السفينة على جبل نصير الذي أمسك السفينة ولم يدعها تتحرك طوال سبعة أيام، فأطلقت في اليوم السابع حمامة فذهبت الحمامة ثم عادت لأنها لم تجد موضعاً تحط عليه، ثم أطلقت السنونو وكانت المياه قد انحسرت، فأكل وحام وحط ولم يرجع اليه. ثم أطلقت كل شيء الى الرياح الأربعة وقرّبت قرباناً، فلما شمت الآلهة رائحة القربان، اجتمعوا حول ما ضحيت كأنهم الذباب. وقالت الآلهة عشتار: أيتها الآلهة: "كما أني لا أنسى عقد اللازورد الذي في عنقي سأتذكر هذه الأيام ولن أنساها، فلتقترب الآلهة من القربان إلا (انليل) الذي أحدث الطوفان بلا روية فأهلك البشر".

وعندما وصل (انليل) ورأى السفينة غضب غضباً شديداً لأن بعض البشر نجا من الهلاك، وانبرى له الإله (ايا) وكلمه قائلاً: أيها البطل، يا أعقل الآلهة، كيف جاز لك أن تحدث الطوفان بلا روية، فلتحتمل ولا تفرط في الشدة على المذنب فتهلكه ولا تلن له كي لا يفلت زمامه، ثم صعد انليل الى السفينة وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي، فسجدنا له، ثم وقف بيننا ولمس ناصيتنا وباركنا بقوله: لم يكن أوتو – نبشتم حتى الآن سوى إنسان

ولكن ليكن أوتو – نبشتم وزوجه إلهين مثلنا، وسيعيش أوتو – نبشتم بعيداً عند (فم الأنهار) فأخذوني وأسكنوني، في هذا الموضع (1).

يرى الباحثون أن قصص الطوفان جميعها تخبر عن حدث واحد، والطوفان التوراتي "طوفان نوح" مأخوذ عن القصص البابلية بتغيير بسيط ورد في الأسماء التي يقتضيها التطور الحاصل . . ومع ذلك نجد أحياناً تطابقاً يصل حد اللفظة بين القصة البابلية والقصة التوراتية: فعندما أنهى (أوتو – نبشتم) بناء السفينة قال: "أدخلت الى السفينة كل عائلتي وأقربائي، الماشية من الحقل ووحوش البرية وكل أصحاب الحرف جعلتهم في السفينة". أما نوح فتقول التوراة عنه "دخل نوح وأولاده وزوجته وزوجات أولاده بسبب مياه الفيضان. ومن الوحوش الطاهرة والوحوش غير الطاهرة، ومن الوحوش وكل ما يدب على الأرض، ثم دخل نوح ومن معه اثنين اثنين الى الفلك ذكر وأنثى" (2).

ثم يخبر (أوتو – نبشتم) جلجامش عما حصل له بعد انحسار الماء:

فتحت الكوة فغمر الضوء وجهي
والسفينة استقرت على جبل نصير
جبل نصير أمسك بالسفينة ومنعها من الحركة

أما نوح فتقول التوراة عنه:

وفي اليوم الأربعين فتح نوح كوة في السفينة التي عملها
واستقرت السفينة في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط (3).

وكما فعل أبطال الطوفان البابلي عند انتهاء الطوفان فعل نوح حيث قدّم القرابين للآلهة فتذكر التوراة ذلك نصاً وكأنه مقطوع من لوح سومري: "وبنى نوح مذبحاً للرب، وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح، فتنسم الرب رائحة الرضا . . . " (1).

---

(1) التكوين 6، 7

(2) Tikva Frymer – Kensky, Biblical Archaeologist Vol 40 No. 4 1977

(1) Ibid. P. 148 – 149

(1) يمكن الرجوع الى قصص الطوفان بتوسع في كتاب "الطوفان" فاضل عبد الواحد علي

(2) Werner Keller, The Bible As History P. 54

(3) Ibid.

(1) تكوين 20:8 – 22

جنة عدن

شاعت قصة جنة عدن بين الناس عن طريق التوراة، حيث تذكر أن بداية خلق الإنسان كان في جنة عدن. والجنة هذه وبدليل التوراة لا بد أن تكون بأرض وادي الرافدين أو قريبة منها حيث الإشارة واضحة أثناء الحديث عن الأنهار التي تسقي الجنة: "واسم النهر الثالث حداقل (دجلة) وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات" (تكوين 14:2).

لقد ترك الأدب السومري أثره العميق على كتبة التوراة، ومن المؤكد أن السومريين ما كان بإمكانهم التأثر بهؤلاء لأنهم كانوا قد زالوا من الوجود قبل ظهور التوراة وكتبتها بآلاف السنين. ولكن لا يوجد أدنى ريب في أن السومريين قد أثروا تأثيراً عميقاً في الكنعانيين كما أثروا في جيرانهم، الأشوريين والبابليين والحثيين، والآراميين. وأوجه الشبه كبيرة بين الروايات التوراتية والأسطورة السومرية التي تحمل اسم (انكي وننخر ساج) التي نشر نصها عام 1951م وهو مؤلفة من 278 سطراً منقوشة على لوح مؤلف من ستة حقول محفوظ الآن في متحف جامعة بنسلفانيا. كما يوجد نص صغير مكرر في متحف اللوفر سبق أن تعرّف عليه (ادوارد كييرا) (1). ويمكن إيجاز موضوع هذه الأسطورة السومرية عن الفردوس (جنة عدن) على النحو التالي:

كانت بلاد (دلمون) أرضاً طاهرة مشرقة، نظيفة. أرضاً معدة للحياة. وكانت لا تعرف المرض والموت، ومع هذا كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات. لذا أمر الله إله الماء السومري (انكي) الإله (أوتو) أن يملأها بالمياه العذبة، وهكذا تحوّلت (دلمون) الى جنة إلهية خضراء.
وقد عيّن البابليون موضع "أرض الأحياء" الخاصة بالخالدين فهم في أرض دلمون، وهذا ما تصفه التوراة، ويطابق هذه الأرض حيث تصفها: بستان غرس في الناحية الشرقية في عدن وهو الموضع الذي تنبع من مياهه أنهار العالم الأربعة من ضمنها دجلة والفرات. وهو الموضع المرجح أن يكون مطابقاً لموضع دلمون، الفردوس السومري.

ثم تذكر التوراة السومرية العبارة التي تصف أرواء (دلمون) من جانب الإله (أوتو) بالماء العذب الذي ينبع من الأرض، وهذا يشبه ما ورد في التوراة: ثم خرج من الأرض ضباب فسقى وجه اليابسة جميعه. (تكوين 2:4 – 6).

آدم وحواء

إضافة الى الدليل الذي تقدّمه الملاحم البابلية على وجود طوفان قديم – أثبتته التنقيبات – واستغله الشعراء السومريون في رسم ملامح أساطيرهم، ونتيجة تحليق خيالهم في رسم تفاصيل هذه الأحداث انتقلت هذه الصور من جيل الى جيل ومن شعب الى آخر وعبر مراحل زمنية متباعدة محدثة نوعاً من التغيير في شكل الأسطورة مع بقاء مضمونها وفلسفتها على حالة: الأمر الذي أوصل الينا – حتى الآن – أربعة ملاحم، الرابعة والأخيرة هي أسطورة الطوفان التوراتي. وقد أوردت الآداب البابلية المنقولة عن السومرية أسطورة "ادابا" فتصف أحداثاً دفعت هذا الإنسان الذي كان يصيد السمك في مدينة (اريدو) والذي حباه الإله (ايا) "انكي" سعة المعرفة والسلطة دون الخلود التي تميزت به الآلهة. وكما تذكر الأسطورة فإن (ادابا) حصل على الفرصة لنيل الخلود حين قرر إله السماء (انو) استدعاءه لمحاكمته على كسر جناح الريح الجنوبية ولكن بعد شفاعة الإله تموز قرر (أنو) تقديم الطعام وماء الحياة (لآدابا) ليحصل على الخلود إلا أن أدابا امتنع عن تناولهما بناء على نصيحة الإله (ايا) بعدم الأكل في حضرة الإله (أنو) لأنه كان يتوقع تقديم طعام وماء الموت لأدابا، ونتيجة امتناعه عن الطعام والشراب هذا أدى الى سخرية (أنو) ومن ثم حرمانه من الخلود وأعاده الى الأرض ليموت عليها مثل البشر.

ذهب الباحث E. Ebeling أن اسم (أدابا) يتطابق مع اسم (آدم) الوارد في التوراة، وأن ما حدث لأدابا يشابه ما جرى لآدم في "جنة عدن".

أما حواء التي "خلقت من ضلع آدم" كما تقول التوراة فقد أخذت التوراة تفاصيلها من الأسطورة السومرية (انكي وننخر ساج) التي تتحدث عن الفردوس. ففي هذا الفردوس (جنة عدن) أنبتت الآلهة (ننخر ساج) ثمانية أنواع من النباتات. وننخر ساج هي (الآلهة الأم) العظمى عند السومريين ولعلها (الأرض – الأم). أنبتت هذه الأنواع من النباتات بعد عملية معقدة شملت ثلاثة أجيال من الإلهات، ولدن كلهن من إله الماء. وقد أكدت القصيدة – الأسطورة – أن ولادتهن قد تمت دون ألم عند المخاض، ولكن (انكي) أراد أن يذوق طعم تلك النباتات. ولما علمت ننخر – ساج أنه قطف منها غضبت ونقطت بلعنة الموت على الإله (انكي) ولكي لا تغير في قرارها ابتعدت عن جميع الآلهة واختبأت. وبدأت صحة (انكي) تتردى ومرضت ثمانية من جوارحه، ولما كاد (انكي) يشرف على الموت حزنت الآلهة عليه، حتى انليل – إله الهواء – ملك الآلهة السومرية لم يستطع عمل شيء لـ (انكي). فجاء الثعلب وقال للإله أنليل أنه قادر على حمل

الآلهة (ننخر – ساج) الى العودة، الى مجمع الآلهة وتشرف على علاج إلـه الماء المشرف على الموت.

وبمقارنة ما جاءت بـه هـذه الأسـطورة مـع مـا ورد فـي التـوراة نطلـع علـى عملية الاقتباس ذاتها فولادة الآلهات التي كانـت تـتم دون ألـم تلقـي ضـوءاً على اللعنة التي لعنـت بهـا حـواء وبـذلك أصـبحت المـرأة تلـد – بنـاء علـى اللعنـة – الذريـة بـالغم والأسـى، كمـا أن أكـل الآلـه (انكـي) مـن النباتـات الثمانية يذكرنا بأكل آدم وحواء – في التوراة – من شـجرة المعرفـة واللعنـة التي حكم على كل منهما من جراء ارتكاب تلك الخطيئة.

ولعل أهم نتيجة يمكـن الوصـول اليهـا مـن التحليـل المقـارن ذلـك التفـسير الذي تقدّمه لنا هذه الأسطورة السومرية لتلـك الفكـرة التوراتيـة التـي تعـد من أكثر الأمور المحيرة في قصة جنة عدن الواردة في التوراة ونعنـي بـذلك العبارة المشـهورة التي تصف خلـق حـواء "أم جميـع البـشر" مـن ضـلع آدم. فلماذا خلقت من الضلع؟ وما هو الذي دفع كاتب هذا السفر أن يختار الضلع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتخلق منه المرأة التي يعني اسمها حواء – بحسب تفيسر التوراة – تلـك التـي تحيـي، أو تـسبب الحيـاة؟ إن سـبب ذلك يتوضح بمجرد الاطلاع على النص الـسومري لأسـطورة (دلمـون) – أي الفردوس – ففي هذه الأسطورة، كان أحد أعضاء الإله (انكي) الـذي أصـابه المرض هو الضلع والكلمة السومرية التي تدل علـى الـضلع هـي (تـي) Ti ودعيت الآلهة التي خلقت من أجل شـفاء الـضلع – أي ضـلع الإلـه أنكـي – باسم (نن – تي) أي "سيدة الضلع" ولكـن الكلمـة الـسومرية (تـي) تعنـي أيضاً (احيا) أو "جعله حياً" وعلى ذلك يعني اسم الآلهة (نن –تي) الـسيدة التـي تحيـي أو سـيدة الـضلع. فاسـتغلت التـوراة وكتبتهـا هـذه الأسـاطير ووظفوها على أنها تراث توراتي.

---

(1) صموئيل كريمر من ألواح سومر ترجمة طه باقر ص 240 – 244

الفرق الدينية اليهودية

بدأت الفق الدينية اليهوديـة بـالظهور بعـد أن وجـدت الديانـة اليهوديـة فعليـاً زمن المكابيين في القرن الثاني ق.م.، وبحكـم اتـساع هـذه الديانـة أخـذت الاتجاهات المتـضادة تتبلـور فكريـاً وسـلوكياً ومنهجيـاً فارتـأى زعمـاء اليهـود تشـكيل المجمع الديني اليهودي الأعلى "الـسنهدرين" فـي القـدس، لكـن ألغاه الرومان سنة 70م فانتقل أعضاؤه الى قرية (يبنه) قرب يافا ومنها الى طبريا. وفي عهد الامبراطور (اتونيس بيـوس) (138 – 161م) أعيـد تـشكيل السنهدرين في الجليل، وظل منصب رئاسـة الـسنهدرين وراثيـاً فـي عائلـة هلل أكثر من ثلاثة قرون.

كانت صلاحايت السنهدرين تضيق وتتسع من وقت لآخر حسب أهواء الرومان بعد احتلالهم بلاد الشام سنة 64 ق.م. والسنهدرين هو الذي حاكم المسيح بن مريم وقضى بصلبه سنة 29 للميلاد (مرقس 53:14 – 64، متى 56:26 – 68) وكان يتألف حين ذاك من 71 عضواً.

لكن نتيجة انتشار الثقافة اليونانية بين اليهود نشأت طائفتان يهوديتان هما:

- الصادوقيون:

نسبة الى عائلة الكهنة Zadokites وقد كان أغلب أعضاء هذه الفرقة من الكهنة والطبقة الارستقراطية، لذا لم يكن لهم أتباع من العامة، وكانت صلاتهم قوية مع الحسمونيين – المكابيين – وقد تمسكت هذه الفرقة بحرفية التوراة، وقالت: إن أي كلمة لم تجيء في النصوص "المقدسة" تعتبر لاغية، ونتيجة تمسكها بحرفية التوراة أنكرت وجود حياة أخرى أو يوم قيامة.

- الفريسيون:

هم فرقة دعت الى استعمال التأويل لمواجهة الثقافة الهلنستية ولذلك أقصوا عن مجلس السنهدرين مدة ربع قرن. وظل الصادوقيون يناصبونهم العداء.

وبعد استيلاء الرومان على فلسطين والقضاء على المكابيين تولت قيادة اليهود عائلة هيرود فانشقت طائفة الفريسيين الى اتجاهين:

أ) المتحمسون: Zealots وهي فرقة كانت تدعو الى رفض الثقافة الهلنستية – الرومانية وبرزت من هذه الفرقة مجموعة متطرفة تدعى (أصحاب الخنجر).

ب) الزاهدون أو المتنورون ويسمون الأسينيون Essens: وكانوا على عكس المتحمسين، مسالمين الى أقصى حد ومغالون جداً في تدينهم وقد عاشوا في قرى خاصة قرب البحر الميت ومن هؤلاء ظهر يوحنا المعمدان ويسوع بن مريم.

- القراءون:

ظهر مذهب القرائين كرد فعل على وجود دين جديد (الإسلام) لتتطوير بعض المفاهيم الدينية، لذا رأى أتباع هذا المذهب إمكانية مخالفة نصوص التملود. وكان (سيرونيوس) زعيم يهود سوريا أول من جاهر بهذه الآراء ثم

تبعه (عوبيديا) من يهود أصفهان، لكن المؤسس الحقيقي لهذا المذهب هو (عناد بن داود) الذي عاش زمن أبي جعفر المنصور. وبعد ذلك شهدت هذه الفرقة عدة اتجاهات:

أ) طائفة الأكبرية أسست قرب بغداد حوالي عام 840م ومذهبهم قريب من السامرية.

ب) طائفة التفلين أسست ونشأت في بلاد فارس.

ت) الطائفة البعلبكية ومؤسسها موسى البعلبكي.

- الرابانيون:

يشكلون عامة اليهود أو قادتهم ويؤمنون بالتوراة والتلمود.

- السامريون:

وتقيم هذه الطائفة في مدينة نابلس وهذه الطائفة لا تعترف إلا بأسفار موسى الخمسة، ويعتقد أنهم من بقايا الجماعات التي نقلها الأشوريون من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب ليحلوا محل الموسويين الذين نقلوا الى نينوى. فاختلطوا مع باقي السكان واعتنقوا لاحقاً اليهودية بعد تأسيسها. وقد قاموا بثورات زمن الإمبراطور (زينو) (474 – 491م) فطردهم من مقرهم على جبل (جرزيم)، ثم ثاروا زمن الإمبراطور (جوستنيان) فنكل بهم، فهرب بعضهم الى إيران واعتنق القسم الآخر المسيحية. وبعد الفتح العربي عاد السامريون الى نابلس وعاشوا في أمان. وهم يؤمنون بالتوراة فقط وينكرون التعليم الشفوي. ولا يزيد عددهم اليوم عن 200 شخص.

- السباتيون وأتباع فرانك:

وهي فرقة ظهرت شرق أوروبا بداية القرن السابع عشر للميلاد وادعت مجيء المسيح لكنها انقرضت مع مرور الزمن ووقوف الحاخامات اليهود ضدها وسموا المسيح بن مريم "المسيح الكذاب".

- الحاسدية – الأنقياء:

أسس هذه الحركة (اسرائيل بعل شمعون) (1699 – 1761م) في أوروبا الشرقية كرد على فرقة "المسيح الكذاب" وقد تبنت تالياً فلسفة وحدة الوجود الصوفية ثم تفرعت الى ثلاثة شعب:

أ) الفرقة الأوكرانية: وهي تؤمن بتعاليم الحاسدية الأصولية (أي الحاسدية التي ظهرت زمن المكابيين).

ب) فرقة الهاباد: وهي أقرب الى النهج الفلسفي أو فلسفة الدين.

ت) الفرقة البولندية: وهذه الفرقة رفعت الوسيط (الحاخام) الى درجة أعلى من الإنسان العادي وأعطته ميزات تجعله وسيطاً لله. وقد انتشرت هذه الفرقة بسرعة بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

ومن الفرق التي لها حضور نسبي بين اليهود الفرقة المعروفة اليوم باسم (ناطوري كارتا) وهي امتداد للفرقة الحاسدية الأصولية. كذلك هناك شبه فرق دينية بدأت بالتبلور نتيجة تعمّق الخلافات الدينية مثل الاتجاهات الدينية عند يهود الفلاشا الذين لا يعترف بتدينهم عند الكاهن الأعلى في (إسرائيل).

الفصل الثامن

مقدمة

إذا وجد الباحثون صعوبات في فهم ومعرفة أصول الديانة اليهودية وجذورها ووصلت بهم الى ما يمكن تسميته "إشكالية حكم"، فإن إشكاليات أعمق وأكثر عمومية تلف اللغة العبرية، فمتى بدأت اللغة العبرية، وما هي اللغة التي تحدثها موسى والموسويون، والمباحثات أو المفاوضات بين موسى وهارون من جهة – كما تدعي التوراة – وفرعون من جهة أخرى، هل تمت بلغة معينة بين طرفين أم خضعت لوسيط مترجم؟! ثم الألواح التي كتبها الله بخط يده وأعطاها لموسى – كما تقول التوراة – لم تشر الى كنه اللغة تلك ولم تميزها أو تدلل على مضمونها.

ثم لماذا لم تذكر التوراة، بكل أسفارها، اسم "اللغة العبرية" بينما أشارت الى لغة كنعان نصاً، حين أفادت أن الموسويين تحدثوا بلغة كنعان "سفت كنعن" وذكرت كذلك البابلية والأرامية.

الأسفار المتأخرة من التوراة والتي كتبت بعد القرن الرابع قبل الميلاد لم تشر الى العبرية كلغة قومية وإنما أشارت الى ما سمته "اللغة المقدسة" وهذه الإشارة تحتمل أكثر من وجهة نظر. وحتى الحوار الذي تذكره التوراة بين القائد الموالي للأشوريين (الربشاقي) وبين رجال حزقيا لم يرد في أي نص أو ضمن أية حولية لسنحاريب. والذي حصل هو المزاوجة بين الرواية كما أوردتها الحوليات وما ورد في التوراة، فالحوليات تذكر أخبار الحرب، بينما الباحثون الغربيون ذوي الخلفية التوراتية يفسرون النصوص المسمارية تلك على ضوء ما ورد في التوراة. ومن أهم الكتّاب الذين درسوا حملات

سنحاريب الباحث (لوكنيل) D.D. Luchenbill (1) لكن قراءة ولو سريعة الى كتاب سنحاريب الذي أعده هذا الباحث، سنرى مدى اعتماده على التوراة في تفسير الأحداث وبذلك يبتعد عن الموضوعية. فعلى سبيل المثال يرد بالنص الأكدي – كما جاء في الكتاب المذكور آنفاً – جملة "حزقيا من يهوذا" فيترجمها الباحث الى الإنجليزية Hezekia the Jew (حزقيا اليهودي) ومن المؤكد أن المعنى في العبارتين مختلف تماماً. فالنص الأكدي يشير الى حزقيا من يهوذا كمكان جغرافي معروف وهو الإسم المرادف لمنطقة (أورشليم) بينما النص الإنجليزي فيربط حزقيا بالديانة اليهودية وبذلك يضع الكاتب النص في إطار المفارقات التاريخية. والأمر نفسه يحدث عند ذكر منطقة (السامرة) أو حكام منطقة السامرة (وهي نابلس أو سبسطية اليوم)، ففي النصوص الآثارية – وهي قليلة جداً – التي تذكر السامرة لم يرد إطلاقاً إسم (مملكة إسرائيل) أو (ملوك إسرائيل). فبالنصوص العراقية أو الكنعانية يرد اسم السامرة أو "بيت عمري" – كما هو الحال على حجر مؤاب – ولكن عند ترجمة النص عن الأكدية والخط المسماري (وهو خط الأشوريين) أو الفينيقي – يصبح لفظ السامرة "مملكة إسرائيل" أو "بيت عمري" الملك عمري ملك إسرائيل أو السامرة. والأمر عينه انسحب على موضوع اللغة. فالتوراة لم تذكر اسم "اللغة العبرية" والنص الوارد في التوراة: "وقال الياقيم بن حلقيا وشبنه ويؤاخ لربشاقي كلم عبيدك بالأرامي لأننا نفهمه ولا تكلّمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور" (2).. والريشاقي كما تذكر التوراة هو من لخيش (3) (تل الدوير) وبذلك تتوضح الصورة. فلخيش تقع قرب منطقة يهوذا ومحاذية لها وسكانها لا بد أن يكونوا من الكنعانيين كما هو الحال في يهوذا، فإذا صحت رواية التوراة وتحدث الريشاقي بلغة، غير الأرامية، فستكون اللغة الكنعانية وهي لغة منطقة يهوذا الكنعانية، أما أن تتحول الكنعانية في يهوذا الى العبرية لدى كثير من الكتّاب فأمر يبتعد عن الدقة الموضوعية.

ويؤكد المؤرخ اليهودي (ابراهام بن يعقوب) أن الذين سباهم الملك الأشوري (شلمنصر) كانوا يتكلّمون اللغة الأرامية (1)، وهذا يتناقض مع نص التوراة، آنف الذكر، الذي يشير صراحة الى عدم معرفة "الشعب" باللغة الأرامية.

إذا عدنا الى التسلسل التاريخي منذ "خروج" موسى والموسويين، والذين لا يوجد أي دليل أو نص يشكك في أنهم مصريون، فإن اللغة التي كانوا يتحدثونها لا بد أن تكون المصرية، فعندما استوطنوا فلسطين تحدثوا الكنعانية، كما تؤكد التوراة ذلك، ولما وقع السبي الأشوري بعد احتلال السامرة في القرن السابع ق.م. كانت الأرامية تعم وتسيطر في منطقة الشرق الأدنى، وبشكل خاص في بلاد أشور فتعلمها هؤلاء وتحدثوا بها وترسخت هذه اللغة أثناء السبي البابلي والاحتلال الفارسي، لذا كتبت التوراة أول ما كتبت بالأرامية واعتبرت "اللغة المقدسة" ونقل الحرف الأرامي (المربع) ليكون أبجدية "اللغة المقدسة" هذه. وعندما عاد عزرا

الى فلسطين حاملاً معه التوراة المكتوبة في بابل بالأرامية احتاج الى توضيح هذه الكتابة عند قراءته للنصوص – كما تشير التوراة الى ذلك – أمام أتباعه. وقد ترجمت النصوص من اللغة الأرامية الى اليونانية وهي الترجمة التي تسمى بالسبعونية ومنها ترجمت الى اللهجة الأرامية الذي اختير لها اسم "اللغة العبرية" أثناء حكم اليونان وبالذات في فترة المكابيين. والدليل على ذلك عدم وجود أي نص باللغة العبرية قبل الفترة المكابية.

ولأهمية الموضوع لا بد من التوسع قليلاً في موضوع اللغة والعلاقات اللغوية التي تدخل في صلب موضوعنا. خاصة أن الباحثين يخلطون بين العبرية وغيرها بطريقة لا يسندها دليل علمي: وسنعمد الى النصوص المكتوبة لتوضيح اللغة وأبجديتها أو خطوطها.

---

(1) Daniel David Luchenbill, Annals of Sennacharig P. 12-13

(2) الملوك الثاني 26:18

(3) الملوك الثاني 17:18

(1) ابراهيم بن يعقوب الطوائف اليهودية في كردستان (عبري) القدس 1961 ص 11

بدايات الكتابة

ليست الحروف الهجائية المعروفة إلا طريقة من طرق الكتابة العديدة، كالكتابة الصورية Pictography والكتابة الرمزية Ideography. غير أن الحروف الهجائية تختلف عن كل هذه الطرق بكونها طريقة اصطلاحية للكتابة، وتكون العلاقة بين الحرف والصوت علاقة اصطلاحية وليس علاقة لازمة (1) على حين أن الحال في الأنواع الأخرى للكتابات تكون العلاقة بين العلامات والأشياء التي تمثلها تلك العلامات علامة لازمة أساسية. وهذه الأنواع أقدم من الدور الهجائي. ويمكننا ملاحظة أدواراً أخرى للكتابة أقدم من الدور الصوري والرمزي وهي أساليب اصطلاحية استعملت لمساعدة الذاكرة في تسجيل حوادث وأشياء مادية برموز وعلامات عليها: مثل عمل الأنشوطات والعقد على قطعة من القماش أو حبل بعد الاصطلاح على ما تمثله كل عقدة من معانٍ ودلالات. وبالإجمال يمكننا استخلاص أربعة أدوار للكتابة:

1- دور الإشارات والرموز.

2- الدور الصوري والدور الرمزي. والفرق بين الطريقة الصورةي والطريقة الرمزية، إن الأولى تمثّل الصورة نفس الشيء المراد التعبير عنه، ولكن الصورة في الطريقة الثانية. تمثّل فكرة لا شيئاً معيناً، فمثلاً صورة إنسان بأضلاع بارزة تعبّر عن فكرة الجوع أو عين دامعة تعبّر عن فكرة الحزن.

3- الدور الانتقالي، والدور الكتابي المختلط. ويتميز هذا الدور باستمرار استعمال الدور الرمزي مع إضافة رموز أخرى ذوات دلالات صوتية كل منها يؤلف مقطعاً، وقد استعملت هذه الطريقة من قبل السومريين والبابليين والمصريين والحثيين والصينيين. أما تفسير نشوء هذه المقاطع فهو أن الصور التي كانت تعبر عن الأشياء في الدور الصوري أصبحت تستعمل – زيادة على التعبير عن شيء مادي أو فكرة – لتمثيل صوت ذلك الشيء بهيئة مقطع وبجمع عدة مقاطع يمكن كتابة كلمات مثلاً: إذا أراد الكاتب عند السومريين كتابة كلمة خالد فإن بإمكانه استعمال مقطعين (خا) و (لد) بغض النظر عن أن (خا) هي في الأصل صورة السمك، ولفظة (لد) صورة الثور أو الطفل ولفظهما. ومما يلاحظ في هذا الدور، السرعة والاختصار في رسم المقاطع، لذا صار الكتّاب يميلون الى السرعة في رسم صور المقاطع مفضلين السرعة على إتقان الصورة، ومع مرور الزمن بعد التشابه بين الاشكال وصور الأشياء التي كانت تمثلها وأصبحت إشارات وعلامات اصطلاحية كل واحدة منها بهيئة مقطع كان أصله لفظ الشيء، وصورته صورة ذلك الشيء، فأصبحت الغاية من المقطع التعبير عن أصوات لا تمثيل صور الأشياء كما في الكتابة الصورية، وهكذا حل محل الكتابة الصورية طريقة جديدة سهلة لتدوين المعاني المجردة والأشياء المادية.

4- دور حروف الهجاء: وهو الدور الصوري الخالص، وحروف الهجاء أفضل شكل تطورت اليه الكتابة، إذ تتصف بمزايا عديدة، منها سهولة تعلّمها منذ الطفولة وسهولة استعمالها في رسم كلمات لغات مختلفة، ثم هي حروف قليلة العدد إذا قيست بالعدد الكبير من المقاطع أو الصور التي حلت محلها.

يطلق لفظ فلولوجيا على علم اللغة، وأهم فروع علم اللغة يسمى (الدياليكتولوجي) Diadtecloogic أي علم اللهجات (1) ودراسة الأصوات التي تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها وخواص كل قسم ومخارجه وما تعتمد عليه من أعضاء وطريقة إحساس السامع بها، ويطلق على هذا البحث اسم (الفونيتيك) Phonetique أي علم الأصوات.
ودراسة اللغة من حيث دلالتها، أي من حيث أنها أداة للتعبير عما يجول في الخاطر يسمى باسم (السيمنتيك) Sementique – أي علم الدلالة –

ومن الفونتيك والسيمنتك يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجاً وأهمها:

أ) البحث في معاني الكلمات ومصادر هذه المعاني واختلافها في لغة ما باختلاف عصورها والقوانين التي تخضع لها، ويطلق على هذا البحث اسم (ليكسيكولوجيا) Lexicologis أي علم المفردات.

ب) البحث في القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها ويطلق على هذا البحث اسم الموروفولوجيا Morophologi أو علم البنية.

الآداب السومرية والبابلية المدونة لا يتجاوز عمرها الألف الثاني ق.م.، إلا أن هذه الآداب المدونة قد تم إبداعها وتطورها في منتصف الألف الثالث ق.م.، وإذا ما قارنا قدم هذه الآداب بالأداب الإنسانية القديمة الأخرى، وجدنا أنها أقدم من جميع ما أنتجه الفكر البشري في ذلك الحقل (1). فبالنسبة الى مصر مثلاً، لم يأتنا من أدبها شيء من عصر الأهرام، ذلك العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة المصرية ونضجت. وربما كان ثمة أدب مصري مدون في الأف الثالث ق.م. لكن الباحثين لم يعثروا على نماذج منه حتى الآن (ولعل ذلك بسبب تل المادة التي دون عليها وهي ورق البردي، الأكثر عرضة للتلف من ألواح الطين). واكتشف المنقبون في أوغاريت (تل الشمرة) أدباً كنعانياً يرقى تاريخه الى 1400 ق.م. أما الآداب التوراتية والتي دوّنت بعد القرن الخامس ق.م. فلم يعثر على أي من تلك المدونات.

والدراسة المقارنة للغات الشرق القديم تشير الى مجموعات لهجات تعود في جذورها الى أصل واحد، فالأكدية هي أقدم اللهجات تلك، والأكديون أقدم الهجرات التي خرجت من جزيرة العرب واستوطنت وادي الرافدين (حوالي الألف الثالث ق.م) ومن الأكديين تفرعت جماعتان هما: البابليون والأشوريون . . وبذلك انحدرت اللهجة الأكدية الى العهود التاريخية التالية وتطورت لكنها ظلّت تستعمل الخط المسماري. وعلى الجانب الآخر نحو الغرب كانت جماعات لها دورها الحضاري ترسخ أقدامها في بلاد الشام – ومنها فلسطين – بعد أن قدمت من الجزيرة العربية حوالي منتصف الألف الثالث ق.م.، وهي الهجرة المعروفة بالعمورية (الأمورية) والتي أسست عدة ممالك أهمها (ماري) "تل الحريري" واللغة الأمورية لها أواصر قربى مع البابلية والدليل على ذلك حكم الأموريين لبلاد بابل، باسم البابليين، ومنهم برز الملك العظيم حمورابي. كذلك فإن العموريين (الأموريين) حملوا أسماء أخرى اكتسبوها من مناطق سكناهم ومن هذه الأسماء الكنعانيون والفينيقيون. وأطلق عليهم المصريون اسم الهكسوس عندما حكموا مصر، ثم بدأت قبائل أخرى بالتدفق من جزيرة العرب منتصف الألف الثاني ق.م. وحملوا اسم الأراميين، ثم كانت الموجة الأخرى المعروفة بالموجة العربية الإسلامية.

فاللغة الأكدية (البابلية – الأشورية) والعمورية (الكنعانية) والأرامية والعربية الحديثة هي واحدة في جذورها وما طرأ عليها من تمايز هو بفعل البعد الجغرافي والاختلاط مع الآخرين. فالأكدية اختلطت وتفاعلت مع لغات وشعوب منها السومرية والعيلامية والحثية. أما الأمورية الجنوبية (الكنعانية) فقد تأثرت بالمصرية، والكنعانية (الفينيقية) تأثرت باليونانية. أما الأمورية الشمالية فقد تفاعلت مع الحثية. ومع ذلك تظل هذه اللغات لهجات للغة واحدة كانت سائدة في الجزيرة العربية.

وتتميز اللهجات العربية القديمة بميزات وخواص مشتركة لجعل من هذه اللهجات لغة واحدة منها: اعتمادها على الحروف أكثر من اعتمادها على الأصوات، لذا لا نجد في حروف هذه اللهجات علامات للأصوات كغيرها من اللغات، كما أنها بالغت في الاهتمام بالحروف وزيادة عددها. وأغلب كلماتها يرجع في اشتقاقها الى أصل ذي ثلاثة أحرف. ولمعظم الكلمات في هذه اللهجات مظهراً فعلياً حتى في الأسماء الجامدة والألفاظ الأعجمية الدخيلة. ومن مظاهر التشابه كذلك التشابه في تكوين الإسم من حيث عدده ونوعه وفي تكوين الفعل من حيث زمنه وتجرده وزيادته وصحته وعلته، وكذلك التشابه بالضمائر وفي طريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف وكذلك التشابه في المشتقات كاسمي الفاعل والمفعول واسمي الزمان والمكان وإسم الإله والصفة المشبهة، كما تتميز بتغير معنى الكلمة بتغير حركتها. واحتوائها على حروف الحلق (كالحاق والعين) وحروف الأطباقا (كالصاد، الضاد، الطاء، الظاء). وتتميز كذلك في التشابه الكبير في المفردات الدالة على أعضاء الجسم وصلة القرابة والعدد وأسماء الحيوان والنبات.

وتتأكد وحدة اللهجات العربية القديمة (أكدية "أشورية وبابلية" أمورية "كنعانية وفينيقية" وأرامية) من خلال الخصائص التالية:

1- يتألف أصل الكلمات في معظم اللهجات هذه من ثلاثة أصوات ساكنة (غير لينة) مختلفة مثل: ق ت ل، ض ر ب، ر ج ع. . . الخ مع وجود شواذ عند معظم اللهجات:

أ. أصول بعض الكلمات من صوتين فقط (عن، بل) والضمائر (هو، هم) وأسماء الشرط والموصول.

ب. بعض أصول كلمات هذه اللهجات يتألف من صوتين ساكنين وصوت لين أو نصف لين مثل قال، وعد.

ت. بعض الكلمات في هذه اللهجات من صوتين ساكنين مضعّف ثانيهما (ثم، رد).

2- الأصوات الساكنة في اللهجات العربية القديمة لها أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين ويبدو هذا في ثلاثة وجوه: الدلالة والنطق والرسم.

أ. فالمعنى الأساسي يشار اليه غالباً بالأحرف الساكنة، أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة: (قْ تْ لْ يدل على المعنى العام للقتل. قَ تَ لَ يدل على وقع القتل في زمن مضى من واحد غائب. قُ تِ لَ يدل على قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعول . .)

ب. الأصوات الساكنة تنال أكبر قسط من اهتمام المتكلم وهي لذلك أوضح في الجرس من الأصوات اللينة وأظهر منها في السمع.

ت. وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة من الدلالة والنطق الى الرسم نفسه. فأهم ما يعني الرسم في اللهجات العربية القديمة في إظهاره هو الأصوات الساكنة، أما الأصوات اللينة فيغفل بعضها إغفالاً تاماً ويشير بعضها بالشكل، ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق، وهذا في الرسم الحديث، أما الأشكال القديمة فكانت تغفل جميع أصوات اللين.

3- ليس للفعل في معظم اللهجات العربي القديمة إلا زمنان، ماض ومضارع (للحال والاستقبال والأمر).

4- يحدث في الغالب تأنيث الإسم والصفة بإضافة (تاء) الى المذكر.

لكن يظل التساؤل مطروحاً وكيف وجدت الحروف الهجائية؟

---

(1) طه باقر مجلة سومر تموز 1945

(1) علي عبد الواحد وافي علم اللغة ص 41 – 60

(1) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القسم الأول ص 451

الحروف الهجائية
(البدايات والتطورات)

اشـتهر الكنعـانيون (الفينيقيـون) بـاقتران اسـمهم بـالحروف الهجائيـة مـن كونهم هم الذين يدين اليهم العالم بهذا الاختراع العظيم في تـاريخ البـشر، لكـن هـل تـم هـذا الاختـراع فطـرة أم نتيجـة سلـسلة مـن التطـورات؟ لقـد انقسم الباحثون في آرائهم عدة مناح أهمها رأيان:

الأول: أرجع الحروف الهجائية الى أصول هيروغليفية ومصرية.

والثاني: الى الخط المسماري البابلي.

ومن القائلين بالأصل المصري (دي روجيه) De Rouge الـذي يـرى اشـتقاق الحروف الكنعانية (الفينيقية) من الخط المصري الهيراطيقي وتبعه في آرائه (اسحاق تيلور) Isaac Taylor وكذلك (جون بيترز) John P. Peters القائل بـأن الحروف الهجائية نـشأت فـي مـصر ولكـن لـيس مـن الخـط الهيروغليفـي أو الهيراطيقــي أو الــديموطيقي (شــكل 29، 30) بــل هنــاك علامــات ورمــوز اكتشفت على مقابر السلالة الأولى وقـد تطـورت هـذه الرمـوز الـى حـروف هجائيـة تاليـاً (1). وهـذه الدراســة تـستبعد اشــتقاق الحـروف الكنعانيـة (الفينيقية) من الخط المـسماري البـابلي، لأن الحـروف الهجائيـة الفينيقيـة هي حروف هجائية صوتية والخط المسماري مكون من مقاطع خـلاف الخـط المصري الـذي يـشترك مـع الخـط الفينيقـي فـي الـصفة الهجائيـة الـصوتية Aerophony. ويضيفون الى حجتهم هذه أنه في الوقت الـذي انتـشرت فيـه الكتابـة واللغـة البابليـة فـي الـشرق الأدنـى (القـرن الرابـع عـشر ق.م.) – رسـائل تـل العمارنـة – كـان الخـط البـابلي يحتـوي علـى المقـاطع وكانـت العلامات والرموز التي تمثّل تلك المقاطع قد تطورت وبعد الشبه بينها وبـين صور الأشياء التي كانت تمثّلها بحيث لا يمكن اشتقاق أي نوع من الحـروف الهجائية منها.

وعندما اكتشف (فلندوز بتريه) الحروف المنقوشة في شـبه جزيـرة سـيناء سنة 1904 اعتبرها (الن جاردنر) Alan Gardiner مرحلة بين الخـط المـصري الهيروغليفي والحروف الكنعانية (الفينيقية) (2).

أما المدرسة التي ترى الأصل البابلي فإنها تضم طائفـة كبيـرة مـن العلمـاء بيــنهم (ديكــه) Deecke و (هومــل) Hommel و (بــايزر) Peiser و (زمــرن) Zimmern. ويستند معظم القائلين بهذه النظرية الى شكل الخط الفينيقي، ثم الى أن أسماء الحروف الهجائية الكنعانية التي ربما اشتقت من البابليـة في دورها الصوري.

يضاف الى هاتين المدرستين مجموعة من الباحثين يمكن تسميتهم "التوفيقيين" مثل (فردريك دليج) Friedrik Delitzsch الذي يرى أن مخترعي الحروف الكنعانية (الفينيقية) أخذوا عن الخط المصري الصفة الصوتية الهجائية ولكنهم أخذوا معظم حروفهم عن الخط البابلي المسماري كما يستدل عليه من أسماء تلك الحروف فإن خمسة عشر حرفاً من مجموع الحروف الفينيقية البالغ عددها اثنين وعشرين حرفاً لها معان في اللهجات العربية القديمة ولا سيما في البابلية وذلك بتحريف بسيط أحدثه الفينيقيون حسبما اقتضته خصائص لهجتهم. وهذا التحريف الفينيقي دليل أيضاً على أن الكنعانيين (الفينيقيين) هم مخترعوا الأحرف وليس غيرهم.

لقد كانت خطوط الحضارات القديمة (الهيروغليفي في مصر والمسماري في وادي الرافدين) تتميز بصعوبتها كأداة للكتابة لكثرة العلامات المستعملة وصعوبة فهمها وعدم ملاءمتها ملاءمة كافية في التعبير عن أصوات اللغات البشرية، فهي مؤلفة من عدة مئات من العلامات الناشئة عن أصل صوري وبعضها يقوم مقام الكلمات، وحتى في انتقالها الى الطور الصوتي لم تنتقل الى الطور الهجائي الصرف بل استخدمت عدداً كبيراً من المقاطع الصوتية وظلّت مع هذا الانتقال تستعمل العلامات الرمزية. وقد قاربت الهيروغليفية أن تتطور الى المرحلة الهجائية، حيث أن قدماء المصريين قد خصصوا 24 علامة هيروغليفية استعملت بهيئة هجائية مقطعية (أي بهيئة حرف صحيح مع أي حرف علة) كما استخدموا علامات أخرى لتقوم مقام حرفين صحيحين مع أي حرف علة. أما الكتابة المسمارية فقد ظلت مقطعية صرفة. ونتيجة لهذه الطرق الثقيلة في الكتابة أهتدى البشر الى اختراع مبدأ الحروف الهجائية. فأين حدث هذا الإبداع ومن هم القوم الذين أوجدوه؟ وما هي الحروف الهجائية بالمقارنة مع طرق الكتابة الرمزية والصوتية المقطعية؟

إن الحروف الهجائية هي علامات مصطلح عليها تقوم كل علامة منها للتعبير عن صوت واحد في الكلام (وقد كان يمثل هذا الصوت الصوت الأول للشيء المادي الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً هجائياً. فمثلاً صوت الحرف أ هو الصوت الأول من كلمة البو ومعناها اللثور في اللغة الكنعانية القديمة حيث أخذ شكل رأسه المبسط واستعمل بهيئة حرف الألف وصوت حرف ب مأخوذ من الصوت الأول للفظ بيت الذي استعملت صورته البسيطة حرفاً للباء وصوت س هو الصوت الأول من لفظ سن واستعملت صورة السن لفظاً للسين. وهكذا). لقد أبدع الكنعانيون الحروف الهجائية، لكن هذا الإبداع لم يكن دفعة واحدة ولم تنشأ كاملة النضج. وقد وجدت أنواع كثيرة من النصوص المدونة بأنواع من العلامات التي يصح أن نعدها أصل الحروف الهجائية الصرفة الناضجة. وقد بدأت مثل هذه النقوش بالظهور في مناطق كنعان منذ منتصف الألف الثاني ق.م.

(1) John P. Peters, Journal of The American Oriental Society Vol 22 1901 P. 177 – 198

(2) Alan Cardiner, Journal of The Egyptian Archaeology Vol 111 1916

الكنعانية والهجائية

لقد كانت اللغة الوحيدة في بلاد الشام ومنها فلسطين هي اللغة الكنعانية (اشعيا 18:19) والكنعانيون (الفينيقيون) هم أول من استعمل نظاماً أبجدياً راقياً في الكتابة ثم نقلوه الى العالم. وقد أخذوا أساس عملهم هذا من مصادر مصرية هيروغليفية عن طريق سيناء حوالي القرن السابع عشر ق.م. حين تمكن أحد العمال الكنعانيين في مناجم الفيروز في سيناء من استعمال العلامات الساكنة. والمكان الذي وجدت فيه هذه العلامات هو (سرابيط الخادم). وقد أعطيت للعلامات الساكنة أسماء كنعانية، فاتخذوا علامة رأس الثور – وبدون أن يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية – سمو العلامة (ألف) باسمها الكنعاني ثم طبقوا المبدأ الذي يعطى بموجبه للحرف الصوت الأول في اسم الشيء الذي يمثله، وفي هذه الحالة استعملوا علامة الألف للتعبير عن صوت الألف. وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على (بيت) فسموها بِتْ – والتي تعني بيت في الكنعانية – واستعملوها تعبيراً عن صوت (ب)، وعلامة اليد – يود بالكنعانية – استعملوها لصوت (ي) وعلامة الماء – مايم بالكنعانية – واستعملت لأجل صوت (م) وعلامة الرأس سموها رُش – بالكنعانية – واستعملوها لصوت (ر) وعلى ذلك يكون العامل في سيناء قد استخدم الفكرة الأبجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل مجموعة بسيطة من العلامات يمكن أن يشكّل منها كلمات. وعليه تكونت الأحرف الأبجدية بأسمائها الكنعانية (1).

ألف: رأس ثور
ب: بيت
ج: جيمل (جمل)
د: دالت (باب)
هـ: شبكه
و: وتد
ز: زاين (سلاح)
ح: حيت (حائط)
ط: طيت (حنش)
ي: يود (يد)

ك: كيف اليد
ل: لمد (عصا لضرب البقر)
م: ماييم (ماء)
ن: نون (حوت)
س: سامخ (آلة يعتمد عليها كالعصا)
ع: عين (العين)
ف: فا (فم)
ص: صادي (شبكة صيد)
ق: قوف (سم الخياط)
ر: رُش (رأس)
ش: شن (سن)
ت: تاو (علامة)

عندما اكتشف (فلندر باتريبه) Flinder Petrie مخطوط (سرابيط الخادم) لم يعرف اللغة التي نقشت على الصخور في عام 1915 قرأ عالم الآثاريات الإنجليزي (ألن جاردنر) Alan Gardiner هذه اللغة حيث وجد تشابهاً بيناً بين الأسماء الواردة في سرابيط الخادم والأسماء الموجودة في هيكل بعله Baalath رئيسة الآلهات في بيبلوس. لذا فمن الصواب القول أن المخطوط قد كتب بالكنعانية على يد نقاشين وعبيد كنعانيون وأن حياة هؤلاء العمال والعبيد تشبه الى درجة ما حياة المصريين، لذا نراهم ينقلون من التراث المصري صورة أبي الهول وتماثيل أخرى معروفة. كما أنهم تأثروا بالديانة المصرية فعبدوا Hathor و (بتاح) Ptah (1).
أعيد تاريخ مخطوط سرابيط الخادم الى 1800 – 1600 ق.م. وكان يحتوي على 32 إشارة اختصرت الى 24 (2). وعندما قرأ A. Gardiner المخطوط وجد أن حيوية الخط الهيروغليفي أنه قابل للتحول الى أشكال حروف لكن ليس بالضرورة أن تحمل نفس الصيغة الصوتية في اللغات الأخرى. فمثلاً نرى في الخط الهيروغليفي الإشارة (ر) .R مأخوذة من رمز (فم) في المصرية وتحمل إشارة (ro) لكن في الكنعانية (الفينيقية) أخذت شكل (ف) P، وهذا ما يؤكد أن الأحرف الأبجدية التي نقلها اليونانيون جاءتهم عن طريق الفينيقيين.

إضافة الى تطور الخط الهجائي عن الهيروغليفية فقد اقتبس (الكنعانيون) الكتابة بالحبر من المصريين وبها سطروا عقودهم وصكوكهم التجارية فانتشرت كتابتهم وتغلّبت على المسمارية الشائعة إذ ذاك في وادي الرافدين وبلاد الشام (1).

فإذا أراد العامل الكنعاني كتابة جملة (رَبُ النُصْب) مثلاً فإنه يرسم صورة الرأس مختصرة لتمثيل صوت الراء (آخذاً أول حرف من لفظ الرأس بالكنعانية "رُش") ثم صورة البيت الى جانبها لتمثل صوت الباء (آخذاً أول حرف من لفظ البيت) فتكونت عنده كلمة رب. ثم يرسم صورة الحية التي يسميها

(النخاش) لتمثل صوت النون. ثم صورة الصرة لتمثيل صوت الصاد ثم يرسم صورة البيت مرة أخرى فتصبح عنده رب النصب.

والفينيقيون (الكنعانيون) الذين كانوا على تماس مع المصريين ويعملون في مناجمهم اقتبسوا – على الغالب – الإشارات المصرية وطوروها وجعلوا منها نظاماً أبجدياً تاماً مؤلفاً من اثنين وعشرين علامة، بدون حروف صوتية ونظام الكتابة الأبجدية الخطية بحروفها الاثنين والعشرين والمكتوبة من اليمين الى اليسار كانت – غالباً – من إبداع الكنعانيين (الفينيقيون) في بيبلوس. وقد استغل فينيقيون آخرون عاشوا في أوغاريت النظام الأبجدي هذا وكتبوه بالمسماري. حيث كتبوا هذه الأبجدية على ألواح الطين ولذلك اتخذت شكل علامات مسمارية. وألواح أوغاريت (رأس شمرة) التي اكتشفت عام 1929 كتبت بهذه الطريقة. ووجدت أيضاً كتابة بهذ الخط في (بيت شمش) وتعود الى القرن السادس عشر أو الخامس عشر ق.م. (2) وأصبحت المعيار لكل أحرف هجائية.

الرسم الكنعاني القديم لم يكن يرمز إلا للأصوات الساكنة، مما كان يتسبب في الاضطراب أثناء قراءة بعض النصوص، ومن أجل ضبط اللفظ لجأ بعضهم الى استخدام بعض الحروف الساكنة للإشارة الى أصوات المد الطويلة (التي يرمز لها بالعربية الحديثة بالألف والياء والواو)، ثم استخدم في بعض اللهجات أسلوب الشكل للرمز الى أصوات المد القصيرة (التي يرمز لها في العربية الحديثة بالفتحة والكسرة والضمة).

ومنذ منتصف الألف الثاني ق.م. بدأت الصيغ الكتابية تأخذ منحى أعمق لدى اللهجات المتفرعة عن الأكدية. ففي الوقت الذي كانت فيه نهايات الاسم المفرد المذكر في الكنعانية am, um, im ومع تطور اللغة اختصرت هذه الزيادات الى (a, u, I) بإسقاط حرف الميم. كما تغيرت أشكال الأصوات أيضاً فحرف (أ) a أصبح يُلفظ (أ). وفي الفترة من 1200 –900 ق.م. أسقطت هذه الحركة (1). فإذا أخذنا في الاعتبار أن الأرامية قد اشتقت من الكنعانية والعبرية اشتقت من الأرامية لاحظنا هذه التغييرات في حروفها وأصواتها.

تفرعت عن الكنعانية عدة لهجات هي: المؤابية، الأدومية، العمونية، الفينيقية. وقد اقتبس السامريون كتاباتهم عن الخط الكنعاني – العموني. وكذلك في كثير من المسكوكات، وتوجد الكثير من الوثائق تؤكد كنعانية اللهجات هذه (المؤابية والأدومية والعمونية والفينيقية أهمها حجر ميشا في مؤاب والنقش على قبر (أحيرام). كما اكتشف الباحث الأمريكي (نيلسون جلوك) Nelson Glueck في تل الخليفة (منطقة صهيون جيبر القديمة أو إيلات) عام 1938 مخطوطاً على جرة اعتبرها طريقة كنعانية (أدومية) في الكتابة (2). وقد ميز ستة أحرف منها: I Q W S N L، ويرى البروفسور (جلوك) أنها ربما إسم لموظف كبير مبدوء

اسـمه بـالأحرف QWS وربمـا QOS أو Qaus وهـو اسـم رئـيس الكهنـة الأدومي. وبدون شك فإن هذا الخط هو من المجموعة الكنعانية.

إضافة الى ما ورد من مكتشفات باللغة الكنعانية هناك مجموعات اكتشفت تباعاً أهمها تلك التـي وجـدت فـي لجـيش (تـل الـدوير) ومجـدو و (نـابلس) وجميعهـا نقـوش كنعانيـة – فينيقيـة شـبيهة بالهجائيـة أو يمكـن تـسميتها الحلقة الوسطى بين السينائية والهجائية الصرفة، وقد أعيدت هذه النقوش الى 1600 – 1500 وهي نفس الفترة لنقوش طور سيناء.

ومـن الخطـوط المهمـة التـي اكتـشفت حـديثاً كانـت مـن جبيـل (بيبلـوس) ويرجع عهدها الـى 1000 ق.م. وبعـضها نقـوش ترجـع الـى الملـك (حيـرام) ملك جبيل وتعتبر هذه الطريقة من الكتابة أقرب الطرق وأنجحهـا فـي تأديـة المبدأ الهجائي وتتألف من 22 حرفاً، ومن المرجح أيضاً أنها أثرت على تطـور باقي اللهجـات العربيـة القديمـة (الأراميـة والعربيـة الحديثـة) ولكـن ذلـك لا يعني أن أحرف جبيل هي أصل الأحرف الهجائية، بل إن ما وجد فـي جبيـل يمثل نموذجاً من هذه الحروف.

الألواح التي اكتشفتها بعثة إيطالية بين الأعوام 1968 – 1975م في منطقـة (ابلا) في شمال سوريا وبالذات في (تل مرديخ) بين حمـاه وحلـب وعـددها 15.000 لـوح مكتوبـة بالكنعانيـة وبـالخط المـسماري، وهـي الألـواح التـي سلطت أضواء كافية الى درجة تبيّن معهـا طـرق اقتبـاس التـوراة لأسـفارها من التراث الكنعاني والبابلي (1).

يـشير اكتـشاف مخطـوط فـي جيـزر سـنة 1929 علـى أن الكتابـة بـالأحرف عرفت في فلسطين في العصر البرونزي الوسيط * ويحتوي هـذا المخطـوط على ثلاثة حروف نقـشت بآلـة حـادة علـى يـد إنـاء طينـي قبـل أن يـشوى بالنار. وقد أكد ثلاثة خبراء هـم (فيـشر) Fisher، Pere Vincent، والبروفـسور Garsting أن الإنــاء يعــود الــى فخاريــات العــصر البرونــزي الوســيط (2)، والمخطـوط يقـارب فـي تاريخـه مخطـوط سـرابيط الخـادم وكـان الباحـث Clermont – Gameau قد اكتشف في منطقة جيزر عـام 1874 – 1881 ثـلاث مخطوطات، ويقول الباحث أنه عندما اقتطـع المخطوطـات مـن الـصخور فقـد اثنـين منهـا، ثـم علـم أن واحـداً منهمـا هـو الأوضـح موجـود فـي منحـف القسطنطينية. ثم اكتشف حجراً آخر في سور القدس مكتـوب عليـه حـدود جيــزر وهــو يــشبه مخطــوط "عــراق الأميــر". كمــا وجــد الباحــث B. Maisler في عين الدهروي غرب طريـق الخليـل – القـدس علـى تمثـال مكتوب عليه سطرين يمكن قراءتهما بوضوح وباللغة الفينيقيـة: "يجئـال ابـن الملك" ويرجعه المكتشف الى القرن السابع ق.م. وقـد أصـر الـدكتور (ولـيم أولبرايت) أن التمثال هو نموذج يهودي لكـن هـذا الـرأي عرضـة للطعـن مـن خلال:

أ) لو كان التمثال لشخصية توراتية لذكرته التوراة – وهو لابن ملك – فإذا ذكرت التوراة سفلة القوم فكيف لم تذكر هذا الأمير ؟!

ب) التماثيل والآثار الشبيهة التي اكتشفت في فلسطين تخلو تماماً من أي لمسة توراتية، وهي إما كنعانية أو مصرية أو عراقية.

ت) الإسم الذي يدعى د. أولبرايت أنه الوارد في التوراة (أخبار الأيام الأولى 22:3) والذي يرد بصيغة يجئال هو ابن شكنيا وهذا ليس له علاقة بالملك والإمارة.

ولما اكتشف الباحث J. L. Starkey مخطوطات لجيش (تل الدوير) عرضها على البروفسور Harry Torzyner والبروفسور Bialik استاذ الفلولوجيا في الجامعة العبرية لدراستها فقرر أن الأحرف اللاخيشيه هي كنعانية قديمة (1). كما اكتشف مخطوطان من لجيش 1350 – 1250 ق.م. (2).

هل لدينا دلائل كافية على أن الكنعانية القديمة تقع وسطاً بين الهيروغليفية – السينائية والهجائية الفينيقية المتأخرة؟ يرى الدكتور (فرانك كروس) Frank M. Cross أن السينائية البدائية تطورت من العصر البرونزي الوسيط الى الأحرف الكنعانية القديمة وهذه الأحرف تقترب من الأشكال الهيروغليفية، من جهة ثانية فإن مخطوطات العصر البرونزي المتأخر تشكّل منتصف الطريق بين ألواح سيناء القديمة وألواح القرن العاشر ق.م. من بيبلوس لنحكم على أشكال الحروف. ويشير (كروس) الى أن المخطوطات السينائية كتبت بالرموز الكنعانية القديمة ويعتبر سوريا – فلسطين مكان أصل الهجائية.

لقد وصل أولبرايت وكروس الى نتيجة: أن الحروف الهجائية اشتقت الأصوات بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، متأثرة بمصر في مركز التقاليد في كنعان (فينيقيا). هذه الهجائية هي سلف الفينيقية والأرامية وبذلك يمك الاتفاق مع القول مصر – سيناء – كنعان – فينيقيا أو قبول فكرة: مصر – كنعان – سيناء – كنعان – فينيقيا.

وبالنتيجة يعتبر الخط الكنعاني القديم جهد مستقل لإعلان الكتابة الهجائية. أي إن منشأ الحروف الهجائية في بلاد الشام ذاتها تتألف من عدد من العلامات (22 – 30 علامة) تمثّل أصوات اللهجات العربية بحسب المبدأ الهجائي.

ويمكن ملاحظة ثلاثة أنواع من الخط الفينيقي:

1) الخط الفينيقي في فينيقيا ذاتها ويعود الى نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق.م.

2) الخط الفينيقي في المستعمرات: ويميز الباحثون ثلاثة أنواع من هذا الخط:
   أ) الخط الفينيقي – القبرصي والذي يمتد من القرن العاشر الى الثاني ق.م. وقد درست من قبل الباحث A. M. Honeyman عام 1939.
   ب) المجموعة السردينية، وهي كسر مخطوطة ويحتمل أنها أبعد من القرن التاسع ق.م.
   ت) الخط القرطاجي والذي أصبح فرعاً فينيقياً رئيسياً.

3) الخط القرطاجي. وقد وجد على نصب تذكارية. والقرطاجي المتأخر يعود الى القرن الثالث الميلادي وهذا يوضح استمرارية الخط القرطاجي حتى القرن الخامس الميلادي.

يبدو ان انتشار الخط المسماري في القرن الرابع عشر ق.م. دفع بسكان أوغاريت (رأس شمرة شمال مدينة اللاذقية السورية) الفينيقيين الى مواصلة الكتابة بالخط المسماري وبعد أن أدخل أخوانهم في بيبلوس – أو أبدعوا – الهجائية. فالاكتشاف المفاجئ عام 1928م حفز مجموعة من الباحثين والتنقيب فوجدوا عام 1929م ألواحاً طينية تعود في الغالب الى القرن الرابع عشر ق.م.، وهي ذات قيمة نفسية في عدة حقول مختلفة مثل: الخط المنقوش، علم اللغة، تاريخ الدين. وقد ساعد في حل رموز هذه الكتابات اكتشاف عدة لوحات بالهجائية الأوغاريتية في فلسطين (في بيت شمش وجبل تابور Tabor) والمهم أن معظم الوثائق كتبت بالخط المسماري. وقد حلت حروف 32 لوحاً بهذا الخط من قبل: Ch. Virolleaud, E. Dherme, H. Bauer.

النظام الأوغاريتي الرئيسي يتضمن 27 حرفاً صوتياً ساكناً وثلاثة حروف صوتية لينة a, I, u وكان الرمز شكلاً مسمارياً بسيطاً. وقد تبيّن للباحثين وجود ثمانية حروف تتطابق مع الكنعانية القديمة ولها نفس الدلالات اللفظية. وفي عام 1949 اكتشف لوح صغير في أوغاريت أظهر حلول 22 حرفاً محل 30 حرفاً في الهجائية القديمة. إلا أن الباحث C. H. Gordon ومن خلال اكتشاف لوح عام 1957 أكد زيادة ثلاثة أحرف في نهاية الهجائية. والأحرف الخمسة الباقية تبدو لتصويب الصوت (بعضها لا زال باقياً في العربية الحديثة). ويرى هذا الباحث أن هذه الأحرف الخمسة قد أسقطت نتيجة الميل الى الاختصار. ويعلل الدكتور (وليم أولبرايت) القائمة الجديدة ويعتبرها متأثرة بالكنعانية الجنوبية القديمة التي تحتوي على خمسة أحرف مضافة (1). حيث أحرف الكنعانية الجنوبية 27 حرفاً.

وقد دوّنت الأوغاريتية بعلامات تنتهي بمسامير يبلغ عددها ثلاثون والحروف على الترتيب: أ، ب، ج، ح، د، هـ، و، ز، ط، ك، ش، ل، م، ن، ظ، س، ع، (الفا P)، ص، ض، ق، ش، غ. . . وهي تخلو من حرف الطاء واستعاضت

عنه بحرف الباء كما في كثير من اللهجات القادمة من جزيرة العرب. وتسمى الأوغاريتية بالهجائية المسمارية. ويؤكد الباحث الإسرائيلي (موشيهه كاسوطو) إن الأوغاريتية حالة متطورة عن الكنعانية، والأوغاريتية تعتبر فرعاً من الكنعانية طرحت بنظام متطور في مرحلة لاحقة. (2) لقد أجمع المحللون اللغويون على تميز ألواح أوغاريت، وقد قام الباحثان (مونتغومري) Montgomry و (هاريس) باختصار القواعد الأوغاريتية. ورأى الباحثان إمكانية التمييز الصوتي بين صيغة الماضي الناقص والمضارع في الفعل. وقد التقى رأي البعثة الفرنسية والأمريكية باعتبار الأوغاريتية مغلقة على الفينيقية (الكنعانية). أما ما يسمى باللغة العبرية التوراتية فما هي إلا كنعانية قديمة (3).

---

(1) إسرائيل ولفنسون تاريخ اللغات السامية ص 99 – 100.

(1) W. F. Albright, B.A.S.O.R. Number 115

(2) A.C. Moorhouse, Writing And The Alphabel P. 42

(1) Sumer Vol 3 1947

(2) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين الجزء الأول ص 118 – 119.

(1) W.F. Albright, B.A.S.O.R.Number 46
(2) David Divinger, The Alphabet P. 243

(1) Giovanni ettinato Biblical Archaeologist Vol 39 1976

(2) W.R. Taylor B.A.S.O.R. Number 41

* EB: Early Bronez

(1) W. R. Taylor, B.A.S.O.R. Number 41

(2) W.F. Albright, B.A.S.O.R. Number 6

(1) David Diringer, The Alphabet Vol I 1968 P. 150

(2) موشيه ديفيد كاسوطو الآلهة عنات (عبري)

الكنعانية والعبرية

اللغة الكنعانية لغة متميزة، مقرونة بمخطوطات قديمة، بدءاً من مخطوط سرابيط الخادم مروراً بالمخطوطات التي اكتشفت في لجيش (تل الدوير) وجيزر، ونابلس وجميع هذه المخطوطات تعود الى الفترة من 1700 – 1500 ق.م. والكنعانيون الذين طوروا الخط الهيروغليفي الصوري الى الهجائي القديم هم أنفسهم الذين طوروا هذا الخط الى الهجائي المحض ونقلوه الى اليونان عن طريق الساحل الفينيقي. وقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الهجائية قد أصبحت مستعملة لدى الكنعانيين (الفينيقيين) منذ القرن الرابع عشر ق.م. في شكلها الناضج. بل طوعوها الى درجة كتابتها بالمسمارية كما رأينا في الكتابة الأوغاريتية. وكل ذلك قد تم و "هجرة الموسويين" لم تبدأ بعد، بل إن خروجهم من مصر الذي تم في القرن الثالث عشر ق.م. جاء متأخراً جداً على بدء الكتابة وتطورها:

فإذا عدنا الى أحداث التوراة من خلال:

1) محادثات موسى وهارون مع الفرعون فلا بد أنها حصلت باللغة المصرية بحكم تربية موسى في البلاد الفرعوني.

2) أن مكوث من تسميهم التوراة (الإسرائيليين) 430 سنة في مصر يجعلهم مضطرين الى تعلّم اللغة المصرية والتحدّث بها ويؤكد ذلك علاقتهم بالمصريين واستعارة حاجيات المصريين وسرقتها – كما تقول التوراة.

3) عدم ورود أي إشارة ولو تلميحاً الى معرفة الموسويين أي لغة أخرى غير المصرية أثناء مكوثهم في مصر وبداية الخروج.

4) اللغة التي تحدثوها عند دخولهم الى كنعان هي اللغة الكنعانية.

فالموسويون كانت لغتهم المصرية ولكنهم تخلوا عنها بالتدريج واستعاضوا عوضاً عنها بالكنعانية وهذا ما يؤكده الباحث (ماكلستر) R.A.S. Macalister: "إن الموسويين تكلموا لغة كنعان وخدموا آلهة كنعان" (1) والنقوش المكتشفة في أرض كنعان لم تشر أي منها الى الموسويين، فليس من مسلات لهم تشبه تلك التي أقامها الفراعنة أو الممالك في وادي الرافدين وليس من نصب تذكارية كتلك التي أقامها اليونان والرومان في فلسطين. أما الشخوص والأحداث الواردة في التوراة فلم يعرفها أحد إلا من خلال

التـوراة، حيـث لـم يؤكـدها مـصدر آخـر حتـى الأشـخاص المهمـين كـداود وسـليمان لم يأت على ذكرهم أحد سوى التوراة.

يذكر بعض المـؤرخين والبـاحثين وجـود بعـض النـصوص الآثاريـة تتطـابق مـع أحداث التوراة!! ومع أن اللغة التي كتبت بهـا هـي الكنعانيـة إلا أنهـا تحمـل أسماء تشابه بعض الأسماء الواردة في التوراة، فقد وجد خـتم فـي لجـيش مكتوب عليه "جداليا بن احيكـام" يـشبه مـا ورد فـي التـوراة "جـداليا الـذي على البيت"، ويوجد ختم آخر في المتحف الإسرائيلي مكتـوب عليـه اسـم (باروخ) (2). وبذلك ينسى هـؤلاء البـاحثون أن معظـم الأسـماء الـواردة فـي التوراة هي أسماء كنعانية لها وجـود قبـل آلاف الـسنين مـن وجـود التـوراة. فالأسـماء المقرونة بالإله ايل (وهو إله كنعان) هي بالتأكيـد أسـماء كنعانيـة أو بابلية: مثل إسـرائيل، جبرائيل، ميكائيل. . الخ. فلا غرو مـن وجـود أسـماء أخرى وهي بالضرورة كنعانية، ووجودها على الاثار شـيء طبيعي.

إن دراســة مستفيـضة للعبريـة – كمـا سـنرى – يـشير الـى بعـدها عـن الكنعانية (الفينيقية)، وإذا كان من صلة فناتج عـن صـلة الأراميـة بالكنعانيـة وعلاقة العبرية بالأرامية.

أما الآثار المخطوطة المهممة المتمثلة في تقـويم جيـزر فتعـود الـى القـرن الحادي عشر ق.م.، فـالأحرف المـستعملة كنعانيـة شـمالية ثـم اكتـشفت الوثـائق المكتوبـة علـى الخـزف وبـالحبر والتـي يـسميها البـاحثون Ostraca وعددها ثمانية في السامرة وتعـود الـى القـرن التاسـع أو الثـامن ق.م. (1) وهي بالأحرف الكنعانية، كما أوضحت الكتابة على Ostraca تطور الكنعانيـة. وزاد الأمر وضوحاً مخطوط (سيلو عام) Siloam الـذي يـؤرخ 300 ق.م. كـذلك رسـائل لجـيش وعـددها 18 والتـي اكتـشفت عـام 1935م فـي تـل الـدوير، وبعض هذه الوثائق واضحة جداً وتشير الى أنهـا كنعانيـة. ومـع ذلـك تـدعي بعض الجهات أنها (عبرية) !!! وليس هنـاك أي مؤشـر علـى أن الموسـويين اسـتعملوا الكتابة القديمة ancient script حتى القرن الثاني الميلادي (2).

---

(1) R.A.S. Macalister, A Century Of Excavation In Palestine P. 161

(2) Naman Avigad, Biblical Archaeologist Vol 42.

(1) David Diringer, The Alphpabet P. 238

(2) Hermann L. Strack, Hebraica Vol 2 Number 1 Oct. 1885 – July 1886 P. 214

الكنعانية والأرامية

بدأت حركة الهجرة الكنعانية من الجزيرة العربية في الألف الثالث ق.م. أما الهجرة الأرامية فقد بدأت في منتصف الألف الثاني ق.م. ومن المرجح أن اللغة الأرامية لهجة متطورة من العربية القديمة التي كانت شائعة في بلاد الرافدين وبلاد الشام. ولم يكتسب الأراميون اسمهم الخاص إلا في حدود القرن الحادي عشر ق.م. زمن الملك الأشوري تجلات بلاسر الأول (1100 ق.م.).

الكنعانية والأرامية لهجتان في لغة واحدة (1). فخلال القرن الحادث عشر ق.م. كان الأراميون يعيشون في منطقة التأثير (الفينيقية) الكنعانية فاقتبسوا الأحرف الهجائية منها. والمخطوطات الأرامية المبكرة كانت فينيقية أو كما سماها Joseph Naveh فينيقية – أرامية، ولم يكن حتى منتصف القرن الثامن ق.م. أرامية مستقلة. (2)

عندما كان الأراميون يكتبون بالخط الفينيقي كان لا بد لهم من استخدام ابتكارين: الأ,ل استولده تعدد الأصوات في الأرامية القديمة وعدد الرموز في الهجائية الفينيقية، فقد اندمجت في الفينيقية بعض الأصوات الى درجة لا نستطيع تمييز الأصوات عن الرموز، لذا احتوت الأرامية بعض هذه الرموز وتكيفت مع الفينيقية باستعمال إشارات لأكثر من رمز. ففي الأرامية القديمة استعمل (ذ) بدلاً من (ظ) ث بدلاً من ش. والابتكار الثاني كان فيما يسمى القراءة الأم Metres lection في الكتابة. فالكتابة الفينيقية كانت حروفها صحيحة لذا لا بد من إيجاد أحرف عله، وقد استعملت الأرامية الحروف الساكنة المؤكدة: هـ، و، ي، H, W, Y للإعلان عن الصوت اللين في نهاية الكلمات ووسطها. وعندما تكون هذه الأحرف الساكنة مستعملة كأصوات علة تدعى القراءة الأم. وبالإضافة الى الحروف الصحيحة فإن الأرامية كانت مُشكّلة وتعتمد على الجمل المفيدة.

وجدت البعثة الألمانية عام 1967 مخطوطاً مكتوباً بالحبر الأسود في (دير علا) شرق وادي الأردن ويعود تاريخه الى 70 ق.م.، وقد نشر العالمان Joacob Hoftijzer و G. Rander Kooij نص المخطوط حيث رجحا أن اللغة هي الأرامية القديمة والتي تدخل فيها بعض الصيغ الكنعانية وبالذات العمونية (1).

فالأرامية لم تكن في بداياتها تختلف عن الكنعانية (الفينيقية) لكن الدور الواسع الذي بدأ يلعبه الخط الأرامي اقتضى إحداث بعض التغيير والتطور. حيث تميز بأربع سمات:

1) بدت فتحات بعض الأحرف العليا والجانبية في الأرامية أكثر وضوحاً مثل: الياء، الدال، الراء، العين.

2) التدرج في انقاص خطوط حرفي الباء والتاء.

3) الاستدارة في زوايا الأحرف.

4) بدأ ترسيخ هذا التغيير في القرن السابع ق.م. واستمر حتى بداية القرن الخامس قبل الميلاد (2).

إن تطور الكتابة الأرامية عن الفينيقية (الكنعانية) تطور انعكس لاحقاً على العبرية التي أخذت عن الأرامية حرفها ولغتها. فمثلاً حرفا الزين والصاد في الأرامية منخفضا الأطراف وأوسع وأقصر من الفينيقية. أما الباء والكاف واللام والميم والنون (الفا P) فقد قوست أو أديرت الى جهة القاعدة، وفي الهاء الخط الأفقي الأعلى يتحرك خلف الخط العمودي. وأحياناً توجد أربعة خطوط أفقية متعامدة بدل ثلاثة. وفي الميم والنون الخط العمودي القصير ليس مرتبطاً بالأصل. والزين والصاد ينحنيان خلف الخط الأفقي الأعلى يتحرك خلف الخط العمودي. وأحياناً توجد أربعة خطوط أفقية متعامدة بدل ثلاثة. وفي الميم والنون الخط العمودي القصير ليس مرتبطاً بالأصل. والزين والصاد ينحنيان خلف الخط الأفقي المنخفض. (1)
يمكن تمييز فترتين زمنيتين في تطور الخط الأرامي:

الأولى:
الفترة القديمة من القرن التاسع الى السابع ق.م.

الثانية:
العصر الأرامي الذهبي عندما أصبحت الأرامية لغة دولية، واللغة الرئيسية في الشرق الأدنى، بحيث أصبح الخط الأرامي شائعاً في الإمبراطورية الفارسية وعلى رأي كثير من الباحثين بينهم (روزنتال) Rosenthal فإن أحرفاً أرامية كتبت على ستة ألواح عثر عليها في الأعوام 1903 – 1913 في أشور القديمة تعود الى منتصف القرن السابع ق.م. رؤوس أحرفها ب، د، ر كانت مفتوحة الرأس بينما ظل حرف السين بصيغته الكنعانية القديمة (W) (2)، وفي عام 1933 أعلن عن اكتشاف مخطوطات على مسافة مائة ميل جنوب القاهرة كتبت بالأرامية وتعود الى الفترة 411 – 408 ق.م. كما أعلنها البروفسور G. R. Driver (3).

وأحرف الأرامية المغلقة تتشابه مع المخطوطات التي عثر عليها في Taima في الجزيرة العربية، ومخطوطات أرامية أخرى وجدت في مصر، مثل لقى السقارة والتي حدد تاريخها في القرن الخامس أو الرابع ق.م. حيث أن السقارة تؤرخ 482 ق.م. ولوجود حرف الياء في المخطوط فإن الدليل

قطعي على أنه متأخر عن 180 ق.م. كذلك فإن شكل حرفي الطاء والهاء هو شكل متأخر وجد في اللهجة النبطية، كما أن حرف الياء وجد في المخطوطات التدمرية والذي عرف منذ نهاية القرن الأول ق.م. (1)

اكتشف في منطقة عراق الأمير (الأردن) مخطوط يعود الى 180 ق.م. ويقسم الى قسمين:

المخطوط (أ): ويبلغ قياسه 133 / 38 سم
المخطوط (ب): ويبلغ قياسه 144 / 39 سم

وقد قرئ المخطوط من قبل عدد من الباحثين منهم: M. De Vogue و M. Clerment – Ganneau بصيغة طوبيا أو توبيا Topiya (2): وأحرف هذا المخطوط فينيقية متطورة وأول ما يلاحظ منها أاحرف اللغة الأرامية والتي تعود الى الفترة الفارسية، وكل حرف يشبه أحرف المخطوطات الأرامية من Taima في الجزيرة العربية وهي تشبه كذلك المخطوط الذي اكتشف في جيزر والذي يعتبر أقرب الى الفينيقية. وهي أحرف تضم بشكل خاص الطاء والواو والباء والهاء (المد) وحرف الطاء في المخطوط له حركة دائرية، ومن المعروف أن حرفي الطاء والهاء في الأرامية لهما صيغتان: إحداهما مغلقة والثانية مفتوحة، ففي الطاء يربط القوس الأسفل الخط الرأسي وأحياناً لا. وفي الهاء الخط الواقع على اليسار، العمودي، يرتبط بالخط الأفقي أو لا. والشكل المفتوح هو الصيغة القديمة لكنها استمرت في الاستعمال حتى بعد استكمال الشكل المغلق وتطوره وهذه الحالة تظهر عند النبطيين – أما حرف الواو فقد تطور وتم الوصول اليه باختصار الخط الأعلى وكذلك الحال بالنسبة للباء حيث يحذف الخطان الصغيران في الأعلى والواو المستعملة حديثاً (في الأرامية والعبرية) تشابه الواو في المخطوطات التي وجدت في مصر، وهو لا يختلف كثيراً عن الواو الذي وجد على لوح Taima في الجزيرة العربية. وباعتبار هذه الأحرف تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد فإن الحرف الذي وجد على المسكوكات اليهودية وهي في أقدمها من الفترة المكابية، لذا فإنها بالضرورة مقتبسة عن الأرامية.

وبتعاملنا مع الأحداث التاريخية يتوجب الإجابة على سؤالين:

1) ما هو موضوع وطبيعة المخطوط؟
2) من هو طوبيا؟

القصد من المخطوط هو الإعلان عن شخصية الإنسان الذي يحتويه القبر. أو على الأقل الإشارة أنه كان يعيش هناك، وقد نقش المخطوط بشكل جيد، وقد وجدت مخطوطات قصيرة تشبهها في أماكن متعددة كالمخطوط في (مجدل الشوير). والشخص المذكور يجب أن يكون مرتبط بتاريخ عراق الأمير والتي كانت تسمى قديماً (تيروس) Tyros كما يذكر المؤرخ اليهودي

(يوسيفوس) وبهذا ارتبط اسم تيروس بالقائد الروماني (هركانوس)، وعليه سيكون تاريخ المخطوط بين 200 – 175 ق.م. وقد رأى بعض الباحثين أن الشخص هو أموري (1) وبذلك تنتفي فكرة أن الكتابة عبرية.

تبنى اليهود الكتابة بالأرامية بالتدريج مع انتشار اللهجات الأرامية وأقدم شاهد على دخول هذا الخط الى فلسطين هو مخطوط عراق الأمير، والمخطوط الذي يدعى "Tomp of St. James" (2) حيث الكتابة أرامية واضحة. وعليه فإن المسكوكات – التي يظن أنها عبرية – حتى تلك التي وجدت في (بار كوكبا) Bar Cochba ليست مكتوبة إلا بلغة أرامية متطورة عن الكنعانية.

انتشرت اللغة الأرامية انتشاراً واسعاً، حتى أن الأشوريين استعملوها في بعض شؤونهم. وبلغت أوج انتشارها في القرن الخامس ق.م. حيث أصبحت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب وغدت لغة المسيح وأتباعه وكتب الحواريون، الأناجيل بها. وصارت الأرامية من تخوم الهند الى الحبشة، وهذا أعظم انتصار تحققه لغة لم يكن لها سلطان سياسي. وبانتشار الأرامية انتشر استعمال الحروف الهجائية التي كتب بها الأراميون لغتهم (الفينيقية) واقتبستها أقوام في جميع أنحاء آسيا وقد واكب ذلك نشوء الديانة اليهودية مما أدى الى تبني الأرامية كلغة دينية وكتبت بها بعض الأسفار، حتى استقر بهما المقام بلهجة أرامية حورت حروفها تحويراً بسيطاً وتشكّلت ما سماه الأحبار اليهود "اللغة المقدسة" وهي التي سميت في مرحلة متأخرة العبرية. والخط الذي سمي بالعبري المربع (1) هو الأرامي.

انقسمت اللغة الأرامية بمرور الأزمان الى لهجات يمكننا حصرها بفرعين: الفرع الشرقي في وادي الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية. والفرع الغربي ممثلاً باللهجات الأرامية في مملكة سمأل (زنجرلي) وحماه وتدمر والأنباط. ومن هذا الفرع ربما أخذ الخط العبري. الذي كتبت به التوراة والمسماة "أرامية التوراة". وقد تكلّم بالمندائية طائفة باطنية في جهات الفرات. أما السريانية فكانت في الأصل لغة إقليم الرها (اديسا) وصارت لغة الكنائس المسيحية المتعددة في سوريا ولبنان وشمال العراق، وظلّت هكذا حتى حلّت محلها اللغة العربية الحديثة. ولما اتخذ المسيحيون الذين هم من أصل أرامي اللهجة الرهوية جاعلين إياها لغة الدين صاروا يعرفون باسم السريان أو السوريين وابتعدوا عن تسمية أنفسهم أراميين لاقتران اللفظة بالعهد الوثني. وكما سمى المسيحيون الأرامية سريانية سمى اليهود الأرامية "اللغة المقدسة" وثم العبرية، خاصة أن الأرامية كانت اللغة المحكية عند اليهود في العراق – في الأقل، وهو الذين حملوها معهم كلغة مقدّسة الى فلسطين.

ذكـر مـصطلح آ – را – ام A – ra – am فـي المخطوطـات الأكديـة، ومـن المخطوطات القديمة التي ذكرت الأراميين ألواح العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م.) والتـي أشـارت الـيهم باسـم اخلـيم Akhlame أو اخلامـو Akhlamu (مجموعات متحدة). بينما في المصادر الأشورية فقد دعـو آرومـو Arumu أو أرامو Aramu. (2)

المصطلح اليوناني "أرام" هو سوريا، واسـتعمال مـصطلح "اللغـة الـسورية" للتدليل على الكلام الأرامي. ولكن للباحث الألماني (ونكلر) Winekler رأي آخر، حيث اعتبر مصطلح سـوريا مـشتق مـن كلمـة Suri فـي المخطوطـات المسمارية، أي الغرب في الدليل البابلي وهي المنطقة التي كان يسكنها الأراميون. (1)

الاهتمـام بالمـصطلحات الأراميـة وتـصنيفها تناولهـا الباحـث Joseph A. Fitzmyer عام 1979 حيث قسم أطوار الأرامية الى (2):

الأرامية القديمة	Old Aramaic	925 – 700 ق.م.
الأرامية الرسمية	Official Aramaic	700 – 200 ق.م.
الأرامية الوسيطة	Middle Aramaic	200ق.م. – 200م
الأرامية المتأخرة	Late Aramaic	200م – 700م
الأرامية الحديثة	Modern Aramaic	700م . . .

وكان الباحثون قد تتبعوا أطوار اللغة الأرامية لكنهم لـم يتوصـلوا الـى تحديـد المصطلح: فمثلاً مصطلح الأرامية القديمـة Old Aramaic لـيس هـو الـصيغة الوحيدة المستعملة لتحديد الطور القديم فـي اللغـة، بـل شـهدت الـساحة الأدبية اصطلاحين آخرين هما: الأرامية المتقدمة Ancient Aramic والآرامية المبكرة Early Aramic.

انتشرت الأرامية، ولعبت أدواراً ثقافية هامة في:

1) الغرب: وهي اللهجات الأرامية في سـوريا وفلـسطين وتركيـا وتنـدرج تحت:

أولاً: أرامية دويلات شمال سوريا:

أ) الأرامية السورية وأقدم المدونات فيها تعود الى ملوك شـمالي سـوريا وشـمالي وادي الرافـدين مثـل (ادد)، (بـر ركـب) ملـك سمأل من القرن الثامن ق.م. ومـن هـذا النـوع آثـار تـم العثـور عليها في سوريا وتركيا وفلسطين ومصر وجزيرة العرب وبعـض منـاطق أفريقيـا ولكنهـا لا تتجـاوز القـرن الخـامس ق.م. ومـن

مميزات الأرامية القديمة استخدام القاف التي تحولت في اللهجات الأخرى (عين).

ب) لهجة قرى منطقة القلمون ومنها قرية معلولة.

ت) لهجة طور عابدين ويتكلمها سكان القرى الجنوبية الشرقية من تركيا الغربي الى الحدود العراقية.

ث) أرامية الرها.

ثانياً: أرامية فلسطين:

أ) أرامية وسط فلسطين وكانت سائدة في فترة الحكم الروماني وسميت أيضاً اللهجة الفلسطينية.

ب) أرامية الجليل، وهي مشابهة للسابقة، كما يظهر من حادثة الرسول بطرس، فعندما أنكر أنه من تلاميذ المسيح بادره البعض بالقول: "في الحقيقة أنت أيضاً منهم فإن لهجتك تدل عليك".

ت) اللهجة السامرية، وهذه اللهجة خليط من أرامية سورية وأرامية بابل، والقريبة من الكنعانية. ولم تكن السامرية لتختلف عن أرامية فلسطين والجليل. فالمسيح تحدّث مع امرأة سامرية قرب البئر وقد عرفت المرأة لهجته الأرامية الفلسطينية، فحروف الحلق في هذه اللهجة مثل الحاء، الهاء، العين تلفظ همزة.

ث) أرامية أسفار العهد القديم، وتتمثّل هذه في الفصول المدونة من أسفار عزرا ودانيال.

2) الشرقية: وتمثلها اللهجات الأرامية في العراق وإيران وتقسم الى عدة لهجات:

أ) أرامية الدولة من السابع – الخامس ق.م. وسميت بأرامية الدولة لأن الدولة الفارسية الأخمينية اتخذتها لغة رسمية.

ب) أرامية التلمود البابلي. في الوقت الذي دوّن فيه التلمود الفلسطيني بأرامية فلسطين دوّن التلمود البابلي بالأرامية الشرقية.

ت) أرامية الكلدانيين.

ث) اللهجة الآثورية.

ج) اللهجة المندائية.

3) أرامية العرب الأوائل: التدمريون، الحضريون (سكان الحضر شمالي العراق)، الأنباط.

وقد وجدت عند الأراميين طريقتان للدلالة على الحركات لا زالتا تستعملان حتى الآن.

أ) طريقة الحروف: حيث اتخذ الأراميون الغربيون في القرن الثامن خمسة أحرف من اليونانية يكتبونها فوق الحروف الأرامية أو تحتها للدلالة على حركاتها.

ب) طريقة النقط الصغيرة: وهي رسم نقطة أو أكثر فوق الحرف أو تحته للدلالة على حركاته وهي أكثر شيوعاً بين الأراميين الشرقيين. وهذه الطريقة اتبعتها أيضاً العبرية.

المخطوطات التي تعود الى الطور القديم من اللغة الأرامية ليست كثيرة. ففي تل الفخارية اكتشفت ألواح بالأرامية القديمة عام 1979. وتقع المنطقة على مسافة كيلومترين شرق (تل حلف) حيث يمر نهر الخابور بين المطقتين. وقد وجد المخطوط على تمثال بالحجم الطبيعي لرجل، نحت واقفاً ويداه متشابكتان عند الوسط والمخطوط مكتوب باللغتين الأشورية وبالخط المسماري والأرامية. ويضم الجانب الأمامي 38 سطراً والخلفي 23 سطراً. ويوضح المخطوط، ثنائي اللغة، الإجلال الذي يمثله (هدد – يتي) Hadad – Yiti حاكم جوزان (الإسم القديم لتل حلف) لهيكل هدد. وتنقسم الكتابة الى جزأين: أسطر أرامية من 1-12 تتطابق مع الأسطر الأشورية من 1-18. والأسطر الأرامية من 12-23 تتطابق مع الأشورية من 19-38. وكل جزء يحتوي على عبارات الوعد والوعيد.

كما اكتشف حجر تذكاري أو مسلة كرّست الى بار – هدد في قرية بريج Breij والتي تقع على بعد 7كم شمال مدينة حلب بين أطلال تعود الى العهد الروماني والمسلة تحتوي على نقش يذكر الإله الفينيقي (ميلكارت) والذي كان يعبد بشكل رئيسي في صور. لقد كرّس بار – هدد المخطوط الذي يبدو أنه كتب بين 850 – 750 ق.م. حيث تقرأ: "التمثال الذي بار – هدد [. . .] ملك أرام أقامه لسيده ميلكارت والذي نذر له ومن ثمة سمع صوته" (1).

ومسألة أخرى من حجر البازلت أقامها (زاكر) وجدت في عفس Afis والتي تبعد 45 كم جنوب غرب حلب مكتوب عليها 17 سطراً بالأرامية القديمة على الجانب العلوي الأمامي المخطوط على الجزء اليساري 28 سطراً ويتضمن سطران آخران على الجانب الأيمن. ويعود تاريخ النقش الى القرن الثامن ق.م. ومن المعروف أن (زاكر) هو ملك حماه ولؤاش شمالي سوريا (2).

تمثال الإله هدد الذي أقامه الملك (بانامو) الأول Panamu ملك (يدي) YDY ويعود الى منتصف القرن الثامن ق.م. ويحتوي هذا التمثال على 34 سطراً كتبت بالأرامية القديمة على الجانب الأمامي للتمثال الذي يرتفع أربعة أمتار (1) فأقدم الكتابات الأرامية المعروفة اليوم في شمالي سوريا وتعود الى بداية القرن التاسع ق.م.

ارتبطت الأرامية المكتوبة على البردي – لثلاثين عاماً – باسم Cowley حيث نشر كتاباً عام 1923 عن الأرامية على البردي والتي عثر عليها وتعود الى القرن الخامس ق.م. وأضاف اليها الشروحات والترجمات. ثم تضافرت جهود Cowley مع جهود (سايس) Ed. Sachau و A Sayce ليخرجوا لنا كتابات عن الأرامية ذات قيمة (2).

وجد المنقب (زكي سعد) في السقارة رسالة مكتوبة على الفخار موجهة من ملك (أشكلون) الى فرعون مصر يطلب المساعدة لصد الهجمات البابلية، وهذه الرسالة كتبت بالأرامية ولم تكتب بالأكدية على غرار رسائل العمارنة. الأمر الذي يشير الى بدء سيطرة اللغة الأرامية والحلول محل اللغات الأخرى في التخاطب والمعاملات. . وقد تضمنت الرسالة: سيدي الملك (فرعون) أنا عبدك ملك أشكلون. ليحفظ سيد السماء والأرض، الإله بعل، عرش سيدي، الفرعون، لقد كتبت الى سيدي أخبره أن جيوش ملك بابل بدأت بالزحف، وليعلم سيدي الملك، فرعون، أن عبده لا يستطيع الوقوف في وجه ملك بابل وحده، هل يمكن أن يتخلى سيدي عني، وأنا الموالي والخادم. وإذا ما استطاع ملك بابل القضاء على ملك سيدي فستضيع البلاد كلها. (3)

المخطوطات العبرية والأرامية التي تم اكتشافها في فلسطين ليست كثيرة وكل ما وجد ليس ذات أهمية (4) فقد اكتشف الدكتور E. L. Sukenik وهو منقب من الجامعة العبرية في القدس مخطوطاً واضحاً جداً منقوش على حجر باللغة الأرامية حيث يقرأ: "هنا رفاة عوز ياهو ملك يهوذا فلا تفتحه". وقد حدد المنقب تاريخ النقش 130 ق.م. الى 70م. ولغة النقش، كما يقول العالم الفلولوجي العبري J. N. Epstein من الجامعة العبرية هي الأرامية. مستنداً الى كلمة (طمي) والتي تعني رفاة وهي غير موجودة إطلاقاً ضمن مفردات اللغة العبرية، لقد كتب هذا المخطوط ونقش بلغة ذلك العصر (1). وهذه شهادة من العالم الفلولوجي (الإسرائيلي) بأن

العبرية لم تكن مألوفة حيث أن الأرامية هي لغة ذلك العصر الذي أشار اليه.

كما وجدت عدة مئات من القطع التذكارية الصغيرة وجدت على فترات منها عدة مخطوطات على البردي جاءت من مصر بينها البردي الهامة من الفنتاين Elephentine (أسوان) والتي تعطينا معلومات دينية واقتصادية. وهذه المخطوطة أرجعها الباحثون الى مستعمرة عسكرية موسوية أقيمت في هذه المنطقة (وهم الذين عادوا من فلسطين الى مصر في أعقاب الهزيمة التي أوقعها نبوخذ نصر في الموسويين، فعادوا الى جذورهم، مما يؤكد بطلان عدائهم للفراعنة كما تدعي التوراة).

أقدم كتابة وجدت في مصر تعود الى 515 ق.م.، كما وجدت مخطوطات أرامية في اليونان والجزيرة العربية والهند. (2) وفي النصف الثاني من الألف الأول ق.م. أصبحت الأرامية أوسع وأهم خط في الشرق الأدنى.

هناك تقليد يهودي معروف، إن وقوع السبي البابلي أدى الى عزوف هذه الكتلة البشرية عن التحدث بالكنعانية الى الحديث بالأرامية حيث كانت سطوة الأرامية وأوج انتشارها وفاعليتها وسهولة الحديث بها وسهولة الكتابة بأحرفها: فأصبح الخط الأرامي ألف باء "اللغة المقدسة" وما يسمى بالعبري المربع قد كتب على قاعدة رئيسية من الهجائية الأرامية.

---

(1) Scott C. Layton, Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988

(2) Ibid.

(1) Joseph Naveh, Archaeology Vol 15 Number 1962

(2) David Diringer, Writing Vol 25 1962 P 138

(1) David Dringer, The Alphabet Vol I P. 240

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(1) Enno Littman, Greek And Latin Inscription

(2) Ibid. P3

(1) Enno Littman, Greek and Latin Inscription

(2) Ibid. P. 213

(1) يشير بعض الباحثين الى أن الخط العبري هو من الخط الأشوري المربع. في حين أن الكتابة الأشورية اقتصرت على الخط المسماري وليس به خط مربع أو غيره. والخط المربع أخذ من الخط الأرامي على الأرجح.

(2) David Diringer, The Alphabet P. 247

(1) Ibid.

(2) Scott C. Layton, Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 198
(1) Scott C. Layton, Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988

(2) Ibid.

(1) Scott C. Layton, Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988

(2) Becalel Porten, Biblical Archaeologist Vol 42 1979

(3) H.L. Ginsberg, B.A.S.O.R. Number 111

(4) W.F. Albright, B.A.S.O.R. Number 44 P. 9-10

(1) Ibid.

(2) David Diringer, The Alphabet P. 255

اللغة العبرية

يتساءل البعض ما هي لغة "اليهود" إذا كانت العبرية قد ولدت في القرن الخامس أو الرابع ق.م. وتبلورت في القرن الثاني ق.م. وتميزت كلغة في القرن الخامس الميلادي وما بعده؟ وقد يكون التساؤل نفسه نتيجة التشويش الذي أحدثته التوراة وتداخل المعلومات الواردة عبرها الى ذهنية الإنسان المؤمن بالديانة اليهودية كديانة (سواء أكان يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً). فالتوراة تمزج مزجاً لا منطقياً وتسبر المسافات الزمنية بطريقة "سيريالية" فتربط ما يسمى عصر الآباء (القرن التاسع عشر ق.م.) بعصر

موسى والموسويين (القرن الثالث عشر ق.م.) بعصر الديانة اليهودية (القرن الخامس ق.م. وما بعده) وتعتبر العصور هذه وكأنها حالة واحدة. بينما الحقائق تؤشر أن من يسمون بالآباء ليسوا سوى أسماء أماكن أو شخوص كنعانية. أما الموسويون فكانوا يتحدثون المصرية القديمة وعندما استوطنوا كنعان تحدثوا الكنعانية. حسب قانون انتقال اللغات الى أجانب. فاللغة لا تنتقل من السلف الى الخلف فقط، بل تنتقل أحياناً الى شعب أجنبي إذا اشتبكت في صراع مع لغته، وكانت تتمتع بقوى ذاتية كبيرة، كما كان شأن اللغة اللاتينية في الشعوب السلفية واللغة السلافية في شعوب البلغار (1)، فمن المحتمل أن يكون شعب غير عربي (لم يخرج من الجزيرة العربية) انتقلت اليه لغة الجزيرة العربية عن هذا الطريق. وقد دللت البحوث الحديثة على صحة هذا الاحتمال فيما يتعلّق ببعض الشعوب. فمن المقطوع به أن معظم الجماعات الحبشية الناطقة بلهجات من لغة الجزيرة العربية هم شعوب ليست عربية وهذا ما ينطبق على الموسويين الذين تحدثوا الكنعانية ثم الأرامية، "فالعبرية" ليست إلا لهجة أرامية مكتسبة تحوّلت تالياً الى ما يسمى "العبرية".
فمن الحرف الفينيقي اشتق الحرف الأرامي "بل تطور عن الفينيقي" فالنصوص الأرامية القديمة لا تختلف عن الفينيقية (من القرن الحادي عشر ق.م. وحتى السابع ق.م.) ثم أخذ بالتمايز الى أن أصبح الخط الأرامي له سمات خاصة ولكنها ليست مخلوعة الجذور عن الفينيقية. ومن أهم مميزات هذا الخط مرونته وقدرته على التطور لذا وجدنا لهجات أرامية متعددة، فأينما حلّت الأرامية كانت توجد لهجة لها سماتها. وبإحدى هذه اللهجات كان يتحدث عزرا وجماعة السبي في بابل وبهذه اللهجة بدأت كتابة التوراة.. وزيادة في التمييز سمى هذه اللهجة "اللغة المقدسة" لأن التوراة كتبت بها، ومع مرور الزمن وحتى ما بعد القرن الخامس الميلادي، أطلق عليها اللغة العبرية. لكن الباحثين المحدثين وكلما جاءت اللغة التي كتبت بها التوراة سموها "العبرية" في وقت لم تكن تحمل هذا الإسم. ومما يؤكد ذلك ما جاء في سفر نحميا (24:13) حيث أن اللغة المتكلمة ذلك الوقت الكنعانية بلهجاتها المتعددة.

استقرت مجموعة من اليهود بعد عصر الاسكندر المقدوني في الاسكندرية وبعض المدن الأوروبية، وأخذوا يستعملون اللغة اليونانية القديمة، بينما كانت الأرامية لغة اليهود في بلاد الشام والعراق ومصر. وفي القرن الثاني ق.م. تبنى المكابيون هذه اللهجة وكتبوا بها، ومما يؤكد ذلك أن كتاب دانيال الذي يرجع تاريخه الى 166 ق.م. قد كتب بالأرامية. وكذلك نجد في سفر الأحبار الانتقال من الأرامية الأم الى اللهجة الهجينة التي تبنوها.

أول الكتابات التي يمكن نسبتها لليهود هي المخطوطات على المسكوكات اليهودية من 135 ق.م. الى 132-135 ميلادي في وقت كانت فيه اللغة العبرية تنمو (1). فأقدم المخطوطات العبرية لم تتجاوز القرن الثاني ق.م.، وحتى هذا اليوم لم يعثر على أي أثر أو مخطوط أو نص باللغة

العبرية قبل ذلك التاريخ. ويؤكد الباحث (وليم أولبرايت) الذي يقول: إنه يمكن ملاحظة بعض الخطوط العبرية قبل الفترة المسيحية بمدة قصيرة (2). وهي لا تعدو أن تكون صيغة أرامية، فأحرفها أرامية ومضامينها توراتية. ولأن الأرامية أخذت بالتراجع ولوجود عدة لهجات أرامية تثبتت لهجة منها "كلغة مقدسة" وبحكم تبلور الديانة اليهودية في فترة المكابيين ترسخت هذه اللهجة كلغة لهذه الديانة.

يقول البروفسور G.R.Driver أستاذ اللغة العبرية في جامعة أوكسفورد في مقالة له في دائرة المعارف البريطانية أن كلمة عبري وعبراني هي صياغة من قبل حاخامي فلسطين في وقت متأخر (1) والدليل على ذلك أن كلمة عبري لم تكن مستعملة في روسيا للدلالة على اليهود إلا بعد القرن الخامس عشر للميلاد.

ويقول الباحث (هيرمان ستراك) أن موضوع "التقديس" والدنس بالنسبة للغة العبرية ليس له علاقة بجوهر الأحداث، فاليهود الذين يكنون الكره للكنعانيين اعتبروا اللغة الكنعانية – رغم استعمالها مدة طويلة – لغة دنسة بينما اعتبروا اللغة الأرامية لغة "مقدسة" ومن هنا جاء تقديس هذا الخط. فالرأي الذي يقول أن عزرا هو الذي أحضر معه الخط المربع من بلاد أشور يؤكده المؤرخان (يوسيفوس) و (ناثان) وحتى لو أن عزرا لم يحضر معه الخط الأرامي فإنه جاء ومعه اللغة الأرامية. ومما لا شك فيه أن عدداً من المسكوكات في فترة المكابيين كتبت بالأرامية وبذلك أصبحت هذه الأحرف من "القانون الإلهي" (2).

يؤكد الباحث (الإسرائيلي) (موشيه دافيد كاسوطو): أن بني (إسرائيل) تعلّموا طرق الفن نتيجة وجودهم بين أمم كبيرة، بين المصريين من جانب والبابليين من جانب آخر (3). ويقول أيضاً: "واللغة العبرية ليست سوى لهجة انفصلت عن الجذع الكنعاني. . . وهذه الفرضية لا يمكن دحضها". (4)

---

(1) David Dringer, Writing Vol 25 1962 P. 128

(1) David Dringer, The Alphabet P. 255

(2) G.R.D. Driver, Hebrew Language, Ency, Brit 1965 Vol 11, P. 29

(1) Humann L. Strack, Hebraica Vol 2 Number 1 Oct – 1885 July 1886 P. 214

(2) موشيه ديفيد كاسوطو الآلهة عنات (عبري) ص 19

(3) المصدر السابق

(4) David Dringer, The Alphabet P. 256

النصوص العبرية المؤكدة

العدد الأكبر من النصوص العبرية وجد في القاهرة أثناء ترميم كنيس عزرا وهو ما يسمى "الجنيزا" وذلك عام 1896م ويرجع تاريخ هذه النصوص الى سنوات (القرن التاسع – الثاني عشر للميلاد). ومخطوطة أخرى عن الأنبياء المتأخرين كتبت سنة 916م وهي موجودة الآن في مدينة (لينين جراد)، ومخطوط القاهرة حول الأنبياء يعود الى القرن التاسع الميلادي. كما توجد في المنتحف البريطاني مخطوطات تعود الى القرن التاسع الميلادي، ولكن معظم المخطوطات العبرية تؤرخ ما بين القرن الثاني عشر الى السادس عشر الميلادية (1). لكن تظل أقدم المخطوطات العبرية بالإطلاق تلك المكتشفة شمال البحر الميت ومن بينها مخطوط اشعيا وهي المرحلة التي كانت فيه "العبرية" تنمو على هامش الأرامية.

تميزت لغة مخطوطات البحر الميت التي اكتشفت عام 1947 بصعوبة قراءتها بالعبرية وقد فسّر بعض الباحثين ذلك باعتبارها "عبرية غير مدرسية Scholar وقد أفاد البروفسور (الإسرائيلي) Sukenik أن هذه المخطوطات تعود الى القرن الأول ق.م. بينما M. Dupent – Sommer فيرجع هذه المخطوطات الى سنة 41 ق.م. (2)

رغم حوالي نصف قرن من الجهود المضنية التي بذلتها دائرة الآثار (الإسرائيلية) فلم تستطع إيجاد أي أثر حاسم يؤكد أطروحات التوراة، لكن بين الحين والحين يذاع عن اكتشاف هنا أو هناك وعند التمحيص فيه ودراسته دراسة متأنية تكون النتائج غير ما أعلنه (الإسرائيليون). فقد اكتشف المخطوط "المهم" - كما يقول عنه علماء الآثار الإسرائيليون – والذي يشير الى مكان (البوّاق) "الذي ينفخ في البوق". مما يشير الى وجود أحد الكنس اليهودية. ورغم أن المخطوط يعود الى العصر الروماني (1) – أي بعد فترة المكابيين – فإن لغته تشير الى قربها من الأرامية.

---

(1) David Dringer, The Alphabet P. 256

(2) Edmund Wilson The Dead Sea Scrolls 1969 P 4

(1) Treasures of the Holy Land P. 211

تطور الخط العبري

أشار (وليم كيزينيوس) عام 1822 – وهو من رواد كتاب قواعد العبرية – بأنه واجه صعوبة بالغة ونقصاً في المعلومات التاريخية عن أصل وتطور اللغة العبرية، وبعد مائة عام على كتابته هذه كتب (باور) و (ليندر): "القواعد التاريخية للغة العبرية" حيث جاء فيه: بأن ما لديهما من معلومات عن تاريخ اللغة العبرية قليل، وأنهما أمام مشاكل كثيرة يلزمها الاجتهاد.

كان العصر الذي حكمت فيه أسرة المكابيين (140 – 36 ق.م.) عصراً بدأت فيه تخبو اللغة الأرامية أمام لغات أخرى أهمها اليونانية والرومانية، لكن لأن الديانة اليهودية الفعلية تبلورت خلال هذه الفترة ولأن كتبة الأسفار بهذه اللغة أكدوا على "قدسيتها" . . ومع مرور الوقت أخذت هذه اللغة تبتعد أو تقترب من النصوص الأرامية الأصلية، لكن أهم ما بين علاقة اللهجة التي تكلمها المكابيون مع الأرامية استمرار استعمال حرف (ش) بدلاً من اسم الموصول (الذي). (1)

نتيجة اقتباس الخط الأرامي وتطويره الى الخط "العبري" فقد نقل الكتّاب اليهود الأوائل الأحرف الأرامية البالغة عددها (22) حرفاً واعتبروها الأحرف العبرية، وهي الأحرف المعروفة بالأحرف الساكنة، ويكتب الخط العبري من اليمين الى اليسار كما هو الحال في الخط الأرامي وباقي اللهجات العربية القديمة واللغة العربية الحديثة. وقد اجتاز الخط العبري ثلاث مراحل:

1- تطابق في المرحلة الأولى مع الخط الأرامي.

2- حوالي القرن السادس الميلاد أدخل على هذا الرسم تطور جديد إذ استخدم (الألف والهاء والواو والياء) للرمز الى أصوات المد الطويلة فساعد ذلك على ضبط اللفظ.

3- اخترع في العصور الوسطى نظام الحركات للإشارة الى أصوات المد القصيرة. ويعتقد أن هذه الطريقة قد أخذت من اللهجة الأرامية – النسطورية (1). وقد اتخذت ثلاثة طرق لرسم هذه الحركات:

أ) طريقة طبريا: وترمز الى أصوات المد القصيرة بعلامات تحت الحروف.

ب) الطريقة العراقية أو البابلية: وترمز الى أصوات المد القصيرة بعلامات فوق الحروف.

ت) الطريقة الفلسطينية: وترمز الى أصوات المد القصيرة بعلامات فوق الحروف كما تفعل الطريقة العراقية ولكنها تختلف عنها في صورة هذه العلاقات ودلالاتها.

وبذلك مر الخط العبري بثلاث مراحل:

أولاً: الخط المربع (الأرامي) وهو الذي تطور الى الخط الطباعي في اللغة العبرية.

ثانياً: الخط الرباني الذي استعمله الربانيون ورجال الدين في العصور الوسطى.

ثالثاً: الخط الطباعي المتصل، والذي انتشر في الشرق وإسبانيا وإيطاليا وقد غدا الخط البولندي – الألماني الشكل الحاضر للخط العبري. (2)

اقتضت قراءة التوراة – مع وجود دماء جديدة دائماً – ضرورة ضبط اللفظ الأمر الذي أجبر رجال الدين اليهود – المتأخرين – على الإعلان عن دور لأحرف العلة بعد أن كان الاعتماد كلياً على الأحرف الساكنة، فاستخدم أسلوب التنقيط البابلي وذلك لكتابة نص صحيح الإملاء وغير عرضة للتغيير. وقد وجد هذا النظام في عدد من المخطوطات التوراتية والكسر المكتشفة في بعض الكنس القديمة (1).

وكما أعطي النظام البابلي أهمية كان النظام الفلسطيني ذا أهمية أيضاً، فموضع النقط وعددها تحدد دلالة صوت الحرف اللين. والنظام الطبراني مهم أيضاً إذ يحتوي على نقط وعدد من الخطوط (شارطة Dash) وهو نظام متطور ودقيق ومفهوم أكثر من غيره، والرموز الطبرانية توضح نغمة الكلمة بالأساس والى النبرة بشكل ثانوي بينما النظامان الأخران يهملان ذلك.

ولتمييز العلامة الصوتية تستعمل النقط لضبط اللفظ وتحديده فوق الأحرف الساكنة. ووجود النقطة الى يمين الحرف أو يساره لتفريق صوت (س) عن (ش) مثلاً.

للمصورتيين Mossoretes في العصور الوسطى الفضل في ضبط اللفظ. فإذا أخذنا كلمة بالعبرية مثل (اليخ) "لك" فإن قراءتنا لها ترتكز على معيارين:

1) المخطوطات القديمة التي حددت الأحرف الصحيحة في حدها الأدنى.

2) القراءة التي وصلتنا من المصورتيين، وهم الذين حللوا اللفظ التقليدي للكلمة صوتياً وقراءتها بصوت مرتفع.

ولأن الحروف القديمة هي أحرف صحيحة فإنها لا تخبرنا مباشرة عن طبيعة الحرف إذا كان احتكاكي مثلاً أو غيره. والمقارنة بين أحرف اللين العبرية وصيغة التشكيل في اللغات الأخرى ستقودنا الى حالة الاقتباس التي طرحها المصورتيون. (2)

معظم النصوص العبرية الآن تلفظ بالعبرية الطبرانية لكن هناك نصوص صيغت في طبريا، دون شك، لكنها مصورتية بابلية تعود الى العصور الوسطى المتقدمة Early Middle Ages. والمخطوطات البابلية تختلف بين مخطوطة وأخرى. ومع ذلك تستعمل ستة حروف ساكنة كإشارات توضع نحو اليسار في أعلى الحرف الساكن. فعلى سبيل المثال فإن حرف (م) في النص الطبراني يستعمل مشكّلاً (م) أي النقطة أسفل الحرف الساكن، بينما يكون تشكيله في البابلية (م) ويستعمل أحياناً (م)، وليس هناك توافق بين حرف وآخر. (1)

يوجد في العبرية صيغتان للفعل الماضي: الأولى العادية مثل كتب، أمر (2) والثاني مشتقة من المضارع بإضافة واو العطف مثل يكتب، ويأمر حيث تدل على معنى كتب وأمر. وهذه الصيغة مأخوذة من البابلية القديمة بينما أسقطت هذه الصيغة من الأرامية المتأخرة والعربية الحديثة، وهذا يشير الى استمرار التأثير البابلي في كثير من المناحي اليهودية ومنها اللغة.

تميزت اللهجات العربية القديمة بكثرة عدد الحروف قياساً الى غيرها من اللغات، وقد استغنت العبرية عن أصوات حروف (الثاء، والذال، والغين) رغم أنها كانت مستعملة وخصوصاً الثاء فهذا الحرف كان يستعمل في لفظ الحروف أو تحتها أو وسطها في تغيير أصوات حروف مثل (الكاف، الباء، فا) حيث تغير الحركة أصواتها الى (خ، ف V، فا P) على التوالي ومن هنا ترى الفرق الواضح من هذه الناحية بين العربية والعبرية، فالعربية تعبّر عن أصواتها بالحروف ولا تغير الحركات هذه الأصوات في حين نجد العبرية تعتمد في تغيير أصوات بعض حروفها على الحركات. والعربية ليس بها سوى فتح وضم وكسر أما في العبرية فأشكال متعددة من الضم والفتح والكسر والتسكين والتشديد يفوق عددها عشر حركات مختلفة. رغم بقاء نهاية الكلمات ساكناً. (2)

والأرامية والعبرية ليس لديها ما يشبه علامات المثنى بالعربية، فالعربية تستعمل حالة المثنى بحرية لأي اثنين، بينما العبرية والأرامية تحدد ذلك بأعضاء الجسم وعدد قليل آخر من الأسماء والتي لا تكون مبتدأ في الجملة. وهذه الحالة دفعت بكثير من الباحثين الى اعتبار تقويم (جيزر) كنعاني وليس أرامي أو عبري حيث يحتوي على أربع حالات مثنى بالألف.

وتستعمل العبرية (الهاء) أداة للتعريف، والتي كانت تستعمل في بعض اللهجات العربية البائدة، في أول الكلمة، أما علامات الجمع في العبرية (يم) الياء والميم للمذكر (والواو والتاء) للمؤنث في حين تستخدم العربية الواو والنون في الدلالة على حالة الرفع والياء والنون في حالتي النصب والجر في آخر الكلمة، وفي حالة جمع المؤنث الألف والتاء في آخر الكلمة. وجمع التكسير للدلالة على حالتي المذكر والمؤنث معاً.

والعبرية لا تتضمن أحرف (ذ، غ، ض، ظ) في حين لا وجود لحرفي V, P في اللغة العربية الحديثة. وأغلب ما يأتي بالعربية بالسين يكون بالعبرية بحرف الشين والعكس بالعكس.

ورسم بعض الخطوط يؤدي أحياناً الى التشويش والخطأ بين حرف وآخر لتشابه الرسم مثلاً: بين حرف الباء والكاف. حرفي الجيم والنون. والواو والصاد. والحاء والتاء. وهناك أحرف في العبرية لها صيغتان في الكتابة في حالة وقوعها أول ووسط الكلمة أو آخر الكلمة وهذه الأحرف (ك، م، ن).

وتستعمل الأحرف العبرية كعلامات عددية. فالأحرف التسعة الأولى تشير الى الأعداد من 1-9 والتسعة التالية تستعمل للعشرات من 10-90 والأحرف الأربعة الأخيرة ترمز الى 100، 200، 300، 400.

تدين اللغة العبرية من الناحية القواعدية الى اللغة العربية حيث أول من وضع قواعد اللغة العبرية (سعيد بن يوسف الفيومي) المعروف باسم (سعديا) في القرن العاشر الميلادي والذي تأثر باللغة العربية وعلومها. وكذلك (مناحيم بن سروك) و (يهوذا بن داود). وفي حوالي القرن الثاني عشر للميلاد أخذ أدباء اليهود يكتبون أشعارهم حسب القواعد والبحور العربية ولكن بأحرف عبرية. وأشهر من كتب بهذه الطريقة (موسى بن ميمون).

كتب البروفسور (دافيد بالين) أستاذ الأدب العبري الأندلس في الجامعة العبرية في القدس كتاب "فن الشعر الأندلسي" (1) جاء فيه: "لقد كان العصر الأندلسي عصراً زاهراً في الأدب العبري. بدأ هذا العصر قبل البعث الأوروبي بحوالي خمسة قرون. وقد شمل التقدم تفسير التوراة ووضع قواعد اللغة العبرية. واتخذ شعراؤنا من الشعر العربي في ذلك العهد نموذجاً ينسجون على منواله. وكان الشعر العربي آنئذ قد بلغ الأوج في الازدهار والإبداع. إن بلاد الأندلس الجميلة التي ازدهرت في جميع الميادين إبان الحكم العربي والتي أسبغت على سكانها ثوباً فضفاضاً من الغنى والرخاء، قد كانت ذات أثر فعّال في إطراد ازدهار الشعر العربي. إن جمال الطبيعة وازدهار الفنون والتقدم العلمي في مختلف فروعه في العصر الأموي، كل هذا وذاك قد كان له، بالطبع، تأثيره القوي على اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك في هدوء ونعيم، في ظل الحكم العربي، ومنذ

بدء القرن العاشر انتقل مركز التوراة من العراق الى الأندلس – فقد نما في هذه البلاد أدب خلاب جديد ذو فروع كثيرة، واتسع صدر الشعر لأبواب جديدة وصور جديدة، مما جعل العلماء والأدباء والشعراء اليهود ينسجون على منوال الثقافة العربية التي كانت وقتئذ ينبوع الثقافة والتفكير. إن هذه المحاكاة من قبل العبرية للعربية لم تأت عفواً وعن غير قصد، بل جاءت العزيمة صادقة منذ البدء، فقد اعتقد اليهود اعتقاداً راسخاً بأن العرب يفوقون سائر الأمم في مضمار الشعر، فساروا في تقليدهم". ويضيف الدكتور (دافيد بالين) على لسان الناقد (العبري) (يهوذا الحريزي) قوله: "إن شعبنا – بعد الشتات – قد قطن مع بني يعرب في أوطانهم، وألف التحدث بلغتهم والتفكير بتفكيرهم. وحين كان أباؤنا يعيشون في مدينة القدس ما كانوا يعرفون الشعر الموزون في اللغة العبرية. أما أسفار أيوب والأمثال والمزامير فجملها قصيرة وأبياتها سهلة وبسيطة وما أشبهها بالسجع، وهي بعيدة عن أن تكون نظماً جميلاً موزوناً مقفى.

إذا تفحصنا اللغة العبرية الآن فإننا نجد حوالي ثلث مفرداتها من اللغة العربية الحديثة وثلث آخر جاءت من الأرامية أو اللغة العربية القديمة والثلث الباقي مفردات أوروبية حديثة جاءتها من الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية. وهذه اللغة بوضعها، قواعداً ومفردات، تدلل على أنها "لغة" تفاهمية ليس لها عمق حضاري وتراثي. لكن طريقة تشكيل اللغة العبرية كانت تجربة لليهود في تشكيل لغتين في أوروبا استعملت من قبلهم واعتبرتا لغة الفن والأدب وهما:

أولاً:
اليديش: وهي لغة استعملها اليهود وسط وشرق أوروبا ثم انتقلت مع المهاجرين من أوروبا الى الولايات المتحدة. وتعود أصول اليديش الى العصور الوسطى وأساسها العبرية والألمانية ولكنها تضمنت كلمات من لغات عدة بلدان عاش فيها اليهود مثل: بولندا، روسيا، بريطانيا، تركيا، والأقطار العربية. وقد استعملت الأحرف الهجائية "العبرية" في كتابتها وتكتب من اليمين الى اليسار.

ثانياً:

اللغة اليهودية الإسبانية، وهي تتضمن عدداً من الكلمات العبرية، لكنها تعتمد بشكل أساسي على الإسبانية القديمة، كما تكتب من اليمين الى اليسار.

---

(1) اسرائيل ولفنسون اللغات السامية ص 94

(1) David Dringer, The Alphabet Vol 1 P. 266

(2) Ibid P. 262 – 263

(1) Ibid. P. 264 – 265

(2) Saul Levin, The Indo – European And Semitic Languages P. 43

(1) Ibid. P. 54

(2) محمد حسين آل ياسين مقدمة في أصول اللغة المشتركة بين العربية والعبرية ص 6-7

(1) جودت السعد الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع ص 21 – 23

الفصل التاسع

أصلهم ووجودهم

يرجع كثير من الباحثين، أن حادثة دمار القدس وقضاء (طيطس) الروماني على الوجود اليهودي عام 70م أدى الى تبعثر اليهود وتشرّدهم. . لكن كم يقدّر عدد اليهود آنذاك؟ وكم تتحمل فلسطين ومساحتها الصغيرة، وماذا تشكّل مساحة المنطقة (يهوذا أو القدس) وهي التي كانت مسكونة من قبل اليهود، وما هي نسبة اليهود بالنسبة للجنس البشري على مساحة العالم القديم ذلك الوقت؟!!

لا شك أن عددهم قليل وفق كل المعايير، ومع ذلك وعلى قلتهم كان لهم ثقلاً مبعثه الوحدة الفكرية التي بلورها المكابيون – إبان الحكم اليوناني – والتي كان يفتقدها أكثر المعاصرين لهم. فلما قضى الرومان على وجودهم، رغم أنهم كانوا تابعين للدولة الرومانية، انتشروا في البلدان المحيطة، فمنهم من كانت وجهته الجزيرة العربية كمنطقة "نائية" وراء الصحراء، ومنهم من ذهب الى مصر أو العراق. وكان قسم قد سبق أن غادر الى أوروبا زمن اليونان. كما يقول المؤرخ اليهودي (يوسيفوس).

كان لا بد أثناء حكم المكابيين – الفترة اليونانية – أو حكم عائلة هيرود – أثناء الفترة الرومانية – من ضخ دماء جديدة للديانة اليهودية من مختلف الأمم والأجناس، إذ بدأ التبشير بالديانة اليهودية في هذه الفترة وحتى العصور الوسطى، وكان منهم النشطاء المحتمسون الذين أخذوا على

عاتقهم نشر الديانة اليهودية. "لقد ظلّت اليهودي زمناً طويلاً فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى" (1). فانتشر هذا الدين في مناطق متباعدة: اليمن، الحبشة، الخزر، أواسط أوروبا، بلاد المغرب، وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية. هذا الى جانب العناصر التي دخلت اليهودية بطريق الزواج. وقد بلغ اعتناق اليهودية ذروته في الامبراطورية الرومانية بين نهاية حكم المكابيين وظهور المسيحية. فقد تهود عدد كبير من العائلات النبيلة في إيطاليا، وتحدث المؤرخ (فيلو) عن التحول الضخم الى اليهودية في اليونان. ويكتب المؤرخ اليهودي (ت. ريناك): "لقد كان الهوس الديني من أبرز سمات اليهودية خلال العصر الإغريقي – الروماني، وهي سمة لم تحصل إطلاقاً بنفس الدرجة قبل ذلك. ولا شك أن اليهودية حققت بهذه الطريقة تحولاً كبيراً اليها خلال قرنين أو ثلاثة. ولا يمكن تفسير التزايد السريع لليهود في مصر وقبرص، دون افتراض امتصاص دماء غير يهودية وافرة" (2).

لكن أول كتلة كبيرة دخلت اليهودية كانت في اليمن، زمن الملك الحميري (تبان أسعد أبو كرب) القرن الخامس الميلادي، وأثناء غزوه مدينة يثرب التقى بحبرين من أحبار اليهود، فأعجب بما وصفاه له عن دينهما، فأخذهما معه الى اليمن بعد أن تهود ودعا قومه الى الدخول بما دخل فيه. وفي عهد الملك الحميري (ذي نؤاس) أوائل القرن السادس الميلادي حاول إحبار المسيحيين في اليمن على دخول الدين اليهودي. إلا أن اليهودية في اليمن اقتصرت على بعض ملوك حمير، ويبدو أن هؤلاء العرب لم يستسيغوا كثيراً هذه الديانة فكانوا من أوائل من اتبع الديانة العربية الإسلامية. ومع ذلك ظلّت أعداد منهم على الديانة اليهودية.

أما أكبر الكتل البشرية التي دخلت اليهودية فكانت من شعوب الخزر. فكيف تم ذلك؟ تقع بلاد الخزر جنوب روسيا جوار مصب نهر الفولغا في بحر قزوين (أو بحر الخزر). وكان سكانها يؤمنون بإحدى نحل (الشامانيه) (1): وبين هؤلاء عدد قليل من المسلمين والمسيحيين. ونتيجة وقوع بلادهم بين الامبراطورية الاسلامية والبيزنطية ارتأى ملكهم (الخاقان) اتباع الديانة اليهودية التي اطلع عليها من خلال وجود أعداد من اليهود في بلاد الخزر الذين فروا من الاضطهاد البيزنطي لهم، حيث بدأ عنفوان هذا الاضطهاد إبان حكم (يوستنيان الأول) 547 – 565م، واتخذ أشكالاً بالغة القسوة تحت حكم هرقل في القرن السابع الميلادي، ونتيجة العداء بين الامبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية اتخذ (الخاقان) موقفاً متوازناً و "مقبولاً" من الطرفين باتباعه الديانة اليهودية.

تعرف العرب المسلمون على الخزر وأشاروا الى تهودهم في المصادر العربية القديمة (2)، حيث تم التهود إبان حكم هارون الرشيد، ويقول ياقوت الحموي في معجمه: الخزر اسم إقليم من قصبة تسمى (اتل) وأتل اسم لنهر (نهر الفولغا حالياً) يجري الى الخزر من الروس والبلغار ويسمى الملك

(يلك)، وقصر الملك هو البناء الوحيد المبني بالآجر. والملك يدين باليهودية. وبلاد الخزر لا يجلب منها شيء، وكل ما يرتفع منها هو مجلوب اليها مثل الدقيق والعسل والشمع والخز والأوبار. وأما ملك الخزر فاسمه (الخاقان الكبير) ومساعده يسمى (خاقان به)، ويخلف خاقان به رجل يقال له (كندر خاقان) ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له (جاو يشغر). والخزر وملكهم كلهم يهود، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعة الخاقان.

ويقول ابن فضلان: "بيد الخاقان العقد والحل والعقوبات" (3). ويضيف: "ولملك الخزر خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك. وله من الجواري السراري ستون ويشترط فيها أن تكون فائقة الجمال. ومن عادة الملك قتل كل قواده الذين يهربون من المعارك" (1).

فالخزر شعب انحدر من القواقز وعاش أفراده على ضفاف الفولغا ويصير نسبهم الى بدايات الجنس الآري وهم أوثق انتماءً وراثياً الى قبائل (الهون) و (البوجر) وتؤكد ذلك المراسلات التي تمت بين (حسداي بين شبروط) رئيسا الوزراء (اليهودي) لدى خليفة قرطبة وبين (يوسف) ملك الخزر، وهي التي تعرف تاريخياً باسم "المراسلات الخزرية" حيث تضمنت الرسائل قائمة من الأسئلة من دون الخزر وشعبها ونظام حكمها وقواتها المسلحة. كما تتضمن أسئلة عن السبط الذي ينتمي اليه الملك يوسف. ولما كان الملك الخزري غير منحدر من سلالة يهودية فقد أورد في إجابته على رسائل (حسداي) سلسلة أنساب من نوع مغاير. .

تبدأ رواية ملك الخزر بذكر مناقب سلفه الأعلى الملك (بولان) الذي: "طرد من بلاده الوثنيين والمشعوذين". بعد أن ظهر له ملاك يدعوه الى الايمان ووعده أن "الله سيبارك ويثمر نسله وسيوقع أعداءه بين يديه وسيجعل مملكته تدوم أبداً". ويستتبع ذلك أن يهود الخزر بدورهم يزعمون مقولة "الشعب المختار" الذي عقد مع الله عهده الخاص.

وبينما كان (حسداي) رئيساً لوزراء قرطبة ادعى في رسالة الى ملك الخزر أن اليهود مضطهدون حيث ذكر: "إنني أشعر بنزوع الى معرفة الحقيقة، هل ثمة حقاً مكان فوق هذه الأرض يستطيع (الإسرائيلي) المضطهد أن يحكم فيه نفسه حيث لا يكون خاضعاً لأي إنسان. وأذا قيّض لي أن أعلم أن هذه هي الحقيقة بالفعل فلن أتردد أن أهجر كل مظاهر التكريم حتى أبلغ المكان الذي يحكم فيه مولاي الملك".

رغم أن إجابات ملك الخزر كانت تنم عن تعصب وهوس ديني لكنه لم يجرؤ على الإدعاء أنه يعود بأصله الى جذور شرقية، بل ما جاء على لسان الملك نقض لمقولة توراتية هامة تدعي أن "اليهود" من نسل سام بن نوح. حيث يقول ملك الخزر: أنه يرجع بنسبه الى يافث بن نوح وليس الى سام – كما تقول التوراة – أو بمزيد من التحديد الى (توجرمه) حفيد يافث، فقد

جاء في إحدى الرسائل وبأسلوب، استعلائي قوله: "لقد وجدنا في السجلات العائلية لآبائنا أن توجرمه كان له عشرة أبناء وأن أسماء ذريته كما يلي: يوجار، دورسو، آفار، هون، باسيلي، تارنياخ، زاجورا، بلغار، سابر، ونحن أبناء خزر".

أدى دخول الخزر الى الديانة اليهودية تشكيل صلب الوجود الديمغرافي لليهود المعاصرين، فالبروفسور (أ.ن.، زدياك) أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة تل أبيب أصدر كتاباً باللغة العبرية عام 1944 يحمل عنوان "خزاريا" وأعيد طبعه عام 1951 حيث يقول في مقدمته: "إن الحقائق تتطلب منهجاً جديداً لتناول مسألة العلاقات بين يهود الخزر وغيرهم من الجماعات اليهودية، ومسألة المدى الذي يمكن أن نصل اليه في اعتبارنا أن يهود الخزر يمثلون نواة التجمع اليهودي الكبير في أوروبا الشرقية أن أبناء هذا التجمع سواء الذين بقوا حيث هم أو الذين هاجروا الى الولايات المتحدة وغيرها من الأقطار أو الذين ذهبوا الى (إسرائيل) يمثلون الآن الغالبية العظمى من يهود العالم" (1).

عندما توج (شارلمان) امبراطوراً على الغرب، كانت المناطق الشرقية من أوروبا، فيما بين القوقاز والقولي، خاضعة لحكم دولة يهودية معروفة باسم "امبراطورية الخزر" وقد لعبت في عنفوان قوتها من القرن السابع حتى القرن الثامن الميلادي دوراً فعالاً في تشكيل أقدار أوروبا الحديثة. وقد فقد يهود الخزر امبراطوريتهم بعد هزيمتهم أمام الروس عام 965م لكنهم احتفظوا باستقلالهم داخل حدود أضيق من ذي قبل، كما احتفظوا بعقيدتهم اليهودية طوال القرن الثالث عشر الميلادي عندما سقطت نتيجة الغزو المغولي الضخم الذي قاده (جنكيز خان). فارتحل اليهود ومدوا فروعهم الى البلاد السلافية التي لم تقهر وشيدوا مراكز يهودية كبيرة في أوروبا الشرقية.

فإذا كان الغزو المغولي سبباً في انتهاء امبراطورية الخزر وتشتت اليهود، إلا أن الهجرات الى المواطن الآمنة كانت متتابعة ومتلاحقة على مر الزمن استمرت قروناً عديدة، أي أن الرحيل هذا كان مسبوقاً بتأسيس المستعمرات والمستوطنات في أماكن كثيرة من أوكرانيا وروسيا الجنوبية، فعلى سبيل المثال كان في منطقة (كييف) تجمع يهودي واسع قبل استيلاء الروس عليها.

واعتماداً على ما جاء في مادة إحصائيات في الموسوعة اليهودية فإن جملة عدد اليهود في العالم في القرن السادس عشر الميلادي تقارب المليون نسمة، ويبدو أن هذه إشارة الى أن أغلب من اعتنق اليهودية في العصور الوسطى كانوا من الخزر، وقد هاجر جزء كبير من اليهود الخزر الى بولندا، ليتوانيا وهنغاريا والبلقان، حيث أسسوا المجتمعات اليهودية والتي أصبحت تمثّل الأغلبية الساحقة ليهود العالم.

(1) ويلز معالم تاريخ الإنسانية ترجمة عبد العزيز توفيق ص 292 – 293

(2) آرثر كوستلر امبراطورية الخزر ترجمة حمدي متولي ص 236 – 237

(1) الشامانية: دين بدائي كان منتشراً شمال آسيا وأوروبا ويتميز بالاعتقاد بوجود عالم من الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للكاهن (الشامان) الذي يستخدم السحر لكشف الغيب والسيطرة على الأحداث.

(2) أنظر رسالة ابن فضلان: تحقيق الدكتور سامي الدهان وابن حوقل في "صورة الأرض" الجزء الأول. ومعجم البلدان لياقوت الحموي في باب خزر.

(3) رسالة ابن فضلان تحقيق الدكتور سامي الدهان دمشق 1959 ص 170.

(1) المصدر السابق.

(1) آرثر كوستلر امبراطورية الخزر ترجمة حمدي متولي ص 22

الجنس والقومية واليهودية

معروف أن اليهودية – كدين – تضم أجناساً متعددة تجمعهم جملة تعاليم وأفكار تبلورت عبر مسيرة هذا الدين، فهناك من اعتنق اليهودية من القبائل العربية والرومانية واليونانية والفارسية والخزرية والإفريقية .. ومثل هذه الأجناس انضوت تحت لواء الديانتين، المسيحية والاسلامية: وكل فئة – داخل الدين الواحد – تختلف عن الأخرى بالأصول العرقية والتراثية والتاريخية.

لذا لم نجد من العلماء الذين يعتد برأيهم من يقول بوجود جنس أو عرق إسلامي واحد أو أمة إسلامية واحدة ولا وجود لأمة مسيحية واحدة، والأمر ينطبق على اليهودية كذلك. فالمؤرخ (رينان) يقول عن نقاء اليهود في مؤلفه "اليهودية كجنس ودين": "لا يجوز حتى الحديث عن هذا، فقد تعرّض اليهود للتمازج مع الشعوب الأخرى بنفس القدر الذي تعرّضت له الأجناس الأخرى".

وقد أثبت علم السلالات منذ وقت طويل بأن اليهود لا يمثلون عنصراً مستقلاً، وجاء في إعلان الأجناس والتباينات العرقية، الذي أقرّته مجموعة من علماء السلالات البارزين عام 1951 أن المسلمين واليهود لا يمثلون أجناساً شأنهم في ذلك شأن الكاثوليك والبروتستانت. ويشير (يوجين ميتار) في كتابه "الجنس والتاريخ" ص 337 أن اليهودية "قد دخلها عناصر من أجناس متباينة ومن كل السلالاتت البشرية".

رغم إصرار الصهيونية على ادعائها "بنقاء العرق اليهودي" إلا أن كثيراً من مفكري الصهيونية يدركون واقعياً عبث وخطأ مثل هذا الطرح. فالمفكر اليهودي (يوسف حاييم برنر) يقول: "كل ما نعرفه عن حياتنا يشير الى أن الجماهير اليهودية ليس لها السمة الاجتماعية بالمعنى السوسيولوجي، ونحن لسنا شعباً مترابط الأجزاء" (1).

بدأ يغزو الكتابات الصهيونية مفهوم "القومية" منذ القرن الثامن عشر الميلادي كرد على شيوع المفهوم القومي الأوروبي الذي عرف باسم "الوعي القومي". ولما كان معظم سكان أوروبا يدينون بالمسيحية، ولأن اليهود يعتبرون المسيحية عدوتهم التقليدية وضعوا أنفسهم في الجبهة المقابلة للمسيحية. . أي ما دام المسيحيون لهم وجود قومي – متعدد – فاليهود بالمقابل لهم قومية ويشكلون "أمة". ويفسر الكاتب الصهيوني (بريتس سمولنسكين) فهمه للأمة حيث يقول: "نحن شعب تربطه وحدة الروح والنفس (!!) ويجمعه الحب، كما لم يجمع شعباً آخر. على أننا لا نشكل أمة بالمعنى الذي تتشكّل به الأمم الأخرى، كنا دائماً أمة روحية، وكانت التوراة أساس تجمعنا، لذا استمرت ديمومتنا حتى يومنا هذا، شعباً روحياً، الروح تجمع هذا الشعب وإن اختلف المسمى واختلفت الوسيلة" (2).

ومع أن (سمولنسكين) لم يفسّر ماهية النفس والروح التي قصدها بدقة، لكن يفهم من سياق الحديث أنها الدين اليهودي. ولكن عملياً فقد قصد معنى "اليهودي" مجرداً بدليل عدم تمييزه بين المتدين والملحد اليهودي حين قال: "إن سر قوتنا كامن بتفهم وحدة الشعب الناتجة عن مشاعر الأخوة التي تدفع كل يهودي كي يعلن انتماءه، إنني ابن هذا الشعب. . حتى أولئك الذين تكون نوازعهم الدينية ضعيفة فسيظل لديهم بعض الشيء من تراث إسرائيل، ومهما كانت خطيئتهم فإنها موجهة الى الإله الأب وليست الى الشعب. وإذا كان الشعور القومي هو أساس وجودنا فليس هناك أي داع للاختلاف على عادات سخيفة، وبالتالي لن يجرؤ المتزمتون على نبذ المتحررين من الدين. وموقف اليهودي السلبي تجاه الدين لن يكون ذا تأثير طالما أن اليهودي لا يقف معادياً للشعب، هذا هو الهدف الذي نسعى الى تحقيقه وهو النتيجة المنطقية باعتبارنا شعباً واحداً، فما العمل إذا تراخى الوازع الديني وكيف نقرب قلوب اليهود غير المتدينيين في قراءة أنفسهم، أن صلتهم مع إسرائيل قد انعطفت وأصبحوا

خارج مجتمع لا يربطه أي رابط غير الدين. وهكذا نرى يوماً إثر يوم إذا لم نتمسك بالقيم الدينية يكون الجيل الجديد قد اقترب جداً من الضياع، وبعد مجيء جيل آخر أو جيلين سينتهي اسم إسرائيل وذكراه من العالم الى ضياع دائم" (1).

ويؤكد هذا الطرح (موشيه ليب ليلينبلوم) حيث يقول: "نعم كلنا أخوة، بذلك نحذر المتدينين، فكلنا مقدّسون، كلنا، الشكاك والورعون، ساهمنا في تطهير الإسم" (2).

يدرك معظم اليهود مدى عمق المغالطة في الإدعاء "بنقاء العرق اليهودي"، ومع ذلك فكل اليهود تقريباً يلحون عليه كحالة مسلم بها حفاظاً على التعصب التوراتي والهوس الديني. ومن هنا كانت المنطلقات النظرية والعملية والتنظيمية للحركة الصهيونية في إيجاد الروابط الأكثر قدرة على التفاعل أو المشاركة الوجدانية بين اليهود فكانت هناك ثلاث ركائز:

أولاً:
ترسيخ الشتات اليهودي وتعميقه سيكولوجياً وتلميع إطاره التجريدي – أي الدين اليهودي – والتعامل معه كإسم وليس بالضرورة كمفاهيم وأنظمة ومناسك. وبناء على هذا الفهم كان (هيرتزل) زعيم الحركة الصهيونية لا يعرف من الديانة اليهودية غير الأعياد ولا يعرف من العبرية حرفاً واحداً، كما قال، الكاتب الصهيوني (أحاد هاعام) في صحيفة (دي فولت) الألمانية.

ثانياً:
التأكيد على التحدث بلغة واحدة. ولم يكن وارداً في حينه أن تكون هذه اللغة هي العبرية المنبوذة أو اليديشية – غير المستحبة – ولكن قد تكون الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية. وهذا ما يفسر استعمال اللغة الألمانية في المؤتمرات الصهيونية التي تلت مؤتمر بازل عام 1897.

ثالثاً:
الاصطفاء غير الطبيعي، بإثارة عداء الآخرين لليهود وتهيئة الأجواء لمذابح يذهب ضحيتها عدد من اليهود غير الموالين أو الفقراء لضمان التفاف بقية اليهود حول الصهيونية وأهدافها السياسية. (1)

رهان اليهود على الدين كوسيلة وحيدة لجمع الشتات اليهودي كان ساقطاً من الحسابات إلا حساب الشكلية والمظهرية دون ترسيخ وتجذير الإيمان المطلوب. فالمفكران (موسى هس) و (آحاد هاعام) وهما منظران صهيونيان فكريان حتى قبل ولادة الحركة الصهيونية السياسية قالا: إن تجميع اليهود من أطراف الأرض شيء مستحيل. بل إن التشكيك بهذا العمل أخذ منحى الاتهام، حيث اتهم القيّمون على العمل الصهيوني بالانحراف عن جادة الإيمان: "فكثير من أغنياء اليهود اتهموا العمل بالفوقية

والاتهام موجه أصلاً الى هيرتزل. ومع ذلك قدموا له المساعدات، صحيح أن موقفهم لم يكن انحيازاً الى الشعب لكنهم لم يرغبوا بالبقاء على هامش الفكرة الصهيونية، واعتبروا المعارضة الشديدة والعلنية خطأ، فأعطوا إشارة بدء المعركة (للقادة الروحيين) والربانيين المحتقرين في أوروبا، فحكموا على الصهيونية وهيرتزل بالخروج عن اليهودية والتوراة". (1)

وكان (آحاد هاعام) أكثر وضوحاً في إبراز حقيقة التراخي الديني فهو يقول: "إن معظم رجالنا العظام – الذين يؤهلهم علمهم ومركزهم الاجتماعي لقيادة الدولة الصهيونية – بعيدون جداً عن اليهودية روحياً، وليس لديهم المفهوم الصحيح عن طبيعتها وقيمها، ومهما بلغ إخلاصهم لدولتهم ومصالحها، فإن مقياس هذه المصالح سيكون وفقاً للحضارات الأجنبية المقتبسة التي يسعون لتثبيتها في الدولة اليهودية".

ففكرة "الأمة" اليهودية تتناقض مع المفهوم العلمي للأمة، كما تقول البروفسورة (ميلينا مود رجنسكايا) (2): فكما هو معروف فإن الأمة هي شكل ثابت لتشكيلة من الناس تآلفت تاريخياً، وتتميز الأمة في المقام الأول بوحدة الظروف المادية للحياة، فالإقليم ووحدة اللغة والسمات المعينة للطابع القومي، وهي التي تتجلى في الخاصية القومية لثقافتها. فأين موقع اليهودية منها؟! فالشتات هي السمة الرئيسية التي تميز اليهود وليس هناك ثقافة واضحة – حتى الآن – رغم وجود الكيان الصهيوني، فثلاثة أرباع اليهود – وبعد مرور حوالي أربعين عاماً على وجود الكيان الصهيوني – ما زالوا موزعين على مساحة الكرة الأرضية، ومعها يستحيل وجود وحدة ثقافية أو اقتصادية أو سياسية علاوة على الجغرافية – ومع ذلك لا يعدم "المفكرون" اليهود التبريرات وإن بعدت عن المنطق والعلم. فهذا (يجيئال مايكل بينس) يحاول سبر الهوة الواقعية المتضمنة فقدان الأسس التي تشكل مجموعها الأمة. "فالأمة" عند هذا الكاتب الصهيوني لها سمات خاصة أوضحها بتساؤل وجواب: "بماذا يتميز الشعب اليهودي عن بقية الأمم؟ للسؤال هذا جواب واحد، إن الشعب اليهودي لم يولد ولادة طبيعية (!!!) فولادته منذ البدء لم تكن طبيعية، أي لم تكن مشاشركة وتفاعلاً، بين عامل الجنس والأرض، بل بتفاعل التوراة والميثاق الديني، وكما لم يولد ولادة طبيعية كذلك لم يكن نموه وتطوره عادياً، بل ظل مرتبطاً بتمسكه بالتوراة والدين" (1).

ظلّت التوراة و "اليهودية" الإطارين الوحيدين اللذين يجمعان اليهو دبشكل أساسي تساعدهما سلسلة عوامل ثانوية "كالمجازر" سواء كانت حقيقية مبالغاً فيها، أو مختلقة من أساسها أوأنها بفعل الصهيونية ذاتها. فاليهودي مهما ابتعد عن اليهودية سيظل في إطارها – بالتربية – فالتوراة هي الأساس الذي رباه آباؤه عليها. ولما بدأت المفاهيم القومية تعم وتنتشر في أوروبا وترسخ الوعي القومي والنظرة القومية الإنسانية، اختلطت الأمور على منظري الصهيونية وفلاسفتها الى درجة غيبوا – بالوعي

واللاوعي – المفاهيم العلمية للقومية بطرح عنصري، استولد تالياً النازية والفاشية. فمن المعروف أن الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه) كان معجباً بالتوراة وأطروحاتها.. (نيتشه) هذا هو الأب الروحي للنازية .. وهو أيضاً الأب الروحي (لآحاد هاعام)، فالترابط جدلي بين النازية والصهيونية. لذا ظل اليهود مواطنون في الدول التي ولدها فيها ويعترفون بذلك، ومع ذلك مطلوب منهم انعزالهم، إذن هناك فجوة أخلاقية في أخذ الحقوق وحبس الواجبات.

كان "الجيتو" البديل "القومي" المفقود عند اليهود، مقابل الوعي القومي الأوروبي أي مزيداً من الانغلاق يواكب الانفتاح الأوروبي. فأسوار (الجيتو) المادية والسيكولوجية تزداد ارتفاعاً كلما زادت الممارسات اليهودية (الشيلوكية) التي جوهرها الجشع والربا والطمع والاستغلال، وما قد تفرزه هذه السلوكيةمن أحداث عنيفة، تخدم الفكر والتوجهات الصهيونية، بزيادة الانعزال وبالتالي زيادة الالتصاق بالإطار الديني اليهودي. ونظراً لاتسام العلاقات بين الشعوب والدول منذ القدم وحتى ما بعد العصر الوسيط بالطابع الديني، أو بمعنى أدق، نظراً لأهمية العامل الديني في التأثير على العلاقات بين الناس فقد أدى ذلك الى نوع من الحساسية بين الديانات، والعداء في كثير من الأحيان، وتآلف عميق بين أتباع الديانة الواحدة كلما كانت الظروف الخارجية أكثر ضغطاً، الأمر الذي حال دون تلاشي الديانات ذات الأفكار المتعصبة رغم قلة اتباعها. فأمام زحف الديانات لم يكن أمام اليهود سوى التقوقع والانطواء والتعلّق بمفاهيمهم الميتافيزيقية والتي تجسّدت بفكرة "المسيح" المنتظر التي شكّلت عصب الفكر اليهودي "لانقاذهم" من أوضاعهم، فكانت فكرة "المسيح" هي الإطار الوهمي الذي جعلهم يرفضون فكرة الاندماج انتظاراً لعودته والتي تفترض شروطاً أهمها:

أولاً:
التمسك بحرفية التوراة.

ثانياً:
الإيمان بنقاء اليهود أو السعي الى تنقية الدماء بالعزوف عن الزواج المختلط.

ثالثاً:
بناء الدولة اليهودية المشروطة بتوفر الأجواء لقدوم المسيح، والتي يراها البعض غير جائزة إلا بقدومه.

إذا رد الآخرون على الأفكار العنصرية اليهودية وعلى رفضهم للحقوق والمساواة واحتجوا على السلوكية اليهودية التي تهدد لقمة عيشهم بدأ اليهود يصرخون أنها "اللاسامية". . بل ويزعمون أن "اللاسامية" حالة

متأصلة لدى الأوروبيين. فبهذا الاتجاه يقول الكاتب الصهيوني (اسحاق جرينفيم): "هاجم بنسكر دون رحمة أوهام أبناء جيله بأن اللاسامية وجهة نظر مؤقتة.. فالعداء لليهود مرض نفسي مصدره كره اليهود والخوف منهم. . لقد ظل اليهود غرباء وسط شعوب أوروبا الذين لم يستطيعوا تحمل التشكيلة المتجانسة هذه والمتناقضة معهم في كل شيء. . أليسوا يرتعدون من الشعب الذي واصل حياته رغم نأيه عن الوثنية وهو السبب في اتهامه والاشتباه به. أليس خطأ فادحاً غفران ذنوب الآخرين. والمساواة التي أعطوها لليهود لم تكن إلا نتاجاً لمنطق مغالط لكي لا يوحدوا مشاعرهم اللاواعية فيظلوا عالة تحت رحمة الكراهية" (1).

التناقضات الاجتماعية والسلوكية بين اليهود وغيرهم سميت "المسألة اليهودية" وهي ليست إشكالية يصعب حلها بل إن الموضوع يتلاشى تلقائياً إذا اعتبر اليهود أنفسهم مواطنين في الدول التي أعطتهم الحقوق والمساواة. فالقوانين في أوروبا الشرقية والغربية وفي كثير من دول العالم تعتبرهم مواطنين كاملي الحقوق. إلا أنهم يرفضون المنطق العقلاني ويصرون على أنهم قومية وليسوا أتباع دين من قوميات متعددة. فالحاخام اليهودي (يهودا ليب ماغنس) – حاخام سان فرانسيسكو – يقول: كل مكان يوجد فيه يهود، فثمة مسألة يهودية.

فاليهود رفضوا بالإجماع – تقريباً – فكرة الحقوق المدنية، ونظروا الى مثل هذه الإجراءات على أنها تمثّل بداية فنائهم "كشعب مختار" وظلوا متمسكين بواقعهم الانعزالي المنغلق في الجيتو والأحياء اليهودية الأخرى. فعندما أعلنت الثورة الفرنسية قانون الحقوق رفضه اليهود. وقد جاء في كتاب "الحركة الصهيونية" باللغة العبرية: سارعت الثورة الفرنسية، في سباقها مع الأحداث، بإصدار قرار يعتبر اليهود مواطنين فرنسيين، والقرار ذات الأهمية قُبل بعد إلحاح الجمعية التأسيسية والجمهور الفرنسي. وبعد عدة سنوات عادت الجمعية التأسيسية الى التأكيد على القرار بوضوح حيث اعتبرت اليهود أبناء الشعب الفرنسي ولهم كل الحقوق. وهذه القرارات أسفرت عن تساؤل: من هم اليهود أديانة أم أمة؟ وأخيراً تبلورت فكرة أنهم أصحاب ديانة. لكن ظل يعتلج في العقلية اليهودية أمر بارز مفاده: من ملك وطناً يشكل أمة. ويضيف (اسحاق جرنيفيم) في الكتاب المذكور آنفاً: "لقد تولدت الرجعة الميمونة وسط الشعوب الأوروبية التي دفعت اليهود نحو العالم فارتقى الى الغنى والمعرفة، مما أثار عند الآخرين الشعور بالغيرة والمنافسة. وبالتالي إثارة الخوف عند اليهود، سواء كان خوفاً حقيقياً أو وهمياً، لكنه سيطر على يهود العالم. والاندماج أثار صيغة القهر الماضي بكل مآسيه. وهكذا تولدت اللاسامية بصورتها الجديدة فكانت التربة التي احتضنت بذرة التحرر ومن ثم ولدت الفكرة الصهيونية".

تدل محاضر المؤتمرات الصهيونية التي بدأت عام 1897 وما بعده، على ضعف الحركة الصهيونية كفكرة ذات نهج أيديولوجي واضح وطريق سياسي

محـدد. فالحركـة الـصهيونية لـم تكـن أكثـر مـن إطـار سياســي فـضفاض لمجموعة تنظيمات أيديولوجيـة متناقـضة وشخـصيات ذات نفـوذ، مـع غيـاب الوضـوح فـي رؤيـة الهـدف وتحديـده بالـضبط. وقـادة الحركـة الـصهيونية لـم يحددوا ما يريدونه، كون المطالب لم تكن قد تحددت على الـصعيد النظـري. ولنا مثال واضح في مسيرة هيرتزل الذي وافق على عدة أماكن من العـالم لتجميع اليهود والسكن فيها، والأقل حماساً عنده كانت فلـسطين. ونتيجـة للمواقف المتذبذة والانقسامات الداخلية "فقد أصاب الحركة الضعف والـوهن وبذلك فقدت القدرة على العطاء والجدية، كما أنها تبنت خططاً غيـر عمليـة فكانت اهتماماتها يعتروها التردد" (1).

لم يكن بالإمكان تنفيذ الاستيطان في فلسطين اعتماداً على قدرات اليهود والحركة الصهيونية الذاتية، فلولا عدة عوامل خارجيـة، اسـتغلها اليهـود لمـا كان هناك استيطان وهذه العوامل:

أولاً:
الوضع المتردي والمفكك للأمة العربية والضعف والجهل والفقر كنتائج لازمـة لوجود الاستعمار العثماني، وأهمها عدم الوعي بـالخطر الـدافق مـن أوروبـا بصيغة مهاجرين جاءوا بحجة الدفن في الأرض المقدسة.

ثانياً:
كان حال الامبراطورية العثمانية تلـك الفتـرة فـي موقـف لا تـستطيع الـدفاع حتى عن مـصالحها وهـي الفتـرة التـي أطلـق عليهـا الغـرب اسـم "الرجـل المريض" (1).

ثالثاً:
أخـذ التنـافس يترسـخ لـدى الـدول الـصناعية فكانـت "المـسألة اليهوديـة" حصان طـروادة لكـل الاتجاهـات فرنـسا، ألمانيـا، بريطانيـا، روسـيا، إيطاليـا.. وغيرها.

---

(1) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص 236.

(2) المصدر السابق.

(1) المصدر السابق ص 126.

(2) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص 105 – 106.

(1) يوري ايفانوف إحذروا الصهيونية.

(1) اسحاق جريتفيم الحركة الصهيونية (عبري) الجزء الثاني ص 16.

(2) ميلينا مود رجنساكايا الصهيونية العنصرية منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.

(1) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص 316 – 317.

(1) اسحاق جرينفيم الحركة الصهيونية (عبري) الجزء الأول ص 36.

(1) المصدر السابق ص 33.

(1) جرت اتصالات بين تركيا وعدد من زعماء الحركة الصهيونية وعلى رأسهم (هيرتزل) لتوطين اليهود في فلسطين وقد وافق السلطان على ذلك لقاء قرض مالي تقدمه بعض الأوساط لتركيا. ويمكن الرجوع الى كتاب "الحركة الصهيونية" تأليف (اسحاق جرينفيم) للاستزادة. والذي قمت بترجمته الى العبرية وصدر عن دار الجاحظ للنشر والتوزيع في عمان (الأردن).

تساؤل لا بد منه

أمام اللاوضع واللاخيار واللاوعي الفلسطيني والعربي . . قامت "دولة اليهود" وأعلنت رسمياً في 14 أيار 1948 واعترفت بها دول العالم. بل إن بعضاً – أو كثرة – من العرب بدأوا التعامل مع هذه (الدولة) كحالة واقعة أو كحالة لا بد من التعامل معها حسبما يرى آخرون.

لكن هذه (الدولة) بقدراتها الذاتية لا يمكن أن تصمد الى الأبد في بحر العداء الذي أداته الحرب بحكم الإمكانات المحدودة لهذه (الدولة) وخاصة ديمغرافياً واقتصادياً ووضعاً جغرافياً، فإذا قبل بعض العرب الاعتراف بالكيان الصهيوني (كدولة) فهل تصمد هذه أمام بحر العداء التاريخي ؟؟

المستقبل والأمة والأجيال والتاريخ شواهد !!!